مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرّس

الجزء الخامس

طبعة جديدة مصححة

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد:طريق المطار خلف اوتيل الغولدن بلازا

هاتف 009611540000 /009611455559 فاكس:009611850717

Email: darturath2012@hotmail.com

يطلب من

مكتبة القيروان العراق-كركوك شارع المتنبي -قرب سوق السراي موبايل:009647707152384

مكتبة امير كركوك عمارة خان الكبير -الطابق الأرضي موبايل:009647702304025

amirmaktaba@yahoo.com

بقية الجزء الثالث عشر
سورة الرعد

مدنية، وآياتها ثلاث وأربعون
نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ
فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى
ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ
بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ﴾ الكلام فيه معنىً وإعراباً مثل ما تقدم في أمثاله. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى ذلك أنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ الإشارة إلى آياتها باعتبار أنها لتلاوة بعضها، وكون الباقي في معرض التلاوة صارت كالحاضرة مع الملك. والمراد بالكتاب السورة أو القرآن أو اللوح. أي تلك الآياتُ آياتُ السورة أو القرآن أو اللوح المحفوظ ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر، والمراد وكل ما أنزل إليك من الله تعالى من آيات هذه السورة أو غيرها هو الأمر الثابت المطابق للواقع منشأً ونزولاً وغايةً. فهي من الله لا من غيره، ونزل مع المَلك الأمين لا مع الأرواح الخبيثة. وغاية النزول غايةٌ شريفة هي

إرشاد المكلفين إلى طريق سعادة الدارين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ممن نزل لإرشادهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين لأن سوء استعدادهم وغلبة الشهوات النفسية عليهم جَعَلتهم كمن لا عقل له ولا نظر ولا فكر في شيء يدل على أنه الحق، فإن هناك أشياء محسوسة وأشياء معقولة يدل كل منها على أن العالم له صانع واجب الوجود موصوفٌ بالكمال، منزه عن النقص وكل فِعلٍ من أفعاله مقرون بحكمة كما سَرَدَها بقوله الكريم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي رفع المواد العالية المسماة بالسماء، وتجمعُ على سماوات مرتفعاً بعضها فوق بعض، وعددها سبع، وهي شداد لا تنخرق ولا تتمزق. أما عددها فلآياتٍ منها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وأما أن بعضها فوق بعض فلقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾. وأما أنها شداد فلقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ وأما أنها لا تتمزق ولا تنخرق فلقوله تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ فصريح هذه الآيات الإبداعية تدل على أن السماوات أجرامٌ علوية واسعة بعضها فوق بعض وبعضها متصل بالبعض، وأنها موجاتٌ مكفوفة وثابتة على حد محدود بجاذبية خاصةٍ تحافظ على شخصيتها، فليست السماوات السبع عبارة عن السيارات السبع التي تسبح في مدارات مختلفة حسب موازينها الخاصة، بل إنها مع كبر حجمها كجوهرة محدودة في بحرٍ محيط، ولا يعلم مقدار طولها وعرضها إلا الله، وأن الشمس والقمر وسائر الكواكب مكشوفة أولاً كلها في السماء الدنيا الأولى التي هي أقرب السماوات إلينا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وأن جرم الكرسي فوق السماوات السبع لقوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأن الجنة فوق السماوات لقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وهي فوق الكرسي وتحت العرش: «**سقف الجنة عرش الرحمٰن**» إلى غير ذلك من الآثار. وأن الماسكة هي قوة جاذبية لا تدرك بالأجهزة المادية لقوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

وأن العرش فوق الكل لظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي استولى

عليه. أو على معنى آخر أراده الله تعالى موافقاً لنزاهته من التحيز والتمكن ومن الحاجة إلى ما يماسه وغير ذلك ما لا يليق بذاته الواجب الوجود. وهذه المفاهيم واضحة ظاهرة لكل ذي عقل وإدراك وبصيرة. وأما كشفها والإحاطة بما فيها فهو عائد إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذللهما لما أراد منهما من الحركة المستمرة ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لمدة معينة محدودة ببقاء هذا العالم، إذ عند انتهائه وقيام الساعة لا تبقى هذه السماوات ولا الشمس ولا القمر ولا باقي الكواكب، إذ يُشرقُ العالمُ بنور يَخلُقُه الله تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ ونور الله تعالى المخلوق لإضاءة العالم يكفي لإنارة سمائه وأرضه بطوله وعرضه، فإن عالم الآخرة عالمُ الخلود وعالمُ البقاء بدون الأمراض والأعراض، وعالم كذلك لا يتناسب إلا مع إشراق رباني ونور سبحاني، وذلك هو العالم الثاني والدار الآخرة التي خُلِقَت للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وذلك العالم هو العالم الذي يليق بلقاء ذاته الكريم والنظر إلى الرب العظيم كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وكما أفاده بقوله الكريم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فالواجب على المؤمن الوقوف على هذه الظواهر والتوقف عن التأويلات الزائفة التي لا قيمة لها في الواقع، فكم من وجوه أبْدَوْها وبعد مدة وجيزة ثبت أنها أغلاطٌ وأخلاط؟ وقوله تعالى ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ظاهره جريان كل من الشمس والقمر. أما جريان القمر فلا كلام فيه. وأما الشمس فكان الناس القدامى يقولون بحركتها كما هو مذكور في كتبهم. وأما الأخراء فكانوا يؤولون جريانها بجريانٍ في الحس لا جرياناً واقعياً لأنهم اعتبروها مركزاً لحركات السيارات حولها واعتقدوا سكونها في محلها، لكن اليوم بدأ القول بأنها مع مجموعتها الشمسية في حركة في العالم كما يعلمها الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ جملة مستأنفة وجواب لما يقال: من الذي يدبر أمر هذه السماوات وما فيها من النيرات والمصابيح؟ فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي الله الذي يدبر أمر العالم العلوي والسفلي. والمقصود أن الله سبحانه وتعالى كما خلقها ورفعها وزينها بمصابيح كذلك دبر أمرها وسيدبرها ويدبر شؤونها إلى أجل مسمى إذ وجب الإعتراف بالمعلول عند الإعتراف بالعلة والتصديق بالمدلول عند التصديق بالدليل، فما دام علمنا أن هذه المواد العلوية والسفلية ممكنات مستوية

الوجود والعدم في ذاتها وإنما رجح وجودها على عدمها واجب الوجود وعلمنا أنها حادثة والحادث يحتاج إلى المحدث.. علمنا أنها ذاتاً وصفة حدوثاً وبقاءً مربوطة بخالقها العالم بها القادر على التصرف فيها. وقوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي ينزل آيات الكتاب المبين مفصلة واضحة لمن تدبر فيها. أو يفصل الآيات الكونية الدالة على وجود الواجب وكماله لمن يستدل بها بإمعان وتفكر. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لعلكم تتفكرون في عظمة الباري وقدرته الغالبة على الممكنات فكما خلقكم وأوجدكم من العدم كذلك إلى الوجود، وتلقون ربكم وتحاسبون على أحوالكم وأعمالكم وتستفيدون من هذا التدبر شعوراً بالمسؤولية وتستسلمون للرسول الأمين الآتي بالكتاب المبين. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي خلقها ممدودة محدودة، وجعل لها طولاً وعرضاً وأطرافاً ومناطق على وضع خاص مناسب لمعيشة الحيوانات عليها، وموافق لرعاية الشروق والغروب ومعرفة الأبعاد بين البلاد حتى يسعد البشر عليها بإدراك المعلومات من العالم العلوي والسفلي، وبتطور في مراتبها، ويستدل بها على نظام خالقها، وأن الله لم يخلق هذه المواد العزيزة عبثاً بل كل جزء من أجزائها فيه حكمة ورحمة، ويستفاد منه بركة ونعمة، فيتمتع بتلك النعم ويشكر الخالق المنعم على الوجه الأتم. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ذوات استقرار في محالها على قواعدها الرصينة حتى تكون وسيلة لتوازن أطرافها في الحركات، ولا تميد بكم في المدارات، وتستفيد من الثلوج والأمطار والهواء الصافي النقي فيختزن فيها العيون، وتأخذ مجراها في سطوح الأرض وتتكون الأنهار، وتستغل في الزراعات والبساتين والغابات والأشجار ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ يستفاد منها بشتى وجوه الإستفادة ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جعل فيها ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا صنفين مختلفين في اللون كالأسود والأبيض، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في المقدار كالصغير والكبير، أو في الحرارة والبرودة إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف... ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي جعل الليل غاشياً ساتراً للنهار، فيصير الجو مظلماً ويستريح المتعبون بالنهار في دار القرار، ويخرج المختفون في النهار إلى وسائل معيشتهم في الديار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن جولان النفس في المعلومات المخزونة عندها ووجدان المواد المناسبة للإستدلال بها، أو التعريف لمجهولاتها يفيد أصحاب

العقول القوية فوائد فرائد وعوائد توضع على الموائد فيأخذ اللاحق من السابق وجوه الحقائق.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ الممدودة كما ذكر ﴿قِطَعٌ﴾ منها ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ وهي مختلفات في الصورة النوعية والصفات فمنها طيبة نقية تنبت الزرع والأشجار ومنها فاسدة خبيثة لا تنبت إلاّ الأشواك بدون الثمار ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي وفي الأرض جنات أي بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي من أشجار الكرم يستفاد منها رطباً ويابساً جامداً وسيالاً ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ جمع صنو وهو الفرع الذي يجمعه وفرعاً آخر أصلٌ واحد، وأصل الصنو المثل ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي ونخيل غير مضمومة بعضها إلى بعض وغير متفرعة من أصل واحد ﴿يُسْقَىٰ﴾ ما ذكر ﴿بِمَآءٍ﴾ واحد لا اختلاف في طبعه ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ بإرادتنا بدون تأثير شيء آخر في ذلك الإختلاف. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ شمول قدرة الباري للممكنات كلها على حد سواء.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)﴾.

وقوله تعالى ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ عبارة وتستعمل في إظهار التعجب من شيء غريب يستحق أن يتعجب منه، فيقول الباري سبحانه وتعالى خطاباً لحبيبه محمد ﷺ وإن تُرِد أن تتعجب من شيء مناسب فعجب أي فأمر عجيب غريب لم

يسبق له في عقول العقلاء استقرار ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في مقام استنكار البعث ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ ورفاتاً لا يتميز فيه العظم من العصب ولا العصب من اللحم ولا اللحم من غيره ﴿أَءِنَّا﴾ في ذلك الطول والدور ﴿لَـ﴾ حادثون ﴿فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إنهم يعدون أنفسهم من العقلاء مع أنهم بعد رؤية آثار قدرة الله في الكائنات الغالبة على إماتة الأحياء وإحياء الأموات يستنكرون الإحياء مرة ثانية، ولا يتفكرون أن الله قبل وجود أية مادة من المواد وأية صورة من الصور خلق المادة وصورتها وتصرف بالوجوه المختلفة فيها فأحيا بعضاً منها وأبقى بعضاً على حالها. ثم أزال الحياة عن الأحياء وهي في كل دور مسخر؛ لتأثير القادر العليم الخبير، ومع ذلك ينكر تصرف الباري فيه بإحيائها بعد فناء تلك الصورة، ولا يدري أن من قدر على الإيجاد قبل الوجود قادر على إعادة الوجود في ذلك الموجود لأن القابل باق والفاعل أبقى والقدرة لم تتغير، فإنكار التأثير في وقت دون آخر مكابرة لا طائل تحتها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ أي أولئك المنكرون للبعث وإنشاء الخلق الجديد بعدما رأوا الآيات الدالة على أنه يسير على الله القدير هم الذين كفروا بربهم واستمروا على الجهالة العمياء في الدنيا. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ في الآخرة جزاء لهذه البادرة المنكرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها أبداً.

ثم ذكر الباري تعالى بعد بيان كفرهم وسوء عاقبة أمرهم بعض أحوالهم الفاسدة فقال ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي يطلبون منك استعجال العقوبة قبل الحسنة وهي الستر والأمان والعافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ وقد مضت وانقضت من قبل زمان مجيئهم إلى الدنيا المثلات وهي جمع مثلة بمعنى العقوبة الفاضحة. يعني لو لم تسبق قبلهم العقوبات ولم تقرع أسماعهم أخبار حوادث الكائنات كانت لهم معذرة في الجراءة وطلب بعض المصائب لكن مع سبق ذلك وقرع السمع مما هنالك يطلبون إنزال العقوبة عليهم. وإن ذلك مما يتعجب منه العاقلون ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ أي مع وجود ظلمهم على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي، فما داموا تابوا إلى الله وانتهوا عن تلك المعاصي فالله غفور رحيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من عاند واستمر على المعاصي ولم يزل إلى أن جاءه الأجل لأنه مقتضى كلامه ومنتهى نظامه وأحكامه.

ثم ذكر حالاً أخرى بالتعجب من الأولى وهو أنه ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثل آيات عيسى وموسى من قلب العصا حية

تسعى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ يعني فإذا فوجئت بذلك فاسكت واصبر إنما أنت منذر مرسل للإنذار من سوء عاقبة أولئك الناس. ولست مخولاً بإظهار المعجزة كما يريدون ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ يبشر قومه وينذرهم، فمن آمن به فهو المهتدي للصراط المستقيم ومن كفر به فهو الخاسر الذي خسر رأس مال العقل والحلم ورجع إلى سواء الجحيم.

ثم ذكرهم ببعض صفات الباري تعالى حتى يهتموا بها فينتبهوا وقال ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ بالذات بدون الحاجة إلى أي جهاز وآلة ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من الذكر أو الأنثى أو الصنفين ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ أي وبما تنقصه الأرحام وما تزيده في الجثة والأعضاء ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ﴾ متلبس ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾ محدود لا يزيد ولا ينقص منه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾.

ولما كان الشيء عندنا هو الموجود، والكل أداة الإحاطة صار معنى الآية الشريفة إن كل موجود عيني جوهراً أو عرضاً له في مراحل حدوثه وبقائه كمية محدودة مشخصة لا يزيد عليها ولا ينقص منها؛ فتستوعب الآية دقائق وجود الأعيان والأعراض وتفيد أن زيداً مثلاً في مبدأ حدوثه ومسافة بقائه وآخر أمَدِهِ في كل دقيقة له مقدار مقرر في علمه تعالى لا تتبدل ولا تتحول. هذا إذا فسرنا الشيء بالموجود الخارجي، وأما إذا فسرناه بما يعم الشخص والصنف والنوع والجنس مطلقاً، فمعناها أن كل جنس مطلقاً وكل نوع وكل صنف وكل شخص من الصنف له أفق خاص لا يزيد عليه ذلك الشيء ولا ينقص، وأوسع الآفاق أفق الجنس العالي. ثم المتوسط، ثم السافل، ثم النوع. ثم الصنف، ثم الشخص. ومعنى ذلك إحاطة علم الله وقدرته بجميع الكائنات بحيث لا يشذ شيء عنهما سواء كان مشهوداً عندنا أو غائباً، وبذلك يتناسب مع قوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ ويدخل في ذلك أحوال الإنسان وأعراضه وأمراضه وأغراضه وأعماله وآجاله وآماله ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ فإذا آمن الإنسان بذلك استراح واطمأن قلبه ولم يبق عنده قلق من كل ما يجري عليه في مبدأ حياته إلى منتهاها، ولا ييأس من روح الله لأن كل آن وكل دقيقة وكل ساعة له ميزان خاص مقرر في علمه تعالى، فقد يكون حاله في الآنات التالية غيرها في الحالات السابقة.

ويترتب على إحاطة علمه تعالى قوله ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به، أو تلفظ به ولم يسمعه نفسه، أو تلفظ به وأسمعه نفسه فقط دون غيره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ بحيث أسمعه من يليه أو أسمعه نفسه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي من يبالغ في الإختفاء علاوة على ما عليه من غشاء ظلمته ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر فيه من سرب إذا ذهب في طريقه؛ فإن من كان عالماً بالغيب والشهادة لا يخرج عن علمه شيء مما ذكر. وقوله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي لمن تقدم ممن أسر بالقول إلى آخره ملائكة معقبات تعتقب في حفظه وصيانته من المضار والمصائب ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ من بين يديه ومن خلفه حراس له أمامه ورقباء خلفه يحفظونه حفظاً ناشئاً ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أجل إصدار الأمر من الله تعالى لهم بحفظه. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ ودائرة الحفظ تسع الحفظ من الماديات والمعنويات من شياطين الجن والإنس ومن الأعداء والسباع والحشرات والأمراض... وذلك مربوط بأمره تعالى ليلاً ونهاراً ويبدو ذلك بكثرة في صيانة الصبيان والبله الذين لا يقدرون على رعاية أنفسهم، وإلا فلو لم يكن عليه حفظة من الله ثناه الإنسان في متاهات وتراكمت عليه المصائب والبليّات فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

والأخبار الدالة على هذه المحافظة كثيرة وفيره مؤيدة ومفسرة للآية الكريمة، فإن قيل ما وجه هذا الخلط وما معناه؟ فإن كل مقدّر لا بدَّ أن يكون، وكل ما لم يقدر لم يكن كما قال ﷺ: «**ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن**» قلنا: إن ما شاء الله وقضاه وقدره منها ما هو مربوط بشرائط وأسباب معلومة لنا. ومنها ما هو مربوط بشرائط وأسباب غير معلومة لنا، وتيسير تلك الأسباب كلها من الله سبحانه، فإذا أراد شيئاً هيأ أسبابه، وإذا لم يهيىء أسبابه فمعناه أنه ما أراده، ومن أسباب الصيانة والحفظ شعور الإنسان وانتباهه وسعيه في أسباب أمنه وراحته. ومنها الملائكة المأمورون بها كما في الآية الكريمة. ومنها الدعوات والصدقات فإن تسببها في حصول المأمول بأمر الله تعالى ثابت محقق لا مجال لإنكاره من أهل الشعور، كما أن الباري تعالى جعل على العيون أجفاناً وعلى الألسنة شفاهاً، وعلى المنافذ أوكية وعلى الدور أبواباً فالماديات والمعنويات متظاهرة ومتضافرة في هذا الموضوع. وينص على ذلك قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ والصدقات والنذور من جملة أسباب الأمان والصيانة، وما ورد من «**أن الحذر لا يغني عن**

القدر» فحق لا شبهة فيه، ولكنه في ما إذا أبرم الله القضاء فإنه هو الفاعل المختار، ومنه العوارض والآثار، فعلى المؤمن العاقل أن ينتبه لهذه الأمور ويشرح لها الصدور حتى يتنور بنور الحق ويسلك مسلك الحبيب أكرم الخلق في رعاية الأسباب وإعداد المعدات، وإلا فلم يشرب العطشان، ولم يأكل الجوعان. ولم يكتسب الإنسان أسباب معيشته في طول الزمان: فالملائكة من جملة الأسباب. والإكساب من جملة الأسباب، وأدعية الصالحين من جملة الأسباب، وبركات أهل التقوى وعصمة الصبيان واحترام الشيوخ من أهل الصدق والإيمان، من جملة أسباب جلب الخيرات ودفع البلايا والمصائب وكذلك التوسل بالأرواح الطيبة النقية التقية فإن بركاتها وأنوارها ظاهرة في حياتها ومساتها، وإلا فلم يأمر الرسول ﷺ بمن معه من أصحابه أن يسرعوا في الخروج من ديار ثمود ويتنقبوا ولا يتفرجوا عليها مع مضي قرون وأحقاب على هلاكها ودمارها. أليس ذلك دليلاً على استحباب التبرك بالعدوة في بدر مهبط الأنوار ونزول الملائكة الأنصار والنقطة الوحيدة التي هي قطب دائرة الإيمان والأمان هي التصديق بأن كل ما كان وما يكون من هذه الأنواع فهي أسباب موجودة مرتبة والفاعل والمؤثر والخالق هو الله تعالى لا غيره.

قال السعد في تهذيبه: ولما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده فمعنى العلية والتأثير في الممكن هو السبب العادي انتهى. أي لما كانت الممكنات مستندة إلى الله تعالى ابتداء فمعنى مباشرة الأسباب هو التسبب العادي، أي مباشرة أسباب الجذب والدفع حسب جريان عادة الله تعالى بها.

ويدل على وجوب رعاية الأسباب ومباشرتها بصورة مشروعة نافعة والسلوك على مسلك سنة الله تعالى في خلقه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فإن هذه الآية أو الجملة الجميلة تليق بأن تكتف بالنور على الصدور. ومعناها: إن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من العدم وزوّده بالصفات العالية. وعلمه ما لم يعلم، وألهمه التحرير بالقلم، والمشي على القدم. وهداه بعد العقل السليم إلى الشرع الشريف الذي جاء به الرسول الكريم وشرع له طريق الشورى في المهمات والإعتصام والوحدة لدفع النائبات والإبتعاد عن العقائد الفاسدة والأعمال السيئة الكاسدة وسوء الأخلاق من الشقاق والنفاق. وأن يرى خيره في خير نبي

مبدإه الأمين، وينقاد في أحواله وأعماله لدستور رب العالمين. فإذا نظروا إلى ما شرَّعه الله تعالى وتفكروا في ما يستفاد منه من الآيات البينات والبراهين القاصعة والأدلة اللامعة، وسعوا في تحصيل النتائج الخيرية، ودفع المصائب والبلية وتحولوا من سيىء إلى حسن، ومن الحسن إلى الأحسن. وغيروا ما بأنفسهم من الرذائل وتنوروا بالفضائل فقد وعد الله تعالى، ومن أوفى منه بالعهود إنه يغيّر ما بهم من النقصان ويرقّيهم إلى قمة الكرامة والإحسان. وهذه سنته في كل فرد وجماعة، ولكن التنصيص على القوم إشارة إلى أن خير الخيرات هي نتائج أعمال الجماعة، فإنها رحمة وجالبة لكل خير ونعمة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ لجريان علمه بسوء استعدادهم وفساد عقائدهم وأعمالهم وابتلوا بالنفاق والشقاق وسوء الأخلاق، وإظلام القلوب بالكروب، والإستمرار على الأعمال المشينة، وعدم المبالاة بنصائح الناصحين ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ أي فلا رد له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم، فإنه تعالى في الحقيقة صاحب كل شيء ووال عليه يتولاه برفق ورحمة ولطف، ولا سيما للصالحين. ولذا قال تعالى ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ من جملة ما أنزله الله تعالى من صفات ذاته وأفعاله الدالة على كماله في كل باب من الأبواب، سواء من ناحية علمه الشامل للغيب والشهادة. وحفظه لعباده بالمعقبات فيقول هو الذي يريكم البرق إخافةً لكم من الصاعقة وإطماعاً لكم في الغيث النازل المفيد لأرزاقكم، فالقادر القوي الذي سخر السماوات وما فيها لإحداث ما يريد هو الذي يُعْبَدُ وحده لا من لاحظ له من الوجود الثابت والجود المفيد. هذا وأوّلنا الخوف والطمع بالإخافة والإطماع حتى يتحد العامل والمفعول من أجله في الفاعل فيتحقق

شرط النصب. ومنهم من لم يشترط هذا الشرط ونصبهما مع بقائهما على معناهما المعروف الذي هو من صفاتنا. ففي شرح الكافية المرضي وبعض النحاة: لا يشترط تشاركهما في الفاعل، ويسندون هذا الرأي إلى سيبويه ويستدلون عليه بظواهر النصوص والآثار الواردة، ومنها هذه الآية التي نفسرها هنا.

ثم إنهم فسروا الخوف والطمع بالخوف للمسافر من أذى المطر والطمع للمقيم في نفعه. وبالخوف من العذاب والطمع في الثواب أو الخوف من الصواعق والطمع في النباتات النابتة النامية بها ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ أي الغمام المنسحب في الهواء ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء وجمعه، وإن كان الموصوف مفرداً لكونه اسم جنس في معنى الجمع، ويذكر ويؤنث فكأنه جمع سحابة ثقيلة ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ والرعد اسم للصوت المعلوم. وفي إسناد التسبيح إليه تجوز أي يسبح سامعوه ويتلبسون بحمده على حدوثه لدلالته على القوة القاهرة في جمع السحب وإصعادها، واحتكاك بعضها ببعض، وحدوث ذلك الصوت المهول منها، وعلى النعمة الوافرة مما يحدث بالأمطار النازلة منها، أو تجوز على طريق الإستعارة تشبيهاً لدلالة الرعد بنفسه على تنزيهه تعالى عن الشريك بالتسبيح والتنزيه اللفظي، ودلالته على فضله ورحمته بحمد الحامدين. ومنهم من يقول: إنه إسناد حقيقي والرعد اسم للملك الموكل بإدارة هذا الصوت وإنشائه ومناسبة قوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي ويسبح الملائكة الكرام ﷺ من هيبته تعالى وإجلاله جل جلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته فتحرقه وتهلكه، وتلك النار تحدث من إحتكاك أجزاء السحاب بعضها مع بعض. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي أولئك الذين كفروا وكذبوا الرسول ﷺ يجادلون في الله أي في وجوده، أو في وحدته، أو في تأثير قدرته، أو في الجميع ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي والله هو شديد المماحلة والمكايدة. لا يعارضه أحد إلا هلك.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي اختص به الدعاء والطلب لدفع البلاء والغلاء وإنزال الرحمة والنعماء، فهو الذي يدعى فيجيب، وأنه هو السميع القريب ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ أي للمشركين الداعين ﴿بِشَىْءٍ﴾ من آمالهم ومقاصدهم المطلوبة ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ

كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي إلا إستجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد يطلبه ليأتي ويصل إلى فمه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي وليس كذلك الماء ببالغ إلى فيه لأن الماء جماد لا يشعر بعطش العطاش وطلبهم حتى يستجيب لهم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع وخسار وعدم إفادة.

واستشكل عدم استجابة دعواتهم باستجابة دعاء إبليس عندما قال ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾. وأجيب بأن المراد دعاؤهم في شأن الآخرة ورفع العذاب عنهم. وقد يقال: إن الإستجابة نوعان: نوع مقرون باللطف والرفق والرحمة بالداعي، فهذا هو المسلوب إجابته عن الكفار، وقسم فائض من إنعامه العام والرفق بكل ذي روح، ولو من السباع الضارية والحشرات العادية والكفار الغاوية، فهذا يشمل الكل، ولكن لا من باب إستجابة الدعاء.

ثم قال الباري تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي والله تعالى وحده لا لغيره أو مع غيره يسجد ويخضع ويعبد من في السماوات والأرض من الملائكة والجن والإنس ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعين في حال الإسلام، وكارهين في حال القهر والاستسلام فإن الشخص المؤمن بالله ساجد طوعاً خوفاً وروعاً، ويخضع ويتذلل ويبتهل إليه تعالى لرفع عذابه وعقابه ونيل خيره وثوابه، والشخص الحي الكافر والمتمرد المعاند له تعالى والجامد الذي لا شعور له حادث مسخر لتصرفه تعالى ومتذلل له أينما كان.

﴿و﴾ معنى السجود هو الخضوع للمعبود أي لا يسجد هؤلاء بأنفسهم فقط بل ويسجد كذلك ﴿ظِلَٰلُهُم﴾ الحادثة مع الطول تارة ومع القصر أخرى. هذا للماديات، وأما لغيرها فالمراد بها الآثار والتفرعات الناتجة منها، والمقصود أن كل موجود حادث فهو في إدارة ربه، ومنقاد لحكمه، ومطيع لشوكته، ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ خلافاً لسجود الكل. والمراد إما الوقتان المعلومان نفسهما، فإن الوقت الأول يشبه زمان بداية الخلق، والثاني يشبه زمان إنتهائه، أو المراد بهما الإستمرار في هذا الإنقياد والتذلل في كل وقت وحين.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ

ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا
يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ
فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا الأمر والإستفهام للإنتباه، وأخذ الجواب الحق وتقرير أن خالقهما وصاحب شؤونهما هو الله الذي لا إلٰه إلا هو القادر على كل ممكن عال أو سافل، ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يجيب عن الإستفهام بقوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يعني أن العالِمَ حقيقة بشخصية الخالق هو نفسه لا غيره، ومنه يسري العلم إلى غيره، وإذا أنت أقررت وقررت أن خالقهما هو الله، وأخذتَ العلم بهذا الأمر المهم منه تعالى يُقِرّ العقل السليم في أي زمان ومكان بذلك فحينئذ لك المجال أن تستفهم الناس المشركين إستنكاراً على انحرافهم عن ذلك الأمر الحق، ولذلك قال له ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لمناصرتكم حال كونهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ وهي أعز الأشياء عليهم لو كانوا عقلاء ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فضلاً عن إنفاع الغير وإضراره. ﴿قُلْ﴾ لهم للمثيل بعد تحقيق الفرق بين المحسوسين المتقابلين: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بالعقائد الحقة والموحد العارف بها ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؟ حتى تستوي غياهب الكفر والضلال ومراتب الأنوار والهدى، فإن جهل المشرك وعلم الموحد معنويان، والعمى والإبصار ماديان ومحسوسان باعتبار مبدأ الإنتزاع، وكذلك الظلمات والنور محسوسان والكفر والإيمان معقولان، فإذا أدركتَ الفرقَ الواضح بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور أدركت الفرق بين المشرك والموحد والكافر والمؤمن. وكلمة ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ منقطعة بمعنى بَلْ للإضراب، وهمزة الإستفهام يعني أبَل جَعلوا أي أولئك المشركون لله جل جلاله الرفيع شركاء من الأوثان والأصنام خلقوا المواد العلوية والسفلية كخلقه تعالى لها فالتبس عليهم خلقه تعالى بخلقهم، وجعلوا لهم خلقاً وإيجاداً كما لله تعالى واعتقدوا إستحقاقهم للعبادة كاستحقاقه تعالى لها.

والإستفهام إنكاري لأن إنتفاء ما بعدها محقق. ﴿قُلِ﴾ لإعلان الحق وبيان الواقع ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الجواهر والأعراض، ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾.

ثم أخذ يذكر من أفعال الباري تعالى ما تنقاد له العقول وتعترف بأن فاعلها هو الفعال لما يريد. فقال ﴿أَنزَلَ﴾ أي الله تعالى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من جهتها على ما هو المشاهد ﴿مَآءٗ﴾ أي مياهًا كثيرة تعم الأقطار والأقاليم، أو نوعاً منه وهو الماء الذي ينبت به النبات ﴿فَسَالَتۡ﴾ به أي بذلك الماء ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾ كثيرة أراد تخصيصها به بحسب حكمته، ونسبة السيلان إليها مجاز لأنها محل سيلانه ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا﴾ أي غثاء يطرحه الوادي إذا جاش الماء واضطربت الأمواج ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ إبتداء جملة أخرى، أي ومن المعادن التي يوقدون عليها في النار أي في المجمر الموضوع على النار، لطلب حلية تتحلى بها النساء والصبيان كثيراً والرجال قليلاً، أو لطلب ما يتمتع باستعماله كالأواني والكؤوس زبد مثل زبد الماء المائج ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الرابي على الماء السائل، أو على المواد المعدنية يوقد عليها النار ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ فيفوت خالياً عن الفائدة ويتفرق في الهواء، أو في الأرض وينمحي بدون منفعة فيه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء الصافي عن الغثاء، أو الجواهر الخالصة المعدنية من الذهب والفضة وغيرهما ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ويبقى فيها للسقي والزرع وغيرهما، أو للحلية وسائر الأمتعة النفيسة ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في كل باب لإرشاد العباد.

ولما بين الباري تعالى شأن كل من الحق والباطل شرع في بيان أهل كل منهما وهم المستجيبون لله وغير المستجيبين له فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ ولبُّوا دعوته إذا دعاهم إلى الحق ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وعاندوا وفسدوا وأفسدوا لهم مصيرٌ شر مصير ومآل شر مآل فيقعون في العذاب والعقاب والنكال والوبال في المآل ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ عن أنفسهم ليتخلصوا من العذاب الذي ابتلوا به، ولكن لو افتدوا به وبأضعافه ما تقبل من أحد منه، لأنهم أصروا على العقيدة الفاسدة والعقدة النفسية الخالدة، والجزاء على وزان الأعمال، ولا نجاة لهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ

﴿ٱلْحِسَابِ﴾ أي حساب سيء جداً لا يسامح منهم قيد ذرة لابتعادهم في الدنيا عن كل خير ومبرة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمستقر جهنم.

وفي تلك الأمثال عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وذكرى للمتذكرين، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إستدل بالآيات الآفاقية والأنفسية على وجوده ووحدته وكمال صفاته، ثم وعد الملبين له الجنات والدرجات وأوعد المتمردين بالعذاب والدركات، وأفاد أن ذينك المآلين ليسا أزمنة مؤقتة يخلص منها وإنما هما مآل موصوف بالدوام والخلود، وقرر في تضاعيفها أن الثراء والمال ورفعة الحال أشياء تافهة لا قيمة لها عند أولي العقول النيرة النابهة، وأن ما ينفع هو العقيدة السليمة والعمل الصالح والخلق العالي.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ يعني أبعدَ بيانِ حال الفريقين من المؤمنين والكافرين يكون مَنْ يعلم ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا ريب فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يبصره ببصره ولا ببصيرته، وابتلى بسوء سريرته، ولا يؤمن بالله الواجب الوجود، ولا يؤمن أنه هو الخالق المعبود، ولا يصدق بأن الرسول هو الواسطة الصادقة بين الخالق والخليقة في تبليغ العقائد والأحكام؟ وجواب الإستفهام كلا ومعاذ الله لا يستويان لأن الإيمان موقوف على التذكر و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين يوفون بعهد الله عهداً روحياً في ما مضى من الأوقات، وعهداً على أيدي الرسل أولي الكرامات أي أصحاب العقول الخالية عن الإرتياب ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بوجوده ووحدته والتزام شريعته ﴿وَلَا

يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ الذي وثقوا به بينهم وبين الله أو بينهم وبين الناس على الوجه المشروع. ومنها المبايعات والمراهنات والإيجارات والشركات والعقود الجارية بينهم في الأحوال الشخصية وغيرها فإن العالم مبني على النظام والنظام لا يفيد إلا مع الإلتزام وهذا الإلتزام هو الفارق بين أهل الحق والباطل ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ كنفقات الزوجات وأفراد العائلة والمماليك وأجور العمال وصلة الأرحام ورعاية حقوق الأساتذة والأصدقاء الأوفياء ومن له حق على الإنسان ديناً أو دنيا ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي يخافون وعيده من عدم الوفاء بالملتزمات، أو الخلل في الوفاء بها ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي يخافون الحساب السيىء، والحساب السيىء هو المحاسبة على الأعمال السيئة، وإلا فمحاسبة الباري لعباده كلها حسنة ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على مكاره ترد عليهم من الإلتزامات والوفاء بها من أداء الصلوات في الأوقات الحرجة، وإسباغ الوضوء، والغسل في المكاره، والصيام في وقت التعب، والمصابرة مع الأعداء في الحرب، والرباط في الثغور، ورعاية الواجبات بالشعور، وإنما صبروا عليها ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلباً لمرضاته لا للرياء والسمعة وغيرهما من الرذائل ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة والمسنونة ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا﴾ لا يعلم به إلا الله ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ إذا استحب الإعلان ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدرؤون بالأقوال والأعمال والأخلاق الحسنة الأقوال والأعمال والأخلاق السيئة. فإذا سمعوا الشتام تصامموا، وإذا رأوا الأعمال البذيئة تعامَوا، وإذا عوملوا بالإعتداء عفوا عن المعتدين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الناس الموصوفون بالنعوت المذكورة ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحسنة لأصحاب هذه الدار وتلك العاقبة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾ من أبواب المنازل المعدة لهم قائلين لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ سلاماً خالداً من كل بلاء وآفات مادية ومعنوية وذلك جزاء لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على مشاق ترك المحرمات وأداء الواجبات ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي فنعم الدار الواصلة إليهم في العاقبة، وهي الجنة، أو فنعم عاقبة الدنيا الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي ذلك حال الذين وفوا بالعهود ووقفوا عند الحدود، وأما الذين ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي أبطلوا العهد الذي عاهدوا الله عليه من الإيمان والإحسان وترك المحرمات وأداء الواجبات ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

وهو الإعتراف بالإلزام في عالم الأرواح، أو بتوديع العقل السليم، أو بالقبول من الأنبياء والرسل في عهودهم ونوابهم العلماء الأمناء بعدهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي ما أمر الله بوصله على غرار ما قدمناه ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بذور الإشراك والمعاصي وتعدي الحدود وترك العهود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ والطرد الأبدي النازل عليهم من الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدار والدار الدنيا وسوء عاقبتها الموت بلا إيمان أو الدار الآخرة وسوء عاقبتها عذاب جهنم أعاذنا الله تعالى بفضله منه.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إستئناف لبيان أن البسط في الرزق ليس من محبة الله تعالى للمرزوق والقبض فيه ليس عن كراهيته له، وإنما ذلك من جريان الإرادة الأزلية التابعة لعلمه تعالى باكتساب المرزوق رزقه ومعيشته، فمنهم من يتيسر له أسباب البسط، ومنهم من لا يتيسر له ذلك، مع أن شيئاً من البسط والقبض ليس من أسباب الحب والكراهية. وعلى أي حال فالبسط في الدنيا، وإن كان يفرح به الناس على العادة، لكن الفرح به ليس من أخلاق المؤمن المخلص لأن العاقبة الحسنة في إطاعة الله تعالى. ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي أهل مكة، أو الكفار مطلقاً، أو أهل الدنيا مطلقاً، بالحياة الدنيا لقصور نظرهم فيها. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في جانب نعيمها ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ قليل يسير حقير لا قيمة له.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أهل مكة أو منافقو أهل المدينة: ﴿لَوْلَآ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وذلك من أقصى مراتب الجهالة، وأقسى مراتب القلوب الغافلة، فإنهم لو كانوا ينظرون إلى نشأته عليه الصلاة والسلام ونموه ونمو شريعته والقرآن النازل

عليه الهادي للعقول إلى الطبائع وما وراءها وإلى أخلاقه وسيرته لعلموا أنه هو عين الأعيان، وكلام الله النازل عليه أعظم آية وأجلى برهان. ﴿قُلْ﴾ في جواب أولئك الناس الذين عميت أبصارهم عن إبصار الحقائق وبصائرهم عن إدراك الدقائق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله لعلمه أزلاً بغفلته عن سلوك مسالك الحق ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي أقبل إلى الله وهداه، وترك شهواته وهواه. يعني لو لم يكن هذا الضلال العميق لم يكن كلامكم ذلك الكلام الخريق والذين هداهم الله وأنابوا إليه وكانت لهم مكانة لديه هم الذين آمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، ويداومون على ترك المحرمات وأداء الواجبات، وتطمئن قلوبهم أي تستقر وتستكن بذكر الله قياماً وقعوداً ركوعاً وسجوداً ويقظة وهجوداً ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ لا بغيره من المتاع الحقير الذي يميل إليه الطبع الحقير. والمراد بذكر الله تعالى كل فكر وقول وعمل يقرب صاحبه من الله، سواء كانت ترك المحرمات لله، أو أداء الواجبات لله، أو إرشاد الناس إلى الخير لله، أو ذكر توحيده وتقديسه وتمجيده وتوحيده وتهليله وتسبيحه وتكبيره لله.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي يقال لهم طوبى لكم وحسن مآب. فهو دعاء لهم بالطيب في العيش الخالد الأخروي والهناء. وقال القرطبي: الصحيح أنها شجرة في الجنة واحدة بالذات متفرعة منها فروع وأغصان تعم حدائق الجنة، أو نوع من الأشجار توجد في حدائقها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن الكريم والخلق العظيم ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة أي ليس إرسالك إليها أمراً خارقاً للعادة، ولم يسبق مثله، بل سبقت أمثاله، فإن الله تعالى ما خلى أمة إلا وقد خلا فيها نذير، وكل ذلك توفير لنعمة الله وتوسيع دائرة رحمته وبسط لمائدة نعمته وإنما أرسلت ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من آيات القرآن لتوجيه العباد بحسن الإرشاد إلى الإعتراف بواجب الوجود ووحدته ورسله وشريعته وينبثق من ذلك نور وشعور بالمسؤولية أمام الله العلام، فإن الكائنات لا تبقى بدون نظام، ولا نظام بدون التزام. ﴿وَهُمْ﴾ مع هذه الجهود الجبارة ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ويستنكرون العهود والأيمان والإيمان. ﴿قُلْ﴾ معرضاً عن أهواء الخلق ومتوجهاً إلى هدي الخالق: ﴿هُوَ﴾ أي الرحمٰن الذي يكفرون به ﴿رَبِّى﴾ خلقني وسواني وهداني وأيدني بالعقل السليم، وأنعم علي بالرسول الكريم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا واجب ولا خالق ولا معبود إلا هو

﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ حق التوكل ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾ أي مرجعي فإنه إلى الله تصير الأمور.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاۡيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ معناه إن هذه الفرقة الضالة الفاسدة يتعللون بما ليس بعلة ويعتذرون بما ليس معذرة، ولا يريدون إلا إستمرارهم على استكبارهم، فهم في نفسية خبيثة فاسدة بحيث ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾، أي قرآنٍ كان، ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ بظهور آثار عظمة الله ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ قطعاً مختلفة فجعلت أنهاراً وغابات وعيوناً وأشجاراً مرتبة مثمرة مظللة ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ بأن يقرأه أحد عليهم فيحيوا، ويتكلم معهم وظهرت هذه الخوارق بذلك الكلام المنزل ما آمنوا به وأصروا على عنادهم واستكبارهم لأن فكرتهم صارت عقدة نفسية، ولا تحل العقدة النفسية إلا النجدة القدسية ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الذي يدور عليه الهداية والإضلال وسائر أمور العالم في الماضي والحال والإستقبال ﴿جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاۡيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من الرسل ومن معه عن إيمان أولئك المتمردين المعاندين ولم يعلموا ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ ولو لم تظهر له تلك الآثار العجيبة، ولكن الباري بحكمته السارية لم يشأ ذلك، فما دام الأمر كذلك تبين أن القلم قد جف ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من سوء الأعمال ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي ما يقرعهم من صاعقة سماوية كما خلت، أو من قاصفة جوية، كما نراها، فتقع عليهم بالذات وتهلكهم ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ على سيئات أعمالهم

وآثارهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بتحقيق عذاب يوم القيامة الموعود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بمعنى الوعد كالميلاد بمعنى الولادة.

ويا أيها الرسول ليس هذا الإستكبار مختصاً بهم معك ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ ﴿بِرُسُلٍ﴾ كثيرينٍ ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أجلت عذابهم إلى وقت معلوم مقرر ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بعد أن جاء وقت عذابهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لا يعلم كيفيته إلا من ذاقه أو شاهده ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ومراقب عليها وعلى أعمالها لمن لا حياة فيه ولا شعور ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ أي الكفار ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؟ من هذا القبيل ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إثرَ تبكيت أي سموهم منْ هم؟ وماذا أسماؤهم؟ وفي البحر: إنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر لا ما لا ينفع ولا يضر. ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعة أي أبل تخبرون الله تعالى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم سبحانه وتعالى؟ وهذا أمر مستحيل لأنه يخرج عن علمه تعالى شيء، فإذاً ليسوا بشيء ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وقوله ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كلمة أم فيه أيضاً منقطعة أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول الذي لا مدلول له في الواقع ونفس الأمر؟ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ إضراب عن الإحتجاج عليهم، أي ليسو أهل حجة ودليل يناظرون ويستدل عليهم بالأدلة، بل هم قوم سفهاء الأحلام توارثوا شيئاً من الأوهام وجعلوها حقائق ودقائق عليها، واستمروا عليها. والمكر يحتمل أن يراد به مكرهم بأنفسهم لأنهم إحتالوا على أنفسهم باعتناق هذه التقاليد الباطلة بشبهة أنها أخذوها من آبائهم، أو مكرهم بغيرهم أيضاً لأنهم يغررون بها أناساً جَهَلَةً لا علم لهم بالحقائق الإعتقادية ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي مُنعوا بسوء إختيارهم عن سلوك سبيل الحق وأضلهم الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الخير ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالتقلب في نار الحسد والعناد والقتل والأسر وسائر المصائب إنتقاماً منهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته وبقائه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي من حافظ يحفظهم وناصر ينصرهم وملجأ يلتجئون إليه، إذ ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ

أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المثل في أصل اللغة صفة مشبهة بمعنى الشبيه. وجاء بمعنى المَثَلِ السائر، أي الكلام الدائر المشهور بين الناس مثل «لا يلدغ المؤمِن من جحْرٍ مرتين» وذلك في الاستعارات التمثيلية المشتهرة. وجاء بمعنى الصفة الغريبة، وهو معنى مجازي مأخوذ من المثل بالمعنى المذكور آنفاً بعلاقة الغرابة لأن المثل إنما يسير بين الناس لغرابته، وهو في هذه الآية على هذا المعنى، أي الصفة الغريبة العجيبة للجنة التي وعد المتقون أنها منازل غالية وقصور عالية، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فتسقي الأشجار وتنمو وتنضج بها الثمار ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا مقسومة على الموسم ﴿وَظِلُّهَا﴾ كذلك لا تتناثر الأوراق منها بالرياح والمهالك و﴿تِلْكَ﴾ الجنة العزيزة ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ ربهم ولم يكفروا به، ولم يشركوا به، ولم يعصوا أمره ونهيه، أي تلك عاقبة حالهم وجزاؤهم في مآلهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالله ﴿ٱلنَّارُ﴾ وبئس القرار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتابين كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما من اليهود، والثمانين المشهورين من النصارى، وهم أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة. فالمراد بالكتاب المعنى الشامل للتوراة والإنجيل ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. لأن الله لما شرح صدورهم للإسلام وآمنوا بالرسول فبالطبيعة الإسلامية يفرحون بالكلام المنزل عليه لأن الإيمان مستلزم للمحبة، والمحبة سارية في المحبوب وفي ما له علاقة صحيحة به ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي أحزابهم الكفرة الفجرة المارقين ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي بعض ما أنزل إليه وهُوَ الذي لا يوافق أغراضهم الفاسدة ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ فمن لا يؤمن بالله أو يشرك به فليس منّا ولسنا منه ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ المكلفين لا إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ ي ومرجعي وَحدَه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي ومثل إنزال الكتابين السابقين أنزلنا القرآن، حال كونه حكماً من الله ﴿عَرَبِيًّا﴾ باللغة. وكما أن الهدى في السابق ما كان موافقاً لتلك الكتب فالهدى في عصرك هو ما وافق كتابك، وما عداه هو من الأهواء الباطلة التي لا تفيد ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأن ما أنزل إليك هو الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ يحفظك عن عقابه. والآية تعريض بالناس الموجودين، وإلا فمعاذ الله أن يتبع سيد المسعودين غير ما أمره الله رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ روي أن اليهود عَيَّرت رسول الله ﷺ وقالوا: نرى هذا الرجل مهتماً بالنساء والأولاد وما يتعلق بهما مع أن شأن الأنبياء الزهد عنها وقطع العلاقة والتوجه الصرف إلى الدين وقدسياته. فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ من آدم إلى عصرك هذا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ حرائر ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ بنين وبنات وحفدة مكرمين ومكرمات، ولم يقدح ذلك في جلالة رسالتهم، ويعلم القادحون أن مسألة الأزواج والجواري في عهد أنبياء بني إسرائيل كانت على نسبة متصاعدة، فما بالهم لم تقدح فيهم وتَقْدَح فيكَ وأنت واحد منهم؟ ثم إنهم لم يزنوا الأمر بالقسطاس المستقيم، فمن الذي قال إنّ أهل النبوة والرسالة والتقوى والجلالة يجب أن يُحْرِمَوا من الطيبات التي أحلها الله لعباده؟ ثم إن الإشتغال بتلك العلاقات في ساعات محدودة معدودة لا يمنع من الإشتغال بالدين والدعوة إلى الله وإلى الأعمال الصالحة والأخلاق السليمة. فهذه الدعاوى كلها خالية من رعاية الحق والعدل، وإنما هي ناشئة عن الاستكبار والعناد والجهل. ﴿و﴾ إذا أرادوا من وراء هذه الدعاوى أنه لو لم يكن لهم هذه العلاقة كان لهم مجال أنْ يأتوا بآيات من الله تعالى لإرغام الناس على الإيمان فذلك أيضاً شيء باطل لأنه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ كائناً ما كان ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ سواء كانت الآية معجزة

تعجز الناس عن الإتيان بمثلها أو دعاءً مستجاباً لتدمير المتمردين أو آيات بالغة في تنوير أفكار الناس، فإن كان ذلك في قبضة قدرة الباري تعالى. وإذا أتى اللوم على بعض منهم لا بد من إتيانه على الآخرين، وحاشاهم عن ذلك! وقد أعلن أنه ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وأن إرسال الرسل من سنة الله تعالى في الكائنات بحسب الآجال المتسلسلة و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ﴾ تعالى بحسب حكمته ﴿مَا يَشَآءُ﴾ محوه من الفروع السابقة ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء ثبوته، وأما الأصول فهي مقررة لا تبديل لها أبد الآبدين ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾ أي عند الباري جل شأنه ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ الجامع لكل شريعة مقررة في أي زمان من الأزمان، وما دام الأمر كذلك فلا مجال لأي قائل في أي قول بالنسبة إلى المرسلين.

ثم بعد تقرير المعنى المذكور في الآية الشريفة أن هذه الآية الكريمة معترك آراء العلماء والعقلاء من حيث أن الله تعالى إذا تعلق علمه الأزلي بشيء فلا يقبل الزوال والتغير وإلا انقلب العلم جهلاً وتعالى عنه فما معنى ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ والجواب: إنه بعد وجود النصوص الدالة على هذا المعنى كهذه الآية، وآية ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وبعدما تواتر من أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام لكثير من الناس بطول العمر ومزيد العلم والعمل الصالح، ودعائه للوقاية من شر القضاء، وبعد الأحاديث الكثيرة الواردة في أن الصدقات تدفع البلاء وتزيد العمر، بل وفي تقرير الباري سبحانه ترتب المسببات على الأسباب.. لا وجه قطعاً للتردد في أن القضاء منه مبرم لا تعلق له بأي شيء وأي سبب من الأسباب المعروفة عند الناس، ومنه ما يتعلق بالأسباب والشروط التي ترتب عليها المشروط والمسبب. ومن جملة القضاء المعلق ربط الشفاء للمرضى بإجراء العمليات، وشرب الأدوية، وإسعافهم حسب الأصول، وربط كل أمر ذي علاقة بشرط أو علة أو سبب عادي بذلك، وإن إنكار ذلك مكابرة مع النقل والعقل..

والحاصل إن بعض القضاء جرى بحيث لا يتعلق بشيء من الأشياء التي تقبل الجذب والدفع، وهذا النوع مبرم نافذ ولا يفيد في مقابله أي عمل إيجابي أو سلبي، وبعض منه مربوط بوجود أسباب كزيادة رزق فلان بسعيه في تحصيله، وزيادة عمره بسبب تداويه ومباشرة أسباب الصحة، وزيادة العلم بسبب زيادة السعي

في تحصيله، وزيادة الأحباب بسبب كثرة المجاملة والخيرات الواصلة منه إليهم. . .

وكما أن هذا النوع من القضاء قضاء معلق قد جرى علمه الأزلي بأن فلاناً يأتي بالأسباب والشرائط فيتحقق القضاء فيه، وبعضهم لا يأتي بها فلا يتحقق فيه ذلك، فالمحو لقضاء تعلق علمه تعالى بأن فلاناً باشر سبب محوه، والإثبات لقضاء تعلق علمه بأنه باشر سبب إثباته، ونحن لا نعلم ذلك، وإنما نعلم على القواعد الإعتيادية أو العلمية أن ذلك الشيء سبب لذلك أو مانع عنه، وعلينا إذا أطلعنا على تلك القواعد السعي بقدر الإمكان، فما تحقق في حقنا عَلِمنا أن علمه تعلق بوجود أسبابه وقد صار، وما لم يتحقق علمنا أن علمه تعالى لم يتعلق بسعينا في تحصيله.

وأما الحديث الشريف الوارد في بعض النذور بأن ذلك لا يرد شيئاً من القضاء فقد يجاب عنه بأنه محمول على مادة جرى القضاء فيها بتحقيق الشيء المعهود، ومعلوم أنه لا رادّ له، أو المراد به أن هذا المنذور وإن كان له سببية ما في دفعه لكن المؤثر في الواقع هو الله تعالى لا السبب وهو عين مذهب أهل الدين أو أنه يراد به استكراه النذور بصورة المعاوضة والمقابلة، وإلا فردُّ الصدقات للبلايا معلوم بالتجارب عبر القرون والأزمان. نعم إن الله سبحانه وتعالى يعلم أزلاً من الذي يأتي بالأسباب ومن الذي لا يأتي بها، فالأمر بالنسبة إليه محقق مقرر مبرم معلوم لا خدشة فيه قطعاً، فالمحو والإثبات من شؤونه الفعلية الجارية الثابتة بقوله تعالى كُلَّ يوم هُوَ في شأن، وبعبارة أخرى من مكتوبات اللوح المحفوظ، والثباتُ وعدم التبدل بالنسبة إلى علمه الأزلي اللازم لذاته الجليل المعبر عنه بأم الكتاب. هذا والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾. أصل إمّا: إن ما، وكلمة إن للشرط، وما زائدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك لحقت نون التأكيد بالفعل، والفعل مضارع باب الإفعال للمتكلم مع الغير، وأصله نرئينك كنكرمنك، حذفنا الهمزة للتخفيف، بعد نقل كسرتها إلى ما قبلها، والفاعل نحن، والكاف مفعول أول، وبعض الذي نعدهم مفعول ثان. والمراد به بعض ما وعدناهم من إنزال العذاب. وقوله ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ معطوف على الشرط السابق، وحاصل المعنى وكيفما دارت الحال أي إن أريناك بعض الذي وعدناهم من العذاب في الدنيا، أو توفيناك وأخرنا عذابهم فعلينا ذلك وما عليك إلا البلاغ

فلا تهتم بما وراء ذلك ونحن نكفيكه ونكمل ما وعدناك به من الظفر وفتح مكة وسائر البلاد، فظهر أن قوله تعالى فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ليسا جوابين للشرطين، لأنهما لا يترتبان عليهما وهو ظاهر، فيحتاج إلى تأويل وهو أن يقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء له مترتباً عليه. وإجمال الجوابين ما ذكرناه أي فلا تهتم بهم. وتفصيلهما: وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك يشفيك من ألم أعدائك لأنه دليل صدقك، وإما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ دليل على الجوابين. والذي وقع من الشرطين هو الأول الحادث في غزوة بدر الكبرى. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ ما أنزلنا عليك لا تحقيق مضمون الوعيد. وقوله ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات. وفي كل من الجملتين حصران: الأول هو المستفاد من تقديم الخبر؛ أي عليك البلاغ لا على غيرك، وعلينا الحساب لا على غيرنا. والثاني: هو المستفاد من كلمة إنما فيكون المقصور في الجملة الأولى الأمر الثابت على الرسول ﷺ والمقصور عليه البلاغ أي إنما عليك البلاغ فقط لا تحقيق المقترح منهم. وفي الجملة الثانية المقصور هو الأمر الثابت على الله بمقتضى وعده وسنته والمقصور عليه الحساب، أي إنما علينا محاسبتهم في الآخرة دون جبرهم على اتباعك أو إنزال مقترحهم فافهم هذه المعاني فإنها نافعة.

ثم أشار الباري تعالى إلى ظهور تباشير الظفر فقال عزَّ من قائل ليدركوا أو يفتهموا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالعيون ليبصروا ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وجوانبها بأن نفتحها شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام أفبعد ذلك يشكون في سيطرة الإسلام؟ ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بما يشاء على من يشاء ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ ولا مُغير ﴿لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في الآخرة فكما حكم عليهم بالدمار والتباب في الدنيا يحكم عليهم بالحساب والعقاب في الآخرة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل كفار مكة بأنبيائهم ورسلهم وبالمؤمنين من أتباعهم، ولم يفد المكر الماكرين، ولم يمنع رسالة الرسل الشاكرين ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ إبداعه وإضراره بالناس من الأنبياء والرسل وغيرهم ﴿جَمِيعًا﴾ فلا قدر له ولا قيمة ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من الخير

والشر ومن الخديعة والمكر ولا تأثير لشيء من مكاسبهم في أي شيء من مطاليبهم إلا بإذن الله، وتنتهي السيئات والحسنات ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة في دار القرار، هل لهم أو للأنبياء والرسل وأتباعهم الأبرار ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جهلاً وتعنتاً وعناداً وتزمتاً: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يا محمد، قيل إن قائله رؤساء اليهود، وقيل أسقف يمني سأله رسول الله ﷺ: هل تجدني رسولاً في الإنجيل؟ فقال: لا. فأنزل الله الآية. ﴿قُلْ﴾ في رد من قال هذا القول: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه إذا شهد بشيء فمن عداه كالفيء ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لإلزام أصحاب العناد والعتاب، وليس الحق مربوطاً بقول الخلق.

سورة إبراهيم

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية
نزلت بعد سورة نوح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ
رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓرۚ﴾ أنا الله أعلم وأرى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ هذا كتاب مبين وهو القرآن العظيم أنزلناه إليك ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي الجن والإنسان ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الجهل المركب من العقائد الباطلة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي العلم وهو العلم بالعقائد الحقة، وذلك الإخراج ثابت ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ لأنه لا تأثير للأسباب إلا بإرادة الله تعالى وخلقه وإيجاده وقوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بدل من قوله إلى النور بدلَ الكل من الكل. أي هذا العلم هو الشرع الشريف الجامع للعقيدة والعمل الذي هو صراط مستقيم قرره الله سبحانه وتعالى لسلوك المسلمين عليه ليصلوا إلى منزل الرحمة الأبدية والنعمة السرمدية، وهذا الصراط قرره ربٌّ عزيزٌ غالب على ما أراد وفعالٌ لما يريد، وحميدٌ في كل فعاله، إذ لا يشوبها عَيْبٌ، وذلك عبارة عن ﴿ٱللَّهِ﴾ فقوله ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر على قراءة السبعة بدل مما قبله ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ والمراد بما في السماوات وما في الأرض الظرف والمظروف فإن

التعبير لبيان حيازة الله لكل موجود ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين يكفرون بوجود ذلك المالك أو بوحدته ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ لا يتحمل إلا بالإلجاء.

ثم جاء بصفات لأولئك الكافرين تؤهلهم لذلك العذاب الشديد بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهذه الصفة مِلاك الجهل والسفاهة، فإن من لم يتفكر في ملكوت السماوات والأرض ونظامهما وميزان دورانهما وما يجري على نظام متقن عجيب بديع حتى يعترف بخالق حي قيوم قادر ويشعر بمسؤوليته إزاءه وإزاء سائر ما خلقه الخالق، ولم يعرف نفسه إلا بصفة كائن حي مرزوق يعيش مدة ويموت ويمحى مستحق لذلك العذاب الشديد وبقوله ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني علاوة على ما سبق مما كان مدلوله عدم الإيمان برب العالمين أضافوا صفة فاسدة إلى ذلك وهي أنهم يصدّون الناس ويمنعونهم عن سلوك سبيل الله وهو الدين الإسلامي القويم، وأي جريمة أشنع من تجهيل الناس وتعطيل حواسهم ومشاعرهم عن إدراك الحق وأتباعه بالأوهام والخرافات والشبهات؟ وقد كان كفار مكة كذلك، إذ كلما رأوا واحداً آمن بالله وبرسوله مَنَعُوه، فإن امتنع وإلا عَذّبوه وهجروه. وبقوله ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يعني علاوة على كفرهم بالله وصدهم عن سبيل الله يَرمون نفس الدين والصراط بالإعوجاج. وأنه ليس مما يناسب الإنسان ويحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة الصدّ والمنع، أي يجعلون هذا الوصف المفترَى دليلاً على وجوب صد الناس عن دين الإسلام وأن يكون كلاماً مستقلاً ودليلاً قائماً بذاته لأن الدين المعوج الذي لا استقامة فيه على مزاعمهم الباطلة لا يجوز اعتناقه، ويجوز أن يكون إضافته إلى الصد بالنسبة للأقوياء، وإلا فالضعفاء يمنعون قهراً بدون تعليل واستدلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ عن الوصول إلى الصراط المستقيم لأن في طبائعهم نفوراً عن الدين، وزاد عليها التقليد الأعمى، وأضيف إليهما العناد والاستكبار.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ في الأمم السابقة والأزمنة الغابرة ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي إلا متكلماً بلغة من أرسل إليهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ الشريعة بياناً شافياً لأمراض القلوب كافياً لهم الحقائق ذلك لأن لاتفاق لغتي المتكلم والمخاطب وتوافقهما في اللهجات التعبيرية والأمثال والآداب الحكمية والمصطلحات القومية دَوْراً هاماً في الإفهام والتفهيم والإرشاد والتعليم وكان غايتنا من إرسالك إلى قومك ذلك المعنى المطلوب، وكان الواجب عليهم والمناسب لسعادتهم أن يسمعوا ويَعُوا

ويطيعُوا لأن كلامنا منزل على أفصح لهجة من لغتهم وهي لغة مضر، والمبلغ أفصح إنسان في العرب وأوضح بياناً منهم وأشرح صدراً من حكمائهم وشعرائهم وخطبائهم، مع أن كثيراً منهم تمردوا وعاندوا فضلوا وأضلوا فتبين من تجاريب عصور النبوة والرسالة أنه ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ضلاله ﴿وَيَهْدِى﴾ إلى الحق بعنايته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته وهو العزيز الغالب على ما أراد والحكيم في صنعه مع العباد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي ومن جملة أولئك الرسل الذين أرسلناهم بلغة قومهم موسى بن عمران عليه السلام ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي أخرج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل التي أتت عليهم من سيطرة فرعون وأشياعه وهي ظلمات عبادة الأوثان والركون إلى المادة ونسيان المعنى. وظلمات الإسترقاق والتسخير لخدمة من لا تأتيهم إلا بالوهن على الوهن والضعف على الضعف إلى نور الحرية والعمل للذات المثمر لكرامة صيانة تراث النبوة في النسل، وإلى نور عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما قررها في الأرض جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي بأيام نعمه وبلاياه، أي ذكرهم بأن الله كما بيده إفاضة النعم على عباده في أيام ومواسم، كذلك بيده إنزال المصائب والنقم في أيام وأزمنةٍ، فلا تيأسوا من روح الله ولا تأمنوا مكره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التذكير ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل إنسان كثير الصبر على بلائه وكثير الشكر على نعمائه فإذا جاءه بلاء ينتظر الجلاء، وإذا جاءته نعم يشكره عليها حتى لا يعقبها نقم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ امتثالاً لما أمره به الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي

يبغونكم ويولونكم سوء العذاب حيث سلبوا عنكم كل الحريات الدينية والدنيوية وحقروكم وسخروكم في الخدمات الصعبة ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ حتى لا يبقى فيكم مُطالِبٌ للحقوق مُحارب ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ لا رحمة بكم ولا بهن بل ليستخدموهن في المهن البيتية وسائر الأمور ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الأفعال الشديدة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لا يتحمله إلا مضطر متعود على الإعتساف ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي أذن إيذاناً بليغاً وأعلن إعلاناً بالغاً درجته ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ على نعمة إنجائكم من فرعون وأتباعه ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعماً على النعم فنزيدكم نعمة السلطة على الوطن بعد أن خلّصناكم من سطوتهم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بتلك النعمة ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وعوده عليكم لا يحتاج إلى زمان مديد ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الناس ﴿جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته تعالى فشكركم له تعالى مما تحتاجون إليه أنتم وليس هو محتاجاً إلى ذلك.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ
(٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
(١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
(١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال بعض المفسرين: من تتمة كلام موسى عليه السلام لقومه بعدما نَصَحهم بالأوجه السابقة. وقال بعض منهم: إنه استئناف كلام من الله تعالى، وتوجيه خطاب وعتاب للمشركين ومن حاذى حذوهم، فيقول في مقام النصح والوعيد: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وقوله ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل مما قبله أي وهم قوم نوح ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ عَدَداً أو عدداً ﴿إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالآيات الواضحة لبيان العقائد والأحكام، أو بالمعجزات الواضحة التأثير وواضحة الدلالة على أنها من الله تعالى، وأن من نزلت عليه رسول من الله ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي فرَدوا أناملهم في أفواههم وعضوا عليها غيظاً وحقداً ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ على زعمكم يعني لسنا مؤمنين ولا نؤمن بالكتاب الذي تزعمون أنكم أرسلتم إلينا به لتبليغه ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإنا بلا شبهة وتردد في قلوبنا شك مورث للقلق العميق في ما تدعون إرسالكم به إلينا فلسنا مؤمنين لا بالله الذي أرسلكم ولا برسالتكم، ولا بالكتاب الذي تقولون أنكم أرسلتم به إلينا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ في استنكار ما أبدوه من وجود الشك والريب فيما جاؤوا به: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هل يصح وهل ينبغي أن يكون لكم شك وتردد في الذات الجامع للكمالات المنزه عن النقائص، المُعْلَم باسم الجلالة، الموصوف بفاطِرِ السماوات والأرض ومبدعهما من العدم إلى الوجود مع أن كل عاقل له نور وشعور ويتفكر بقلبه وينظر بعينه في آثار قدرة الله تعالى اللائحة على العالم على نظام ثابتٍ مستمر يعلم ويتيقن أن هذه الكائنات، وأن هذه الحركات، وأن هذا اللّيل والنهار، وأن هذا الدوران والإستمرار لا يمكن إلا من خالق حي قيوم قادر قهار؟! والحال أنه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى عبادته وإطاعته ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويؤخر مماتكم وانتقالكم من هذه النشأة إلى وقت سماه الله وعينه لانتهاء أمدكم. ومعنى الآية أن طول حياتكم معلقة بإيمانكم، فإن آمنتم تأجل الموت إلى أمد مديد وإلا عجل الله لكم بالاستئصال والعذاب الشديد. ﴿قَالُوا﴾ أي القوم الذين أرسل الرسل إليهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ من غير اختصاص بمزية وفضل ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ وتمنعونا بما تدعوننا إليه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأوثان والأصنام فأتونا بسلطانٍ مبين على رسالتكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ولكن كلامكم هذا لا يوجب مطلوبكم وهو مساواتنا معكم في كل الأمور، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده المستوين لغيرهم في البشرية ببعض المواهب والمزايا فجعلنا من هذه الزاوية مشمولين لرحمته وشرفنا برسالته ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة من الحجج فضلاً عما اقترحتموه إلا بإذن الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في شؤونهم كافة. فما ادعيتم من استوائنا معكم في البشرية صحيح، ولكنه لا يوجب منع المواهب الخاصة كالرسالة وغيرها، وما ندعيه من الرسالة حق ولكنها لا يوجب أن نقدر على شيء من الآيات إلاّ بإذن الله. فلنعد جميعاً إلى الإعتدال ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي وقد أرشد كلاً منا إلى طريق سعادته في دنياه من أسباب معيشته بشتى أصناف المكاسب من الزراعة والتجارة والصناعة والفنون الدقيقة الأرضية والسماوية من علم الأنواء وغيرها، وفي دينه عن طريق نجاحه بالنوافل وأصناف الخيرات والمبرات باليد وباللسان وبسائر الجوارح والقوى ولا يدري أحد من أين جاء هذا المدد والتوفيق ومن أين حصل هذا الثراء والترزيق ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ وما دام الله عاملنا وجاملنا وهدانا سُبُلَنا فوالله الذي لَه الأمر كله لنصبرن على ﴿مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ فإنها أمر مؤقت يذهب ويفنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لأنه مصدر كل خير في الدنيا والدين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال قادة الذين كفروا وسادَتهم ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ مُتَوَعدين لهم مستكبرين ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وهذا الكلام مبني على التوزيع. أي وقال قائد القوم الكافرين في كل زمان لرسول ذلك الزمان لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن إلى ملتنا. فالحلف جار على المنفصلة الحقيقية وهي إخراجهم عن الأمة مع بقائهم على مهمة الرسالة أو بقائهم فيها مع العود إلى الكفر. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ في تلك الحالة الحرجة أن اثبتوا على المهمة مع علو الهمة، ولا تهتموا بوعيد أولئك المتمردين فوالله ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ﴾ المتوعدين لكم

بحيث لا يبقى لهم أي مجال ومقال ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي طغوا فيها ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيحاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي لرسول خاف موقفي الرهيب ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وهم الرسل الكرام وأتباعهم المؤمنون الصادقون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لأنهم هم المؤمنون الذين يخافون الموقف الذي تقام فيه العباد للحكم يوم القيامة، وهم الذين يخافون وعيد الباري سبحانه وتعالى وعقابه، وهذا الخوف خوف الهيبة والرهبة والإجلال فلا ينافي كونهم معصومين مبشرين بلقاء الله تعالى يوم الآخرة، فإن أهل الشرف هم أهل المخافة.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي وبعد أن أوحى إليهم ربهم بما ذكر طلبوا الفتح من الله تعالى بقوة القلب والعزيمة الصادقة لأنهم علموا أن الوقت وقت التضرع والابتهال إلى ذي الجلال، ولعلهم عند الإيحاء إليهم بما ذكروا أمروا أيضاً بالإستفتاح حتى يكون إهلاك الظالمين على حسب دعواتهم ويكون له منة عليهم. ويؤيد هذا المعنى قراءة واستفتحوا بصيغة الأمر أي فاستفتحوا. وتقبل الله طلب الفتح والنصر منهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق متكبر طاغ على الاستغناء. ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي حال كونه من قدامه وبين يديه جهنم أي أن خيبته لم تكن خاتمة آلامه بل كانت مقدمة لعذابه وعقابه ونكاله ووباله ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ بعد عطشه من حرّ جهنم ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو الذي يسيل من أجساد أهل النار أو من ماءٍ مستكره يصد عنه ويعرض لأنه لا يطفىء حر العطش وحال ذلك الماء أنه يتجرعه طالبه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقرب له إساغته واحداره من الحلقوم إلى محله المعتاد لشدة حرارته أو لاختلاطه بمواد مانعة عن الإنحدار بسهولة ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي ويقاربه الموت من كل جهة وجانب. يعني أنه يقع في هول شديد ويحاول الخلاص بشتى الوسائل، لكنه أينما توجه وَجَدَ بوادِرَ الهلاك ولم يأنس الخير والخلاص ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة ولم يبق مجال عروض الموت لأن تلك الدار دار الخلود ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي إذا اعتبرنا الأحوال السابقة أحوال الكفار في البرزخ فالمراد بقوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ زمان مجيء الآخرة ويكون غلظ عذابه مبنياً على انتهاء حسابه وعلمه بدوام عقابه وعذابه، وإن كانت أحواله في الآخرة فمعناه ليس له مجال تخفيف العذاب لأن الكفار لا يخفف عنهم العذاب، بل في كل زمان وأوان يعذبون فيه يكون وراء ذلك عذاب غليظ قوي

يناسب حالهم وكفرهم واعتقادهم الإستمراري في أيام دنياهم. أعاذنا الله بفضله ورحمته عن كل عقيدة فاسدة وعمل سيىء.

ولما كان المقام مقام أن يسأل كيف يكون هذا الجزاء الشديد المديد للكفار في ذلك اليوم مع أن كثيراً منهم كانت له الأعمال الحسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام والطاعة حسب أصول أديانهم وتسوية الطرق وإنشاء الجسور وهندسة القصور ونشر علوم يستفاد منها.. أجاب عن ذلك الباري تعالى بقوله الكريم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي صفتهم الغريبة هي أن ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي حملته وأسرعت للذهاب به ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي يوم مشتد الريح، فكما أن ذلك الرماد لا يبقى له أثر في ذلك اليوم كذلك أعمالهم ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي يوم القيامة مما كسبوا في أيام حياتهم على شيء من الجزاء الحسن أو تخفيف عذاب، وهذا شامل لكل الكفار. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين هل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه لأنه لم يقل رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وهنا سؤال آخر هو أن الكفار منهم من له أنواع من الحيل والأعمال المدمرة بالنسبة للناس من المسلمين وغيرهم، وأشكال من التعذيب بالنار، وبالأشرار وبالحيوانات الضارية المعلمة، وبالسجون المظلمة.. فكيف يتساوى جزاؤه وجزاء كافر مستور في محل يعيش على كسبه لا يضر ولا ينفع؟ والجواب إن الذي تحقق هو أن عذاب الكفر الصرف عذاب مقرر ومقدر، وأما عذاب الأعمال السيئة مما قلتم فذلك يزاد عليه موافقة لأعماله حتى يكون جزاؤه جزاء وفاقاً. وهذا هو المناسب لفضل الله تعالى وعدله ورحمته وحكمته. ويرى بعض العلماء أن الأعمال الصالحة الدنيوية تقابل بجزاء لهم في الدنيا فيكون المراد بقوله تعالى ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أنها حبطت بالنسبة إلى الآخرة ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي دل عليه البيان بالمثل المذكور ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الوصول إلى طريق الحق و الصواب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ

قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ
﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى
وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ
مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا
سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ خطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته، أو خطابٌ لكل من يصلح للخطاب. أي ألَم تُدرِكْ بالعقل والعلم الناتج منه استدلالاً قطعياً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وحده بدون علاقة غيره ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي العلويات والسفليات بالنسبة لكل مخاطب خلقاً متلبساً بالحكمة منها ظهور ذاته العظيم على العقلاء، ومنها طاعتهم له وحده، ومنها تعمير الكائنات بالأعيان والأعراض النافعة بدون حاجة إليها. وإذا أدركتم أن الله هو الذي خلق هذه الأشياء بالحق علمتم أنه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يبدكم عن بكرة أبيكم ويمحكم إمحاء صِرفاً بحيث لا يبقى منكم شيء إلا الخبر ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في محلكم إذا كنتم كافرين فهم مؤمنون، وإذا كنتم جاهلين فهم عالمون، وإن كنتم كسالى عن العمل فهم عاملون بحيث لا تكون بينكم وبينهم مناسبة إلا بالمباينة، فبأي شيء تعتزون؟ وعلى أي سند تستندون؟ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ العليم القدير ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي بمعتذر أو متعسر بل سهلٌ في سهل من الأمور.

ثم بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الناس في دنياهم أخذ يذكر حالهم في دار آخرتهم ويقول: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي وسيبرزون ويظهرون يوم القيامة أمام الله لمحاسبة الأعمال وتقرير المصير والمآل، فلما اجتمعوا وظهرت بوادر الأحوال والأهوال، وأن هذا اليوم هو اليوم الموعود المشهود، وندم المجرمون على جرائمهم وفرِحَ المؤمنون بمكارمهم ﴿قَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ من الكَفَرةِ للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في إنكار دين الله وبعث رسول الله ﴿فَهَلْ أَنتُم

مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي أنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا من عذاب الله من شيء؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستكبرون في جواب الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ في الدنيا إلى الخير من الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ إليهما أي لو هدانا الله اليوم إلى وسيلة خلاص من هذه الأهوال لهديناكم إليها، ولكن لا هداية فلا رعاية ولا وقاية لنا ولكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ والحالة هذه ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ على الحساب والعذاب ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي مَيلٍ وفرارٍ. والمحيص إما مصدر ميمي أو اسم مكان، أي لا مفر نفرّ إليه.

وبعد إتمام الحساب وإصدار الأمر بالعذاب لامَ الناس ضعفاؤهم وكبراؤهم الشيطان، وقالوا إنك أنت الذي أغوانا وحولنا إلى هذا المصير فأين وعودك وعهودك؟ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في جوابهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ على ألْسِنَةِ الأنبياء والرسل ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ دعوة فارغة عن سلطانٍ وحجة ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بدون بصيرة وشعور ولا دليل يأتي بالنور ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ على إخلافي لموعدي فإن المُشْتَبِهَ لا وعد له حتى يُطْلَبَ منه الوفاء أو يلامَ إذا أخْلَفَ ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم ومنجيكم من العذاب الذي أنتم فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي بمنجين لي مما وقعت فيه ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي لله تعالى في الطاعة في الدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا اليوم ولا مجال لي لأي محاولة لنفسي ولا لكم ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا قطع كلي لأطماعهم في أي نوع من الفائدة المأخوذة من الشيطان وأعوانه، وهم وإن لم يشركوه ظاهراً في الأعمال، لكنهم أشركوا غيره على تلبيسه.

﴿وَ﴾ لجريان قضاء الله تعالى بالعدل الرباني ولرغم أنوف الشيطان وأتباعه الكبراء والحقراء ﴿أُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وذلك بإذن ربهم الرؤوف الرحيم العادل الحكيم ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الداخلين ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة من جانب الملائكة الكرام المستقبلين لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقد أتى هذا مفصلاً في أواخر سورة الزمر بقولهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن
فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾؟ الخطاب للحبيب، أو لكل عاقل مجيب. أي ألم تعلم كيف ذكر الله تعالى مثلاً ووضعه في الموضع اللائق وهو استعماله مع أمة الرسول العربي الكريم الذي هي خير أمة أخرجت للناس ليستفيدوا منه؟ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الصفة والموصوف بدل من قوله مثلاً، وقوله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ صفة للبدل، ويجوز تراكيب أخرى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي ضارب ذلك الأصل بعروقه في أعماق الأرض بقدر ما يتطلبه نوع الشجرة ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي والأغصان العالية منها ارتفعت نحو السماء ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي تعطي ثمارها في كل وقت وزمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها جل جلاله. وفي بيان الكلمة الطيبة أقوال منها: أنها شهادة أن لا إله إلا الله، ومنها أنها القرآن الكريم، ومنها أنها التسبيح والتنزيه، ومنها أنها الطاعات، ومنها أنها كل كلمة حسنة. وإذا نظرنا إلى المشبه به فتفسيرها بالشهادتين أوفق التفاسير، لأنهما صنوان على أصل واحد وهو الإيمان، ولهما أغصان وفروع لا تتناهى مثمرة وتوجدان عند كل مؤمن في كل زمان ومكان ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيفتهمون المعاني المقصودة منها ويقتدرون على تصوير المعاني المعقولة بصور المباني المحسوسة. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة ناطقة بما يخالف الإسلام أو كل كلمة لا يرضاها الله ورسوله ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لا يرغب فيها أحد لا فيها ثمر ولا خير ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي اقتلعت ووقعت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ على استقامتها لأن المقتلعة لا تنبت مرة أخرى فشأنها البقاء على الأرض لتيبس أو تحرق وتذروها الرياح. والمقصود من المثالين بيان حال المؤمن وكلمته ومنفعته وثمرته وبقائه نافعاً لبني دينه وشريعته وأمته.

ثم الكلمة الطيبة هي القول الثابت المطابق للواقع الآتي به الأنبياء والرسل الكرام مَرَّ العصورِ والأيام وذلك القول قول المؤمن الموحد توحيداً سالماً من الشوائب الذي استقر في العالم ببعث النبي العربي محمد ﷺ، ويمدحُ الله تعالى

أصحابه بقوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخِرِ وبالقدر خيره وشره. والمعنى إن الله يثبت أولئك المؤمنين على العقائد السليمة، والأعمال القويمة، والأخلاق الكريمة؛ فلا يؤثر فيهم إضلال الناس وإخلالهم، ولا تعذيب الناس لهم وتأنيبهم، فيكونون كالطّود الشامخ ببركة ذلك القول الثابت وقوته ورِباطه في مدة الحياة الدنيا حتى يكونَ آخِرَ كلامِهِم، وفي وقت الدخول في عالم الآخرة أي عند عود الحياة البرزخية في القبر أو أي محل آخر كان. فكما تكلموا به في الدنيا تكلموا به في آخر أوانها، وكما أعلنوا بها فيها، أعلنوا بها في جواب الملكين في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة.

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا له: من ربك؟ قال: ربي الله. قالا: وما دينك؟ قال: ديني الإسلام. قالا: ومن نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ. وعلى هذا فالمراد بالآخرة يوم القيامة، وبالحياة الدنيا الحياة في الدنيا وملحقاتها وهي القبر الموجود في البرزخ. وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية أي ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ القبر وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة. وإلى ذلك ذهب الجمهور من العلماء. وليعلم المؤمن أن تلك الحياة الموجودة في القبر حياة برزخية تتصور عند الميت بأنه إنسان يرى في نومه أنه جالس بين جمع من الأصدقاء والأحباء يتفاهمون ويتكلمون فيما بينهم، وهذا النوع من الحياة البرزخية والإدراك لا ينفك عن الميت في عالم البرزخ إلى يوم البعث والنشور. وإن كانت لها درجات على مناسبة قدسية أرواح للفرق الفارق بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وتلك الحياة موجودة عند الكافرين أيضاً. وعلى ذلك خاطب الرسول ﷺ قتلى بدر بقوله: «**إنّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً**»؟ ولذلك أجاب عن كلام عمر: «هل تسألهم وهم أجساد جِيَفٌ»؟ بقوله الكريم: «**والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكنهم لا يطيقون الجواب**» أو كما قال.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنون لسوء اختيارهم الناشيء عن سوء استعدادهم ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من

تثبيت المؤمنين وإختلال الكافرين حسبما توجبه مشيئته التابعة لعلمه الحاكي عن أحوال العباد وأفكارهم وأعمالهم من أهل الغيّ والرشاد.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ لما كان القائد السيىء الأفكار والأخلاق يقود قومه إلى الدمار، والقائد الحسن التدبير والأفكار والآثار يقودهم إلى السعادة في الدنيا وفي دار القرار جعل الله سبحانه وتعالى أعمال القادة المفسدين منشأ لسوء عاقبة الأمة التابعة لهم فقال على وجه التعجيب لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي ألم تنظر إلى سوء أفكار وأعمال القادة المفسدين الذين بدلوا شكر نعمة الله كفراً؟ فبدل أن يشكروه عليها كفروا به وبها. والمراد بهم قادة أهل مكة؛ فإن الله تعالى أسكنهم حرمه، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا بنعمة الله، فضربهم الباري تعالى بالقحط سبع سنين، ووقع فيهم القتل والأسر والتمزق والتفرق، فحصل لهم الكفر بدل الشكر والنقمة بدل النعمة. ومع أنهم كانوا مورد النزول فالآية عامة لكل قادة يقودون القوم إلى الفساد. أعاذنا الله تعالى ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا قومهم في دار الهلاك أي في منزل أو منزلة لا يكون نصيبهم فيها إلاّ الهلاك. وذلك المنزل ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان للدار ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من الدار أي يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أولئك الكبار ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿أَندَادًا﴾ أي أمثالاً في

العبادة ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ قومهم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن سبيل الله القويم ﴿قُلْ﴾ لأولئك القادة إلى السوء: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما تلتذونه وتستفيدون منه زماناً قليلاً ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ بعد زمان حقير قليل ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة بها الثمرات المجتناة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ على الفقراء والمساكين وفي سائر طرق الإحسان ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الأولى بمقام يخاف منه الفتنة كالرياء وما شاكلها، والثاني أولى بمقام منزه عن ذلك أو كان مناسباً لتعويد الناس على الإنفاق في الخيرات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ حتى يعامل الناس مع غيره معاملة تجلب الأرباح وتجبر الخسارات ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي مخاللة ومحاببة وتعاون مبني على الصداقة بينهم لدفع مكروه أو جلب محبوب.

وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في صورة الإستئناف في تحصيل ما يوجب مرضاته تعالى، ولكنه بحسب المقام خبر لمبتدأ مستفاد من بيان حال السعداء والأشقياء الذين سعدوا بطاعة الله أو شقوا بمعصيته، فكأنه هو أي الذات الذي سعد السعداء به وشقي الأشقياء به ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالوحي المتوارث من الرسل المؤيدين بالمعجزات وبالبراهين القاطعة المستقاة من المقدمات البديهية. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ من المزروعات والمغروسات وغيرهما كأنواع النبات النابت به على الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وحكمه وإقداره لعباده الصانعين للمراكب البحرية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ التي ليست قابلة لسير السفن سخرها للعبور بدون السفن، ولأخذ المياه منها بالجداول لسقي الأراضي المكروبة وشرب المياه المطلوبة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ﴾ لإضاءة العالم حتى يستفيد أهله من المكاسب والمعايش ﴿و﴾ سخر لكم ﴿القمر﴾ بالليالي حتى تسير القوافل في أشعة نوره حال كونهما ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ أي دائمين في عملهما حسب ما سخرهما الله تعالى له ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان حتى يتهيأ زمان لهدوء أعصاب العمال واستراحة نفوسهم وأبدانهم من كدّ مشاق الأعمال ويتجدد زمان للإستمرار في العمل النافع للحال والمستقبل مَرَّ الأجيال. ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ أي هيأ لكم ووفر أسباب تحصيله عندكم ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ حسب مجاري العادات وتطور الأزمان فهيأ السدود لخزن المياه لتتوفر المحصولات والمكائن لحرث الأراضي وبث البذور فيها، وللحصاد وتصفية

الحبوب وإخراجها إلى مقام الإستفادة منها. والسيارات لنقل الركاب والطيارات لقطع المسافات الشاسعة أرضاً وجواً لنيل المطالب من وصول البلاد في بضع ساعات. وهيأ الكهرباء لتنوير الدنيا ورفع ظلمة المنازل في الليالي والسراديب في النهار ولوقاية الإنسان وحوائجه من الحر الشديد ولدفع برودة الهواء في الشتاء القارص، وعلم الناس الطب الوافي بمدافعة الأوبئة والأمراض... وكل ذلك ناتج عن إلهامه العلم لأصحاب المعارف ببعض فوائد المواد المصنوعة، ويمكن أن يكون فيها فوائد أخرى لم تكتشف بعد يقربها إليكم العلم في المستقبل القريب أو البعيد. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي وإن أردتم عدها لا تحصوها ولا تضبطوها؛ إذ كلما اطلعتم على نعمة استفدتم نعمة أخرى.. وهكذا فيطول العدّ بلا مقدار ولا حدّ. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ بإنكار المنعم ونعمته ﴿كَفَّارٌ﴾ بالقصور عن أداء شكرها ونسأل المولى الكريم أن يجعلنا من الشاكرين وبالقلوب والألسنة من الذاكرين آمين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ
إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن
ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ مفعول لفعل محذوف أي أذكر ذلك الوقت ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكة المكرمة زادها الله شرفاً ﴿ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ بعدني وإياهم عن التذلل التقليدي المفتعل للأخشاب والأحجار ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي تسببن في ضلال الناس بسبب بعض أوهام تقليدية لا أصل لها ولا أساس ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ في عبادة الله وحده

لا شريك له ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ أي كجزء مني أو قريب مني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي لم يتبعني ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي قادر على أن تغفر له وإن جرى إخبارك المقدس بأنك لا تغفر لمن يكفر بك وتغفر ما دون ذلك لمن تشاء ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي أي إسماعيل ونسله ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ بتحريمك إياها عن تعرض الناس لصيدها وأشجارها ونباتها، أو المحرم بصيانتك عن إستيلاء الجبارين وقهرهم على أهلها ﴿رَبَّنَا﴾ أسكنتهم هناك ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لا لغاية أخرى، وخص الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين وركنه الركين ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً إلى طواف كعبة ووداداً لها وتذكراً لبنائها لإقامة الدين وتوحيد الناس في التوجه إليها ليكون ذلك سبباً للوحدة والإعتصام ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي تجلب إليها من النقود المعدنية الذهب والفضة والأقوات والأدهان والألبسة والفُرُش والمواعين وسائر الأشياء المحببة للناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ الله أي يأخذونها ويتنعمون بها ويشكرون الله تعالى على تلك النعم التي لا تحصى.

ثم لما بين أن ذريته التي سكنت في الوادي تحتاج إلى المعونة بالرزق والإمتاع من كل الثمرات وأنه طلب منه تعالى إمدادهم بها قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ فتعلم أن ما نريده للتقوية على الطاعة ونشر توحيد الله تعالى في الأرض، ولا نريد تخصيص بعض ذرياتنا لذلك. أو إنك تعلم ما نخفي من الحاجيات لجهلنا به أو لعدم سماح الوقت ببيان كلها، وما نعلن منها لكونها معلومة محدودة ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن العالم بعلم هو صفته الأزلية يستوي إدراكه لكل معلوم جزئي أو كلي علوي أو سفلي.

ثم شرع بحمد الله تعالى على أن أضاف إلى خوارق العادات التي أعطيها من نجاحه ونجاته من نار نمرود وغلبته عليه في المحاجة مع ذلك العدو اللدود، وخلاصه من أولئك المتمردين إلى أرض فلسطين المباركة بأهل الركوع والسجود، وتلقي ملك مصر له بالإكرام والإحترام، وإعطائه الجارية أم إسماعيل وإسكانهما في أرض مكة، وإقدار الله تعالى على بناء الكعبة الشريفة أن وهب له وهو في عمر لا يناسب التوليد إسماعيل وإسحاق الأبوين الطاهرين للأنبياء والرسل الكرام.. فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ أي وهب لي مع تجاوز عمري عن حد الإيلاد ذينك الابنين الجليلين ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ولذلك

أجابني عندما طلبت منه الأولاد فإذا تقبلت مني أدعيتي في ما مضى من حياتي فيا ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبرسلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وقد يستدل بهذه الآية على أن آزر الذي كان يدعوه باسم الأب عندما استغفر له وقال ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ لم يكن والده وإنما كان عمه ويدعوه باسم الأب لتربيه عنده. وأما هذا الذي استغفر له هنا فهو والده الذي ولده فجمعه مع والدته، وإلا فلو كان ذلك ما كان يستغفر له بعد النهي عنه. فتأمل.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ بعدما سرد من قصة أبيه إبراهيم توجه إليه ﷺ مُسلياً له عن تحمل أتعاب المشركين وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من تعدي الحدود، ومن الجحود بالله الواجب الوجود، أو الإشراك به في العبادة أو الظلم على حقوق العباد وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، أو تماديهم في غفلتهم وإعراضهم عن إطاعة ربهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ هائل ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي ترتفع أبصار أهل الموقف وتتوقف من الهول والدهشة فلا تتحرك ولا ترى ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى داعي الحق ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعيها مع شخوص الأبصار ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أي وقلوبهم خالية عن الفهم. وما دام تكون عاقبة الظالمين هكذا ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي من يوم يأتيهم عذاب جهنم ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي رجعنا إلى حال حياتنا الدنيوية ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ إلى الإيمان بك وبوحدتك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيما جاؤوا به من عندك. فيرد عليهم الباري جل شأنه، أو ملائكته بأمره ويقول لهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي من قبل حلول الآخرة ومشاهدة عذابها ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾؟ على ما أنتم عليه من المتاع والشهوات النفسية والإعراض عن الطاعات القدسية ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالإشراك وسائر المعاصي ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ من الإبادة والإستئصال، أو التمزيق والتفريق في البلاد بالعذاب أو النكال ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ﴾ في القرآن الحكيم أو على ألسنة كل رسول كريم ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي صفات أمثالكم قبل الدمار وصفاتهم بعد الوبال، لتكون ذلك عبرة لكم، ولم يفدكم إلا مزيداً من العناد في الحال.

﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ وأولئك الناس لم يكونوا ضعفاء لا يعرفون شيئاً بل كانوا صناديد أهل القوة والمكر والإحتيال، وفعلوا ما في طاقتهم من العصيان والعتو على الله ذي الجلال، وعلى رسله وأتباعهم بكل حال ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي وكان معلوماً عند الله مكرهم. والمكر إذا كان معلوماً عنده كان دفعه وإبطاله معلوماً كذلك فلا يفيدهم ذلك لأن مكر سنةٍ يَبْطُل في سِنَةٍ أو كان عند الله جزاءُ مكرهم بمعنى أنّ كل حيلة ووسيلة لهم للمتمرد كان عليه عقاب عند الله وأجّلها لَهم إلى يومه المقرر ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ والحقيقة أن مكرهم كان جسيماً وكيدهم كان عظيماً، إذا كان في أيديهم شتى أصناف العلم والإطلاع بما يجري في البلاد والبقاع، ورصدوا في مقابل كل ذلك طرقاً للاستيلاء على مناوئيهم ومقابليهم فكان مكرهم لو تجسم كمعاول أو مكائن تدميرية لأزالت الجبال وأقلعتها عن أماكنها. فعلى هذا المعنى كلمة إن شرطية وصلية، واللام حرف جر، والمضارع منصوب بأن المضمرة. يعني وعند الله إبطال مكرهم وإن كان مكرهم مناسباً وموافقاً لزوال الجبال لكنه ما بقي بل انمحى ولم يبق له أثر. وزعم بعض أن إن نافية يعني وما كان مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي قوياً جداً، بل كان ضعيفاً حقيراً.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ بانتصارهم وانتصار أتباعهم المخلصين

على الكافرين، ولا وعده بحلول العقاب المدمر عليهم إن عاجلًا أو آجلًا، ولا وعده بالانتقام منهم وعقابهم بما يناسب أفكارهم وآثارهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على ما أراد، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من ظلمة العباد وإن أجلهم إلى يوم المعاد. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لعامل مقدر مستفاد من النهي المذكور، أي ينجز ما وعد به يوم ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي وتبدل السماوات غيرَ السماوات. والتبديل قد يكون في الذات كما في: بدلنا الدراهم دنانير. وقد يكون في الصفات كما في: بدلت الحلقة خاتماً إذا غيرت شكلها. والآية الكريمة ليست بنص في واحد منهما. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال تبدل الأرض أي يزاد فيها وينقص منها، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وأشجارها وما فيها، وتُمَدُّ مَدَّ الأديم العُكاظى، وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتبدل السماوات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها.. وحاصله يغير كل عما هو عليه في الدنيا. وقال ابن الأنباري: تبدل السماوات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومرة وردة كالدهان. والحق الذي يجب أن يعتبر أن النصوص إذا أضيف بعضها إلى بعض تدل على أنه لا تبقى هذه الأرض يوم القيامة ولا السماوات ولا الشمس والقمر والنجوم، وإنما هناك عند قيام الساعة عالم آخر لا الأرض أرضنا ولا السماء سماؤنا. وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ أي وبرز الخلائق من الظالمين وغيرهم، أو الظالمون فقط. وبروزهم لله كناية عن عرضهم للحساب بصورة مخزية. فالسكوت عن تفصيل ذلك بدون نص يدل عليه واجب. على أن عالم الآخرة حسب ظاهر النصوص محصور في عالم الجنة والنار. والجنة عرضها السماوات والأرض. والنار مسافتها في علم العزيز الجبار. ولا تفي هذه الأرض ولا هذه المسافات المحدودة المحسوسة لأن تكون مستقراً لأهل الدارين.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي يوم إذ برزوا لله مقرنين بعضهم إلى بعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ جمع صفد وهو القيد الذي يوضع في الرِّجل، أو الغل الذي يكون في اليد والعنق ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي ما يستر أجسادهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق بحدته وحرارته الجرب في الجلد ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تعلو وجوههم وتحيط بها النار التي تُسَعَّر بأجسادهم المُسَربَلَةُ بالقطران. وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعالي الأجساد، فإذا علت الوجوه فقد علت الوجود، ويعاملون بما ذكر ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ ظالمة مجرمة

جسورة على الله وعلى عباده، ومتعدية على حدوده ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الكفر والمعاصي لا سيما من التعدي على حقوق الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله كتاب عن كتاب ولا حساب عن حساب. ﴿هَٰذَا﴾ البيان الذي عرض الآخرة في معرض العيان من قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى هنا ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي كفاية لهم في الموعظة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي ولينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ الكافي ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وليعلموا بالتأمل في الأنفس والآفاق، أو بالإيمان بالرسول صاحب محاسن الأخلاق، أنما هو إله واحد أي أن الله الذي له السيطرة في الدنيا والآخرة هو إله واحد لا شريك له ذاتاً أو صفة أو فعلاً ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيأخذوا حذرهم من عقاب يوم الحساب.

الجزء الرابع عشر
سورة الحجر

مكية، وآياتها تسع وتسعون
نزلت بعد سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ
كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا
مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الٓرۚ﴾ قد تقدم الكلام فيه. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الكتاب الكامل المحقق المختص اسم الكتاب به ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ مظهر لما فيه من الأحكام للأنام والقرآن تفسير للكتاب للتفخيم.

وقوله تعالى ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ جاء لبيان حالة نفسية وندم شخصي يعتري الكفار عند البعث ورؤية ما يستحقونه من الأهوال التي لا مرد لها، فكان الباري ـ جل شأنه ـ يقول لهم: أيها الناس لا تستمروا على الكفر والعناد وتوجهوا إلى طريق الرشاد قبل أن يأتيكم يوم تتندّمون فيه على ما فاتكم من الإيمان بدون أية استفادة. وأما مورده الخاص ففيه روايات. منها: ما روي عن ابن مسعود أن الآية نزلت في كفار قريش ودوا ذلك يومَ بدرٍ حين رأوا الغلبة للمسلمين. ومنها ما أخرج الطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح عن جابر عن

عبدِ اللَّه قال قال رسول الله ﷺ: **«إن ناساً مِن أمّتي يُعذبون بذُنوبهم فيكونونَ في النار ما شاء الله تعالى أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى مُوَحد إلاّ أخرجه الله تعالى من النار»** ثم قرأ رسول الله الآية. وذكر ابن الأنباري أن هذه الوِدادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ويسلمُ المُسْلِم.

وربَّ على كثرةِ وقوعها في كلام العرب لم تقع في القرآن إلاّ في هذه الآية. وهي للتكثير لأن الكفار كثيراً ما يرون المسلمين في راحة وأمان وهدوء ونعمةٍ ورِضوان فيتمنون ذلك بدون استفادة من تمنيهم. ومن الناس من قال إنها في الآية للتقليل لأن عذابَ الآخرة يدهشهم فلا يبقى لهم مجال أن ينظروا إلى غيرهم ويتعرفوا على أحوالهم إلا في قليل من الأوقات وذلك لمزيد الحسرات عليهم حيث يرون سلامة المسلمين فيتمنون ذلك.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي اترك أولئك الكفار الغافلين عن الحال والمآل يأكلوا مما يشاؤون ويتمتعوا كيف يشاؤون ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي وذرهم يشغلهم التوقع للمتمنيات التي هي أبعد من آجالِهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا ينالون من العذاب والعقاب. والطلب تهديدي فإنّ الله لا يرضى لعباده الأعمال السيئة والآمال الدنيئة ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من القُرى الكبيرة أو الصغيرة، أي وما دمرناها بأهلها أو أهلكنا أهلها إلا ولها منذرون قبل ذلك يُنذِرهم به قبل حُلوله وبشدته قبل نزوله و﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي وما يتقدم أي أمة على وقتِ عذابها، ولا تتأخر عنه فالوقت مقدر والحساب مقرر. وكما أن وقت العذاب مقدر كذلك وقت النعيم ولكن التهويل في الأول لا في الثاني. ﴿وَقَالُواْ﴾ أي أولئك الكفار المشركون السفهاء الذين لا يميزون بين صاحبي العقل والجنون في مقام إيذاء الرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي القرآنُ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لأن من تعوَّد الأمور السافلة الرذيلة وابتعد عن مستوى الأمور العالية والفضيلة يرى العقل جنوناً والجنون عقلاً، ويرى اليقظة غَفْلَةً والغفلة يقظة. ألا ترونَ بعض الحشرات السافلة لا تنزل إلا على النباتات ذوات الرائحة الكريهة وتنفرُ عن ذوات العطور الكريمة؟ ويقولون له ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ المأمورين بإهلاكنا أو بالملائكة الذين يشهدون بصحة دعواك للرسالة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن الله يعذبنا عقاباً لنا على

مخالفتك، أو أن الله أرسلك للناس رسولاً. ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ولا يعلمون أنا لا ننزل الملائكة إلا متلبسين بالوجه الحق المطابق والحكمة الموافقة لإدارة شؤون العباد المقتضية لإرسالهم للإفادة حين الإفادة، ولإبادة الأمة حين الإبادة، ولو أنزلنا الملائكة لقضوا عليهم عن بكرة أبيهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ساعةً من الساعات في أي ساحة من الساحات ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ العظيم وهو القرآن الكريم على الرسول الهادي لإنذار الناس من العذاب الأليم وتبشيرهم بالنعيم المقيم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي وإنا لهذا الذكر لحافظون من تطرق أيدي العابثين، فيبقى ما دام العالم باقياً لاستفادة أحكام الدين وكل من تعرض لصاحبه الذي نزل عليه نسحبه إلى جهنم ونعذبه بالعذاب العقيم.

ولقد حقق الله وحده وعده ونصر ذكره وقرآنه المنزل وَجُنده ولم يقدر أحد أن يأتي بمثله أو بمثل سورٍ منه حتى تنكسر شوكته وتزول دولته، ولم يقدر أحد أن يحرف حرفاً أو كلمة أو جملة أو آيةً من آياته، فَبَقيت على ما نزلت عليه من سماواته. وكما حَفِظَ هذا القرآن فقد حفظ صاحبه وصانه عن أعدائه إلى أن تمم مهمته وأكمل رسالته ونشر شريعته فتحقق ما قاله الباري جل جلاله ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ والخوفُ كل الخوف من أن يأتي أُناس يحرفونه عن معانيه الثابتة التي درجت عليها الأمة المرحومة ويحولونه إلى أهوائهم، ولكن الله لهم بالمرصاد ونلتجىء إليه في كافة الأمور إنه بصير بالعباد.

ومع ذلك فقد ثبت تاريخياً أن كل من جاء بهذا النوع من التفسير، وأراد أن يغير المعاني المقررة الموافقة لظواهر النصوص وقواعد الدين قد ردَّ الله كيده في نحره وسهمه إلى صدره، وقيض أناساً مخلصين عارفين بالمباني والمعاني، وأبطلوا كُلَّ ما قرروا ونقضوا كل غزل غزلوا، ورجعوا الحقائق إلى الأذهان. فللّه المنة والحمد مر الزمان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ تسلية للرسول ﷺ

بأن تمرد الكفار المشركين ليس شيئاً مستحدثاً في زمانك بل إنه عادة مستمرة على الأشقياء حيث عارضوا الأنبياء والرسل ﴿و﴾ الله ﴿لقد أرسلنا رسلاً﴾ مبشرين ومنذرين في شعوب من الأناس الأولين ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ في أي حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حال ﴿كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في تلك الحال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل السلك الذي سلكناه في قلوب المجرمين المستهزئين الأقدمين ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي ندخله ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الآخرين أي إن الإنسان نوع واحد والطبيعة طبيعة نوعية واحدة، ومن وفقه الله للسلوك على مسلك الحق والسداد كلما أرسل إليهم رسول سلكوا معه مسلك الرشاد، وكل مَنْ خذَله الله عاندهم وتمرد عليهم وسلك مسلك العناد، ولم يهتم الرسل إلا بأداء واجب التبليغ فبلغوا ونالوا خيرهم في الدارين.

ولا تهتم باقتراحات أولئك الفاسدين لأنها ليست بنية الاستصلاح وإنما هي للاستهلاك الوقتي والاسترواح ﴿و﴾ إلا فـ﴿لو فتحنا عليهم باباً من﴾ أبواب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من المواقع التي يجوز ويمكن العروج فيها ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ أي في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون حَسْبما تيسر لهم ﴿لَقَالُوٓا﴾ من شدة العتوّ والغلوّ في المكابرة: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي مُنِعت من إبصار الحقائق، والذي نراه ليس من السماء ولا من عجائب آلاءِ الله تعالى ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي أعرض عن سَدِّ الأبصار ومنعها عن الإبصار، وقل إنه قد فتحت أبصارنا وترى الحقائق ولكنا قوم مسحورون، وغَلَب محمد على عقولنا وندرك الحقائق على غير ما هي عليه.

فالجواب الأول الإختلال في الحواس. والجواب الثاني مما وقع بعد الإضراب الاختلال في العقول فلا ينفع فيهم أي دليل وأي تعليل، لأن حواسهم وقلوبهم مؤوفة بآفة العناد والعناد مع الحق حماقة.

لكل داءٍ دواء يُستَطبّ به   إلاّ الحماقةَ أعيَت مَنْ يُداويها

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ
شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ
وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ
بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ

مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أنْ ذكر الله سبحانه وتعالى تمرد الأشقياء على الأنبياء، وأنهم استمروا في عنادهم. . أخذ يعظ أولئك الناس وغيرهم إلى الإيمان بالله القادر القهار الذي خلق الكائنات من الأرض والسماوات حتى إذا اعترفوا بذلك سهُلَت طرق المباحثة معهم. ويمكن توجيههم بأن الله القادر على هذه الأشياء قادر على بعث الرسل لتنوير العقول، وأن ذلك البعث المزين لأحوال أهل الأرض مناسب لتزيين السماوات بالبروج وسائر الأمور المستحسنة. فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي قررنا فيها منازل ودرجات مسماة بالبروج تكون مدة سير الشمس فيها على مرأى الناس دليلاً على الفصول والمواسم، وهي اثنا عشر برجاً، ستة منها في بلادنا شمالية هي: الحمل، والثور، والجوزاء، للربيع. والسرطان، والأسد، والسنبلة، للصيف. وست منها جنوبية وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، للخريف. والجدي، والدلو، والحوت للشتاء. وبالسير فيها تنتهي أيام السنة فتتجدد إلى ما شاء الله. وقيل: البروج الكواكب العظام لأن البرج في أصل اللغة القلعة أو القصر العالي. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي وزينا السماء بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت للناظرين بأبصارهم في الليل الصافي فيروز فيها عجائب اللمع وعجائب المجموعات على أشكال مختلفة من أشكال الحيوان والأوراد المجتمعة والميزان وغيرها فكأنها فرش معلقة في الجو منقوشة بالنقوش المستحسنة. أو زيناها لعقول الناظرين ورتبناها بحيث يستدل بوجودها وأضوائها المختلفة وحركاتها كذلك سرعة وبطء وجهة ومواسم طلوعها وغروبها في ملك المسافات الشاسعة على وجود فاعل قادر مختار يتصرف في الكائنات بما شاء. ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي تلك البروج أو سماءها ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي منعناهم من الوصول إليها والتعرف على أحوالها ومد الأيدي إليها بالتغيير والتبديل فهي عوامل ثابتة قائمة بأمر ربها. وقوله ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ استثناء منقطع. أي لكن من لم يصل إليها ووصل إلى حيث يسترق السمع أي يسترق بعض الكلمات من الملائكة هناك لينزل بها ويبثها بين شياطين الإنس والجن بالإلقاء والوسواس ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو. يعني إن الشياطين إذا أرادوا أن يصلوا إلى السماء، أو إلى تلك البروج لا يصلون إليها ولكن يصلون إلى منازل في الجو فهناك يستمعون كلام الملائكة. بينما هم في ذلك الوضع إذ امتدت إليهم الشهب النارية وأحرقتهم.

ولا قدح في أن يكون في الجو كواكبُ وشهب من قديم الزمان وتكون بحيث يترتب عليها حكم ومصالح كثيرة نعلمها أو لا نعلمها. ومن جملتها رجم الشياطين المسترقة في الجو لاستماع كلام الملائكة لنشرها في الأرض. وأما القول بأن الجن خلقن من النار فكيف تؤثر فيها نار الشهب وتحرقها؟ فجوابه: أن الجن مركب وفيه أجزاء كثيرة، وإن كانت النار أغلب أجزائها، ولا مانع من تأثير النار الخالصة في المركب منها ومن غيرها. وإلا لزم أن لا تؤثر نار جهنم في المعذبين من الجن في نار جهنم، وذلك خلال الإجماع الصِّرف والنصوص القطعية من الكتاب والسنة السنية. وإذا نظرنا إلى الواقع السليم وجدنا أنه إلى الآن لم تكشف السماوات وما فيها من الكواكب السيارة أو الثوابت إلا شيء قليل من آثارها وفوائدها، ولعل في تلك الكواكب العالية عالماً من أصحاب العقول ومن الحيوانات الغير العاقلة كما أن في المحيطات أصنافاً من الحيوانات بأشكال مختلفة لم تر نظائرها في الصحارى والجبال. هذا من جهة المادة. وأما من جهة المعنويات والأرواح الطيبة والخبيثة فلا كاشف لها إلا الله، وقد يطلع الله على بعض غيوبه بعض الناس من الأنبياء والرسل الكرام، فإذا قرر الله سبحانه وتعالى أن بعض الجن يصعدون في السماوات لتلقي بعض الأمور فإذا وصلوا إلى منزلة معينة رماهم بالشهاب وأمحاهم؛ فذلك بيان جزئي لبعض المغيبات السماوية ولا عجب فيه أبداً ولا مجال لإنكار أحد من العقلاء ذلك بحال من الأحوال.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ أي جعلناها ممدودة مبسوطة، ولا ينافي هذا المد والبسط كونها كروية أو بيضية، أو اهليلجية، فإن المادة كيفما كانت ما دامت كبيرة الحجم يرى كل مقدار منها كالفرش المبسوط. ولو نظرنا إلى الجبال العالية لم نجد لها منعاً من كونها كروية أو بيضية مثلاً، فإن نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى الأرض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى قطر كرة هو ذراع كما حقق في محله من علم الهيئة. ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً عالية مستحكمة ثابتة القواعد في أعماق الأرض، وذلك لفوائد منها أن تحفظ الجذور النارية الملتهبة من الإنفجار الهائل وتدمير الأرض. ومنها حفظ توازن الكرة في الحركات اليومية والسنوية. ومنها امتصاص الثلوج والأمطار وخزنها في طياتها لتتفجر منها العيون والأنهار. ومنها إنبات النباتات المختلفة النافعة فيها وبقاؤها في صفاء الهواء حتى تصل إلى مستواها المناسب المقرر لها.. إلى غير ذلك مما يعلمه أهله. كما قال تعالى ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا

﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ والضمير يعود إلى الأرض الشاملة للجبال أو إلى الرواسي. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما يتعلق بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ كلمة من إما معطوفة على الضمير المجرور عند من لم يشترط إعادة الخافض على المعطوف. أي وجعلنا فيها معايش لمن لستم له برازقين من العيال والمماليك والخدم والدواب وغيرها. أو عطف على معايش. أي وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين كما ذكرناه آنفاً.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما من شيء ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ من الأقوات والفواكه والملابس ومواد الأثاث والمواعين وغيرها. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ محدود مناسب لتطور البشر في الدنيا وحاجتها إلى الأمور الخمسة المذكورة وغيرها من المعدات الحربية والأدوية والعقاقير الطبية وغيرها. يعني إن الخزينة موجودة عندنا وهيأنا البشر لتعلم العلوم والفنون والصنائع ليستخدمها في استحصال ما يفيده من الأرض برحابة الصدر لتكميل ما يحتاج إليه في العسر واليسر. ولا ينال أي قوم وأي فرد من أي قوم إلا بقدر قابليتها علماً وعملاً وطموحاً وأملاً.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي أرسلناها من الأرض إلى الهواء المرتفع ومن بلد إلى بلد آخر لواقح أي حاملات بمواد الأمطار الغزيرة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ حيث شئنا ﴿مَاءً﴾ بقدر ما تعلقت به إرادتنا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأسقيناكم به نفوساً ومزارع وبساتين ومراتع ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي وما كنتم بجامعين حافظين لذلك الماء، وإنما انبعثت الرياح بأمرنا وأخذت مواد الأمطار بإرادتنا وأفاضتها على الأراضي بمشيئتنا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياة في المواد القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الباقون بعد فناء الخلق قاطبة والمالكون حقيقة لما ملكوه مجازاً ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي الذين ماتوا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ الذين لم يموتوا بعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بعد أن أماتهم ثم بعثهم. يعني أن الله سيبعث الجميع ويحشرهم في صعيد واحد، ويحاسبهم ويقرر مصيرهم أجمعين ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في خلقهم وإحيائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بجزاء أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ

مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن
صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ أصل هذا النوع وأول فرد من أفراده ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقره ناقر ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي من طين تَغَيَّرَ واسْوَدَّ مِن مُجاوَرة الماءِ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مُصَوّر من سُنَّةِ الوَجه أي صورته. أو مَصبوب من سنّ الماء صَبّه. ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أي ولقد ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ أصل نوع الجن وهو الجان يعني به أبا الجن ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلم كلّها إلاّ الله تعالى ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قيل: السموم نار لا دخان لها فالإضافة من إضافة العام إلى الخاص. وقيل السموم المُفْرِط في الحرارة والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة. وقد جاء في بعض الآثار أن النار التي خلق منها الجان أشد حرارةً من النار المعروفة عندنا. ولا يخفى أنا إذا نظرنا إلى هذه الكائنات الموجودة المحسوسة عندنا وَجدنا أنّ هناك مواد كثيفة لا تغور فيها الأقدام، ومواد لطيفة تغور هي فيها. ونحسّ بالمعيشة في جوّ منطلق ومملوء بالمادة اللطيفة المسماة بالهواء وقد تكون هادئة، وقد تكون هابّة قوية الحركة بحيث تقلع البناء والأشجار، وإذا نظرنا إلى ما فوق رؤوسنا رأينا جوّاً منفتحاً واسعاً لا يدرك مداه مزيناً بالمواد المشعة التي تسمى بالكواكب ومنها ما هو أعظم حجماً وأكثر نوراً وأقوى تأثيراً وهو الشمس ومنها ما هو أقل من ذلك وهو المسمى بالقمر، وعليهما مدار حساب الأيام والليالي والشهور والسنين في القلة والكثرة، وإذا دققنا النظر فيما على سطح الأرض والبحر وما فوقهما من الأجواء وجدنا أنواعاً من الحيوانات أي الأجسام الحساسة النامية المتحركة بإرادتها، متشكلة بأشكال مختلفة، ومتلونة بألوان مختلفة وموصوفة بصفات مختلفة، وعندما حققنا النظر فيها وجدنا أن هذا النوع المعروف بالإنسان هو أشرف أنواع الموجود لأن لها العقل والعلم الهاديين إلى العمل المثمر النافع وتبديل السيىء بالحَسَنِ، وتحويل الحَسَنِ

إلى الأحسن. وتقدير النظام للمعيشة، والإستفادة من المواد المخلوقة أمامَنا.

وهذا النوع العريق في الوجود المتطور في العالم بالعلم والصناعة الواصل إلى هذا الحد الموجود الآن وَجَدَ بَعدَ الإمعانِ أن هذا المجموع من العالم، وإن كان نوعُهُ باقياً، ولكن كل جزء من أجزائه التي وَصَلَتْه أيْدِينا مُسَخّرة للقدرة وعاجزة أمام القوة، فتبين له أنه ليس هذا العالم وهذه الأجزاء واجبةَ الوجود، وإلا لم يكن متأثراً ومتغيراً وأن وجوده ناشىء من فاعِل حي عالم قادر مريد مختار، لأنه بعد ثبوتِ أنه ليس واجب الوجود ثبت أنه محتاج إلى الصانع، ولا يجوز أن يكون الصانع شيئاً لا يعقل ولا يعلم ولا يهتدي لأن ظهور النظام في الكون عن قوة لا شعورية لا يقبله الشعور السليم، ومن هنا وَصَلَ الفكر السليم إلى الخالق القادر الحكيم، وهذا الخالق القادر الحكيم ميّز في العُصور السابقة إلى اللاحقة أُناساً ممتازين بالفضائل وأرسلهم لتنوير باقي البشر وأيّد صدقهم بالمعجزات القاهرة الباهرة إلى يومنا هذا.

وآخر فرد من هذه السلسلة الذهبية الأصلية أي سلسلة الرسل الكرام وهو سيدنا محمد ﷺ جاء بالقرآن الكريم والكتاب العظيم المحتوي على زبدة معلومات بُني عليها النظام الحق، وهذا الكتاب ناطق بأن أصل نوع أشرف الموجود أعني الإنسان مخلوق من صلصال، وهناك نوع ثان مزود بالعقل والعلم وهو الجن، وأن أصل سلسلته وهو الجانُّ أبو الجنّ خُلق من نار، وكان خلقُ الجانّ ووجوده في العالم قبلَ خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلمُها إلا الله. وهذان النوعان مستمران في العالم على سبيل التوالد والتناسل ومنهم المذكر والمؤنث والمطيع والعاصي، وأن الرسل كما أرسلوا إلى الإنسان أرسلوا إلى الجان، وأن رسولنا محمداً ﷺ أرسل إلى النوعين كافة عامة. وأن في العالم نوعاً آخر يسمى بالملائكة، وخُلقوا بأمر إبداعي يعبر عنه في سرعة النفوذ بعبارة ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ ومعناه أنه ليس فيهم الذكور والإناث وكلهم مطيع لأمر الله جل جلاله لا يَعصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا المقدار مما يجب على المكلف الإيمان به إجمالاً فيما علم إجمالاً وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً. وتفصيل خلق الأنواع الثلاثة وسر القدر فيها موكول إلى علم الباري تعالى. ولكن الجنّ والملائكة ليسا من عالم الحِس والعيان، فلا يُدرك الجِنُ ولا الملائكة بالعين المجردة إلا بخرق العادة كما للأنبياء والرسل الكرام.

وكما أن نصوص الكتاب العظيم والقرآن الكريم ناطقة بخلق الأنواع الثلاثة كلها كذلك الدليل العقلي يرشدنا إلى وجود الجن والملائكةِ، فإن الإنسان إذا راجع وجدانه علم أنه قد يكون في حيرة من أمرٍ مّا لا يتبصّر ولا يَهتدي، فإذا هُو تأتيه إلهامات مُنيرة للقلوب توجهه إلى المطلوب، ولا شك أنها ليست من نفسه وإنما هي أتته من قوى قدسية مباركة يعبر عنها بالملائكة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾.

وربما يسكن الإنسان في منزله فارغ البال عن الدنيا فتأتيه إلقاءات فاسدة تزعجه وتثيره على الناس وتحمله على أعمال لا تحمد عواقبها أو على ارتكاب الشهوات النفسية أو غير ذلك مما لم يكن له فيه قصدٌ وإقدام، وذلك ليس من أحواله النفسيةِ المجردة، وإنما هي من الواردات الأجنبية الدنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ وعلى كل فالسند لوجود الجن والملائكة هو النص الوارد، ولكن لا بأس في تأييد العقل للنقل ولا في عكس ذلك. وفي هذه السورة الكريمة بَيّن اللّهُ خَلْق الإنسان والجانّ، وذَكَرَ أنّ الله تعالى لَمّا خَلَق أوّلَ فرد من الإنسان أمرَ الملائكة بسجود التشريف له، لأنه مَجْمَعُ المادة والمعنى، وَمَجمعُ العقل والعلم، ومنبعُ الخيرات ومقوّماتِ خلافة الله تعالى في الأرض. وكان أحد أفراد الجان المدعو بعزازيلَ بينهم، فَسجدتِ الملائكة له وأبى ذلك واستكبر عنه، فطرده الله من ساحة السعادة وألقاه في وادي الشقاوة، فصار من ألد أعداء آدَمَ وذريته إلى يوم الدين، كما ذكر ذلك الباري تعالى بقوله ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي فإذا فعلتُ فيه ما يصير به مُستوياً مُستعداً لفَيضان الروح ونفختُ فيه من روحي، وأفَضتُ ما به الحياة بالفعل عَلى المادة القابلة لها وصار إنساناً حياً مُتمتعاً بآثار الروح والحواس ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي فَاْحنُوا رؤوسكم واجعلوا جباهكم على الأرض على وجه الإكرام والتشريف له بأمر الله تعالى ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي فَخلقَه وسَوّاه ونَفَخ فيه من رُوحه فَسجَد لَهُ الملائكة ﴿كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخر أحدٌ منهم عن أحَدٍ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ الله تعالى: يا إبليس ﴿مَا لَكَ﴾ أي ما هو السبب لك ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي في أن لا تكون مع الساجدين ﴿قَالَ﴾ في جوابه تعالى ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ

مَّسْنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي مِنَ الجنة، وإن لم يجر ذكر لها لاستفادتها من السياق ﴿فَإِنَّ﴾ الله خلق آدم فيها وأمر بسكونه مع حواء هناك، وسجدت الملائكة له فيها وقوله ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ أي مطرود من كل خير وبَرَكة ورحمة ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ أي يوم الجزاء ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي فأمهلني ولا تُمِتْني إلى يوم بعث آدَمَ وذريته للجزاء. وقصد بذلك أن تكونَ لَهُ فَسحةٌ لإغوائهم وينتقم منهم لأن سجودَ آدم كان سبباً لطرده عَن رحمة الله تعالى حيثُ لَم يَسجد له ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي من جُمْلة المنظرين الذين قرر لهم الإمهالَ والتأجيلَ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو خروجُهم عن الدنيا وعالم التكليف، ويعتبر ذلك وقت النفخة الأولى لأن الإنسان يبقى منهم جيل إلى ذلك الوقت وهو معلوم عند الله تعالى.

فإن قيل: إن كان إبليس من الملائكة فكيف خالف أمر الله سبحانه وتعالى بسجوده لآدم عليه السلام مع أن الله تعالى أخبر أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإن كان من الجن فكيف يشمله أمر الله تعالى الملائكة بالسجود حتى يكون عاصياً بمخالفة الأمر؟ قلنا: إنه كان من الجن بلا شبهة لأدلة:

الأول: قوله تعالى في شأنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

الثاني: أن له الذرية لقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ والملائكة لا ذرية لهم.

الثالث: قوله تعالى: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ فإن الملائكة لم يخلقوا من النار، وإنما خُلقوا من النور بأمر إبداعي آني، والمادة النارية محرقة والنور مضيء مشرق.

الرابع: أنه لو كان من الملائكة ما كان يخالف أمر الباري تعالى لإخباره تعالى بعصمة الملائكة، وإخبارُه تعالى لا يتغير ولا يتبدل. وإذا ثبت كونه من الجن فشمول أمره تعالى إما لأنه كان مغموراً بينهم ومعدوداً منهم إذ ذاك فالإستثناء يكون متصلاً في الصورة، وإما لأنه تعالى أمره أمراً خاصاً متوجهاً إليه علاوةً على أمر الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾؟

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا

عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الشيطان مخاطباً ربه: يا رب بسبب إغوائك إيّاي، وخذلِكَ لي، وحِرماني مِن النعيم المقيم أُقسِمُ بالتأكيد لأزينن لآدم ولذريته في الأرض كل ما كان سبباً للإغراء والإغواء من المشتهيات النفسية والمال والجاه والأمور التي يتنافس فيها الناس، حتى يعارض بعضهم بعضاً وتقع الفتنةُ بين أخص الأحبّاء، فضلاً عن الناس الآخرين، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أجعَلنّهم من الغُواة الهواة للفسادِ ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين اخترتهم وأخلصتهم لطاعتك ومحبتك ومعرفتك. ﴿قَالَ﴾ اللّٰه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا بد أن أراعيه. بمحض حكمتي في شؤوني أي أن المخلصين لا قدرة لك عليهم، وأن المفلسين من الإخلاصِ تؤثر فيهم بشَتّى جهاتِ التأثير، و﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لموعد الغاوين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي سبع طبقات بحسب مراتب أحوالهم في الغواية ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من الأتباع والغواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فريقٌ معين محدود منهم حَسب استحقاقهم ونعوذ بالله الستار الرؤوف الرحيم من أخفها فضلاً عن أشدّها وأعْنَفها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ يعني إن الذين اتقوا الكفر والفواحش وسائر ما يتقى منه مستقرون في جنات وعيون مباشرةً. وأما من اتقى الشرك ولم يتق الفواحش أو اتقى الفواحش ولم يتق سائر المحرمات فاستقرارهم فيهما مربوط بالعفو أو بمرور مدة العذاب الذي يستحقونه. وسواء في العفو عندنا من تاب ومن لم يتب. فإن دخول الجنة ليس مربوطاً بالإجتناب عن الكبائر ولا بالتوبة ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يقال لهم من جانب الملائكة المأمورين لها: ادخلوها سالمين أو مسلماً عليكم، آمنين من طروِّ العذاب بعد ذلك، فإن الجنة دار السلام الخالد

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ ورفعنا ما في صدورهم من غلّ أي حقد سواء كان قَبَليّاً أو شخصياً فكما لا يبقى عذابُ النيران كذلك لا يبقى عذابُ الوجدان من الخزي والعار ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من فاعل أدخلوها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ صفتان لقوله إخواناً أي إخواناً مستقرين على سُررٍ ويقابل بعضهم بعضاً لمزيد الصفاء وراحة القلوب حال كونهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ وتعب من المرض أو الملل أو خلل في الصحة أو في غير ذلك ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي هم خالدون في الجنات ولا يخرجون فيها ﴿نَبِّئْ﴾ يا نبيي ورسولي ﴿عِبَادِي﴾ المؤمنين بي حق الإيمان ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي بأني أنا الغفور للذنوب والرحيم بكشف الكروب وستر العيوب لا غيري. ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ لمن عذب به سواء كان عذاب الخلود كما لأهل الكفر والجحود أو العذاب المحدود كما للمؤمن العاصي اللدود. ونسأله العافية مِنْه بمنّه ورحمته.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ كان لسيدنا إبراهيم دارٌ لها أربعة أبواب من الجهات الأربع حتى لا يفوته الضيف. ولذلك كان يُكنّى أبا الضّيفان. والضيف في الأصل مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. وكان الضيف من الملائكة المرسلين لتبشيره بالغلام، ثم بخلاص لوط ابن أخيه من خزي المجرمين. وفي الحكاية تسلية للرسول ﷺ بأنه قد مضى في الدنيا رُسُل جاءهم ما ساءهم وصبروا حتى جاءهم النصر، ولك بهم أسوة حسنة ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ متعلق بالضيف لتضمنه معنى الورود والنزول ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نُسلّم عليك سلاماً ﴿قَالَ﴾ بعد رد السلام لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائِفون. وهذا القول بَعْد أن قرَّب إليهم لَحم العجل وامتنعوا عن الأكل، فظن إبراهيم أنهم جاؤوا بقصد الإساءة إليهم، ولذلك لا يأكلون طعامهم. ﴿قَالُوا﴾ في تهدئة باله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ

﴿٥٣﴾ أي بولد يولد فيصير شخصاً عليماً بالكتاب والصحف المنزلة عليه علماً وافياً كافياً. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثر في ظهري ويئست من الإيلاد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ أي فبأي شيء تبشرونني بولد ولادته خارقة للعادة ناشئة عن سلطان الإرادة الربانية، أو بولد وجوده غير محقق وإنما يبشر به لفظاً؟ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأمر الثابت الذي لا خلاف فيه وهو ولد ناشيء عن الإرادة، وليس إخبارنا محض التلفظ الذي لا أصل له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ عن ظهور الأمور الخارقة للعادة بحسب الإرادة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ المخطئون طريق معرفة الباري تعالى ومعرفة سيطرته وقدرته على كل ما تعلقت به إرادته؟ وبعد أن تعرف على أنهم مبشرون لا منذرون ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي شأنكم الخطير الداعي لنزولكم جماعة لا وحداناً ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ هم قوم لوط الموصوفون بالإستهتار وعدم المبالاة بالخزي والعار علاوة على عدم الإستحياء من الملك الجبار ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فآل لوط مستثنى من القوم المجرمين ولا يعذبون، وامرأته مستثناة من آل لوط الناجين فتعذب مع المجرمين ﴿قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي قررنا كونها من الباقين في العذاب ولا تنجو منه وكسرت همزة إن لأن التقدير متضمن لمعنى العلم. وقد علق عن العمل فيما بعده بسبب وجود لام الإبتداء التي لها صدر الكلام. وهذا التعليق هو إبطال العمل لفظاً لا محلاً فيجوز العطف على تلك الجملة مع نصب جزأيها.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي فلما جاء المرسلون إلى بيت لوط مباغتة وما عرفهم قبل ذلك خاف أن جاؤوه لشر يريدونه، أو لما رآهم على سَمتٍ حَسن وخاف أن يصيبهم قومه بسوء ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي غير معروفين ذاتاً وشخصاً، أو منكر مجيئهم إلينا بهذا الوجه لأنه يخاف عليكم من المس بسوء الأدب. فأضربوا في الجواب عن إرادة السوء به أو عن جهل بأحوال

قومه الفاسدين المتمردين ﴿وَقَالُوا﴾ أعرض عن خيال أنا جئناك لشر نريده لك أو جئناك جاهلين بأحوال قومك ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ عارفين بأحوال أولئك الناس الطغاة وطالبين الخير لك لنُهْلِكهم فتبقى سالماً من أذاهم وأحوالهم المختلة المستكرهة المنفورة. وجئناك ﴿بِمَا﴾ أي بالعذاب الذي ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ويشكون ولا يؤمنون نزوله عليهم ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر المتيقن الذي لا مجال للشك فيه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقوله لك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي مع بقاء طائفة من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وتتبع واطلع على أحوالهم كيف يهلكون ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى من الهول ما لا يطيقه فيختل عقله ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضيِّ إليه وهو الشام أو مصر أو الأردن. وقيل: موضع نجاة غير معين ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي وأوحينا إليه ذلك الأمر وهو مبهم يفسره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي حال كونكم داخلين في الصبح. والمعنى أنهم يستأصلون لا يبقى منهم أحد إذا دخلوا في الصبح.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إستئناف لبيان ما صدر من القوم البُغاة بَعدَ علمهم بنزول الضيف على بيت لوط عليه السلام. فيقول: ولما علم القوم بذلك جاء أهل المدينة منهم أي الذين تعودوا مباشرة البغي مستبشرين مسرورين إذ سمعوا أن عنده عليه السلام ضيوفاً كذا وكذا. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ أي قال لوط عليه السلام لما جاؤوا: إن هؤلاء الواردين ضيوفي ونزلوا في بيتي وإهانتهم إهانة لي فلا تتعرضوا لهم بسوء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي واتقوا عذابه على بغيكم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تهينوني بالتعرض لمن نزل بيتي.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي إيواء أحد منهم ومنعك لنا عن التعرض لهم ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي نساؤكم اللاتي في إدارتكم وهن كبناتي بالنسبة

إلى مقام رسالتي، أو نساء القوم اللاتي يمكن تزوجهن بسهولة وهن كبناتي، أو بناتي الموجودات عندي إذا رغبتم في نكاحهن ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شيئاً أقولُ لكم ويرضى به الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قَسَم من الله تعالى بحياة النبي ﷺ على أنهم، أي الطغاة، من قوم لوط عليه السلام منهمكون في غوايتهم وضلالتهم يتحيرون بحيث لا يُصْغُون إلى نصيحة الناصح أيّاً كان.

والذي ظهر من الروايات في الموضوع أن الملائكة الواردين على سيدنا لوط عليه السلام كانوا عبارة عن جبريل عليه السلام وجمع آخرين كانوا مأمورين بالنزول إلى بيت إبراهيم عليه السلام في قرية الخليل، ثم الذهاب إلى بيت لوط عليه السلام في سدوم على أربعة فراسخ من محل إبراهيم، ونزلوا على إبراهيم بعد نصف النهار وكان الوقت وقت الغذاء، فقدم إليهم عجلاً حنيذاً فأبوا أن يأكلوا منه، فأوجَس إبراهيم خيفة منهم فهدأوه وبشروه بالولد وولده، وودعوا مِن عِندِه، وجاؤوا إلى بيت لوط والوقت قريب من المغرب، فنزلوا عليه ولم يعرفهم لوط عليه السلام أول الأمر، وأظهر الخوف منهم، فأخبروه بالأمر الذي جاؤوا له، وأن يرتحل في آخر الليل مع أهله والمؤمنين معه، إلاّ امرأته. ولما علم قومه بنزول الضيف عليه أسرعوا إلى بيت لوط فاستقبلهم لوط عليه السلام وترجاهم أن يتركوا بيته وضيفه، فأبوا، فرجع لوط إلى بيته وسد عليهم الباب، ولما اقتحموا عليه الباب وأرادوا دخول البيت استأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبته فأذن له، فتحول إلى صورته التي يكون فيها، ونشر جناحيه فضرب بهما وجوههم فأعماهم، وطمس أعينهم حتى ساوت وجوههم، فصاروا لا يعرفون الطريق فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، في بيت لوط سحرة قد سحرونا. يا لوط سترى منا غداً ما ترى! ولما قرب الصباح ارتحل لوط وآله ومن معه من القرية إلى حيث أمرهم الله. ولما دخل الفجر حلّ الأمر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة هائلة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في شروق الشمس. والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والإنتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق. ومعنى أخذتهم الصيحة قهرتهم وغلبتهم وتمكنت منهم ودمرت بلدتهم. فأماتتهم وجعلتهم في أعماق الأرض المقلوبة إلى يوم البعث والنشور ومثواهم ملئت ناراً بدلَ النور. كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي فجعلنا أعالي الأرض أسافلها، فقلبت عما كانت ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين متحجر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الأمر الهائل وقلب

المكان بالقوم المتمرد الغافل ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لعلامات يستدل بها على مسؤولية الإنسان إزاء أحكام ربه. وإن سنة الله تعالى جارية بإهلاك القوم عند خروجه عن حده وأدبه تظهر تلك الآيات ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الناظرين من القرن إلى القدم، ويستقصون وجوه التعريف والتمييز لأهل اللؤم من الكرم. وإلا فغير المتفكر لا ينتفع من العبر ولو نزلت عليه كالمطر.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي مدينة لوط المقلوبة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي لفي طريق ثابت يسلكه الناس ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إن في إدراك ذلك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله ﷺ.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ كلمة إن مخففة من المثقلة، والأيكة في الأصل الشجرة الملتفّة واحدة الأيك. والمراد بها غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار. وأصحاب الأيكة قوم شُعيب من نسل مدين ابن إبراهيم الخليل عليه السلام. بعث الله إليهم شعيباً وكانوا يخسرون في المكيال والميزان، فنصحهم ولم تفدهم النصيحة. والمعنى لا شك أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين أنفسهم بالمعصية وأنفس الناس بالخيانة في معاملاتهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي جازيناهم على جنايتهم السابقة وبعثنا عليهم ناراً في غمام مطبق، فأهلكتهم في يوم الظُّلّة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي وإن مَحلّي قوم لوط وقوم شعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لفي طريق واضح تَمُرون بهما في أسْفارِ التجاراتَ إلى الشام ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهم قوم ثمود والحجر وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنون به.

قال الراغب يسمى ما يحيط به الحجارةِ حجراً. وبه سُمي حجرُ الكعبة وديار ثمود.

وقد نهى ﷺ أصحابه ﷺ عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أن يكونوا باكين حَذَراً من أن يصيبهم مثلُ ما أصابهم كما في صحيح البخاري وغيره. وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن الناس عام غزوة تبوك استقوا من مياهِ الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها، ونصبوا القُدور باللحم فأمرهم النبي ﷺ بإهراق القدر، وأن يعلفوا الإبل العجينَ، وأمرهم أن يَستَقُوا من البئر التي كانت تَرِدُه الناقة هذا.

وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث بطريق دليل العكس أن البقاء في موارد *أهل العلم والدين والإحسان مبارك ومرغوب فيه، لأن آثار الرحمة ليست أقل* من آثار النقمة. فكما يبقى شؤم محل الظلم وديار الفساد كذلك تبقى ميمنة ديار الخير والرشاد. وذلك على غرار قوله ﷺ: «**أرأيتم لو وضعها في حَرام أكان عليه وزر؟** قالوا: نعم. قال: **فكذلك إذا وضعها في حلال كانَ له أجْراً**» وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مع أن من أرسل إليهم هو سيدنا صالح لأن من كذّب رسولاً فكأنما كذب رسلاً، وذلك لأن الهدف واحد وأسباب الإثبات من قبيلة واحدة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ من الناقة المخلوقة من الصخرة وسقيها وشربها ودرّها. وقد روي أنه كان لسيدنا صالح ﷺ معجزات كثيرة غير الناقة ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي أصحاب الحجر ﴿عَنْهَا﴾ أي عن قبول تلك الآيات ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ حال كونهم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الإنهدام، وهجوم الأعداء، وتخريب المخالفين لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ حال كونهم داخلين في الصبح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من نحت البيوت وإتخاذ الملاجىء الحصينة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا خلقا متلبساً بالحكمة بحيث لا يُلائمه ولا يناسبه استمرار إفساد الطغاة البُغاة على الحق ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي يوم البعث والحشر والميزان والحساب والثواب والعقاب ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ بلا شك وشبهة ﴿فَٱصْفَحِ﴾ عن الكفرة ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الخالي عن عتاب من الله يرد عليك ومن محبة لهم ترجع بالوبال عليك. والصفح الجميل: ما خلا من العتاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لكل موجود ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال كل ما دخل في الوجود، ولا يهمل حق العابد ولا المعبود.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ

أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ والقرآن العظيم يعني آتيناك ووهبنا لك من رحمتنا وأنزلنا إليك من مخزن لوحنا المحفوظ سبعاً من الآيات القرآنية التي تحتوي على مجمل جميع ما في القرآن الكريم، وهي سورة الفاتحة وتسمى بالسبع المثاني، لأنها سبع آيات بالإتفاق إلا أن منهم من عد البسملة آية منها دون أنعمت عليهم ومنهم من عكس. وتكرر في جميع الصّلوات والمثاني جمع المثنى بمعنى المكرر أو لأنها نزلت مرتين، إن صح ذلك مرة بمكة حين فرضت الصلاة، وبالمدينة حين حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وقوله تعالى ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إما المراد به نفس الفاتحة فيكون بياناً لصفة ثانية للفاتحة: الأولى السبع المثاني، والثانية القرآن العظيم. ووجه عظمتها اختصاصها بالتكرار في أحد أركان الإسلام أعني الصلاة، أو احتواؤها على إجمال جميع القرآن الكريم. وإما المراد به كل القرآن فيكون ذكره من ذكر الكل بعد الجزء كما يقول القائل مدحت عيون حبيبتي وشخصها. وإذ قد خَصَّصْناكُم بهذه المنحة العجيبة العظيمة التي لا مثل لها ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الكفرة كاليهود والنصارى والمشركين ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث إنهم لم يؤمنوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لهم وارفق بهم. وَأَصْلُ ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بَسَطَ جناحيه له. وحكى بعض في سبب نزول الآية أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البرّ والطيب والجواهر. . . فقال المسلمون: لو كانت لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى. فنزلت فكأنه سبحانه وتعالى يقول: قد أعطيناكم سبعاً من الآيات هي خير من تلك القوافل السبع ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي المنذر من الله تعالى الموضح والكاشف لنزول عذابه على من لم يؤمن به، وقوله تعالى ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم

فالجار والمجرور وصف لمفعول النذير أقيم مقامه. والمقتسمون هم الرجال الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة المكرمة أيام المواسم لينفروا الناس الواردين عن اللقاء بسيدنا محمد ﷺ وعن الإيمان به فأهلكهم الله تعالى يوم بدر.

ولا يقدح في صحة التركيب كون الإنذار من الرسول ﷺ وكون العذاب المشبه به من أفعاله تعالى لأن الرسول لما كان رسول الله وأوامره أوامر الله وإنذاراته لهم جاءته من الله.. فكأنه من أهل إنزال العذاب أيضاً كما أنه لا يضر بصحة المعنى كون العذاب المشبه به غير واقع بعد، لأن الآية مكية ونزول العذاب بالمقتسمين كان في بدر بعد الهجرة لأن المستقبل المحقق كالماضي الفائت والحال الحاضر. والمقتسمون هم أبو جهل، والوليد بن المغيرة المخزومي، وحنظلة ابن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة... وسائر أصحابهم الذين قُتلوا يوم بدر. وعِضينَ جمع عِضَةٍ، وأصلها عِضَوٌ حذفت الواو وعوض عنها تاء التأنيث. أي جَعَلوا القرآن أجزاء وأعضاء عديدة يؤمنون ببعض منه مما يوافق طبعهم ويكفرون ببعض آخر منه وهو الذي يخالفه. أو لأنهم وصفوه بصفات متخالفة، فمنهم من يقول: إنه سحر، ومنهم من يقول إنه قول كاهن، ومنهم من يقول إنه قول مجنون يتكلم بما لا يقصده إلى غير ذلك من الأوصاف...

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيمات حيث اقتسموا أعتاب مكة وأنقابها وفِجاجها. ويقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الرجل الذي خرج عن عادتنا وتقاليدنا، ويدعي النبوة إلى التوحيد فإنه مجنون. وربما قالوا ساحر، وربما قالوا كاهن. وسُمُّوا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق فأماتهم الله شر ميتةٍ. وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً على باب المسجد فإذا سألوه عن النبي ﷺ قال صَدَق أولئك الناقمون عليه. أو مما كانوا يصفون به القرآن الكريم من الصفات الذميمة أو من كل ما فعلوه من طرق العناد مع الرسول ﷺ وأصحابه، أو من كل ما فعلوه من الكفر والمعاصي أي الأمور الفاسدة الإعتقادية والعملية. ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي اجهر بما تؤمر به، وأعلنه على رؤوس الأشهاد، من صدع بالحجة إذا تكلم به جهاراً، أو فرق ببيان القرآن الذي أُمرت بتبليغه بين الحق والباطل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تهتم بهم، فإن أجوافهم خالية وأحرفهم بالية، وإن كانت أصواتهم عالية. فعما قليل تخمد نارهم ويخلد عارهم ولا يؤخذ ثارهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بقمعهم وإهلاكهم ومنعهم عن استمرار الإفساد

وهم خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المُغيرة، والعاص بن وائل، وعديّ ابن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب. وكل منهم أصيب بداء عضال مات به والحمد لله. و﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ما ينالونه من العقاب الصارم الخالد ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من شتى الكلمات القادحة في الله تعالى وفي كلامه وفي رسوله وفي شريعته التي جاء بها ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فافزع إلى الله في دفع الشر عنك وكشف غمك وشرح صدرك وظهور نصرك بالتسبيح والتحميد، فإنه يكفيك شر كل كفار عنيد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي من المصلين الذين أقرب أحوالهم من الله أن يكونوا ساجدين لأنهم يضعون أشرف أعضائهم على أدنى الأماكنِ التي تطؤها الأقدام إعزازاً للّهِ العلام. وكان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر فزعَ إلى الصلاة. وقد قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ واثبت واستقم على عبادة ربك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموت، فإنه أمر متيقن لا شبهة في عروضه لكل حيّ. أو فاعبد ربك حتى يأتيك العلم اليقين بما نهدد به المشركين المستهزئين من الهلاك والدمار في بدر وحنين وسائر الديار. وهذا الخطاب وإن كان متوجهاً إلى حضرة الرسول ﷺ لكنه يُرادُ به خطابُ كل مؤمن لوجوب ثباته على اعتقاده وأعماله حتى يأتيه الموت، وبالنسبة إلى غيره ﷺ يجوز أن يقال واعبد ربك حتى يزداد إيمانك ويصل اعتقادك إلى مقام اليقين الذي لا مقام فوقه.

سورة النحل

مكية، وهي مائة وثمان وعشرون آية
نزلت بعد سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال المفسرون: كان المشركون يستعجلون نزول العذاب الذي أوعدهم الرسول ﷺ به فأنزل الله الآية. أي إن نزول العذاب المنتظر محقق لا شك فيه ترونه عاجلاً أو آجلاً، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خلاص لكم منه إذا نزل ولا خير لكم فيه. ولما كانوا يقولون إن نزل العذاب الموعود علينا فرضاً فلنا شفعاء من الشركاء يخلصوننا منه قال الله سبحانه ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ جل جلاله عن أن يكون له شريك فيدفع عن الكافرين ما نزل عليهم منه. ولما كان إنكارهم لنزول العذاب متفرعاً عن إنكار رسالة الرسول ﷺ وصِدقهِ في دعوى الرسالة قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي إن الله تعالى قادر يقتدر على تنفيذ كل ما أراده وأنه ينزل الملائكة المأمورين عنده بالوحي الذي هو كالروح للأجساد، وذلك الروح ينزل بسبب أمره بنزوله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ الأنبياء الذين خصّهم الله تعالى بهذه المواهب الجليلة ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أي بأن أنذروا الناس بـ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا واجب في الوجود ولا خالق ولا معبود ﴿إِلَّآ أَنَا۠﴾ لا شريك لي ذاتاً وصفةً وفعلاً ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فاحذروا مخالفتي عن أي شيء مما لا أرضى به.

ولمَا جعل مناطَ الإنذار ومدار الإعتبار هو نشر كلمةِ التوحيد وحصر العبادة فيه.. استأنف ببيان خلق السماوات والأرض الدال على استحقاقه للعبادة، وأن لا شريك له فيها، فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقا متلبساً بالحق فأوجدهما على مقدار محدود وأشكال وآثار وصفات مختلفة خصصها بها بمحض إرادته المرجحة لها بالوجود. و﴿تَعَٰلَىٰ﴾ وتبارك ذلك الخالق المبدع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إحتياجه لما يشركونه له فلم يفتقر، لا في خلقها وإبداعها، ولا في تخصيصها بصفاتها، ولا في إبقائها إلى شريك له يعاونه فيها، لأن القدرة الإبداعية لا تقبل أي إضافةٍ وانضمامٍ لغيرها إليها لكفايتها في تنفيذ ما شاء الله.
وكما خلق السماوات والأرض وعمرهما خلقَ الإنسان الذي هو أشرف الموجودات المفيدة للفضائل العلمية والعملية من نطفة أمشاج خلقها أطواراً من المائية فالدموية فالمضغية فسائر الأطوار الأخرى الملحقة بما تقدم.. حتى صار إنساناً سوياً قوياً قادراً على اكتساب الفضائل من شتى الوجوه، فمنهم من اختصه برحمته وجذبه إلى حضرة قدسه بحكمته، ومنهم من تَدَهْوَرَ بدَلَ أن يتطور إلى الإتصاف بكمال الإنسان، فاتصف بمبادىء النقصان ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ للحجة، أو خصيم مكافح قائلاً من يحيي العظام وهي رميم؟

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ الأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز. ولا يقال لها أنعام إلا إذا كان فيها إبل. وهو منصوب بفعل مضمر يفسره قوله تعالى ﴿خَلَقَهَا﴾ وهذا التركيب أرجح من رفعه على الابتداء لتتناسب مع الجملة الفعلية السابقة ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي ما يدفأ به فيحفظ من البرد ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي نسلها ودَرُّها وظهورها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي تَرُدُّونها مِن مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي تخرجونها

بالغداة إلى المراعي. وهذه نعمة دنيوية، وقد تنقلب نعمة دينية لمن يريد اقتناءها لمنفعة المسلمين ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي أحمالكم الثقيلة. والحامل منها الإبل والثور ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ أي بمشقة الأنفس وتعبها ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك خصكم بهذه النعم المفيدة من شتى جهات الإفادة ﴿وَالْخَيْلَ﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل. وذكر الراغب أنه يطلق على الأفراس والفرسان ﴿وَالْبِغَالَ﴾ جمع بغل ﴿وَالْحَمِيرَ﴾ جمع حمار، ويجمع في القلة على أحمرة وفي الكثرة على حُمُرٍ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ أي خلقها لكم لتركبوها ﴿وَزِينَةً﴾ أي ولتتزينوا بها زينة. أو مفعول به لفعل محذوف أي وجعلها زينة لكم في حياتكم الدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بيان لكثرة مخلوقات الله تعالى بحيث يفوت نطاقَ البيان في التعبير عنها، فمنها ما في البراري والجبال والوديان والكهوف والبحار مما يمكن تربيتها والاستفادة منها. ومنها ما ليس كذلك. أو إيماء إعجازي لما خلقه الله في عالمنا من السيارات والطيارات والغواصات البحرية والنهرية والمكائن والأجهزة المستعملة في الحرث والحصاد والتصفية والتنقية، والآلات المستعملة في استخراج المعادن والمياه الجوفية... وغير ذلك فإن كلها تحصل من المواد المخلوقة لله تعالى بلا شبهة من أهل العقل السليم. وهذه الجملة على غرار قوله تعالى في سورة (يس) وخلقنا له من مثله ما يركبون. فكل ذلك من مخلوقات الله تعالى لأن أجزاءها التكوينية من المعادن والبخار والهواء والأثير والوقود. كلها من خلقه تعالى. وكذلك إنشاء تفكير الصنع وتركيبه ونفس الصانع لهذه الأشياء أو المخترع لها من مخلوقاته تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والقصد بمعنى القاصد أي المستقيم، والسبيل هو الطريق، فالإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي وعلى الله بيان الطريق المستقيم وهو الشرع المبعوث به الرسول الكريم، لأن الله هو الحق ويهدي المكلفين إلى الحق. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي ومن السبل سبيل جائر منحرف عن الحق إلى الباطل، وهو ما اتخذه أهل الضلال من طرق عبادة غير الله سبحانه من الكواكب والأشجار والأحجار والحيوانات.. وغير ذلك. ومعنى قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ هو الإستقرار والبدء أي هو يبدأ بتشريعها، ويستقر هذا الأمر عليه فضلاً ورحمة لا وجوباً منه أو عليه، لأن الله سبحانه مختار في كل فعل من أفعاله تعالى. والحاصل أن الله تعالى بين طَريقَ

الحق وأرشد الناس إليه فمنهم من سلك فيه حتى وصل إلى ما يبتغيه، ومنهم من لم يسلك فيه فهلك فيما يرتئيه، لا يجب على الله تعالى خلقُ الإهتداء القسرى فيهم، وإلا ما كان للثواب والعقاب طريق مع أنه تعالى قادر على كل شيء ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكن لم يشأ ذلك لأنّ مشيئته تابعة للحكمة، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن المدار للتكليف هو الاختيار لا القسر والإجبار.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا
يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم﴾ شروع في بيان نوع آخر من النعم الدالة على توحيده تعالى يعني هو الخالق المنفرد بالتأثير الذي أنزل من السماء من نفسها أو من السحاب ماء لانتفاعكم ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي بعض منه شراب تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي ومن ذلك الماء أو بعض ذلك الماء نبات ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي تَرْعَونَ مواشيكم ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ من الأقوات وغيرها ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي فيه منافع كثيرة في نفس ثمرها وعصارتها ﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ الذي يتكفل حياة القوم ﴿وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ التي يتفكّه بها ويجعل منه الزبيب والدبس وسائر ما يستحصل منها ﴿يُنۢبِتُ﴾ لكم به ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أعم مما ذكر وغيره لو استقصيته لمللت دون الوصول إلى منتهاه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أنّ الجنّة كيف خُصّت بأن تكون أساساً لاستمرار نوع الشجرة إلى الأبد.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي وسخر لكم المتحرك الذي من شروقه وغروبه يحصل الليل والنهار ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي وسخر لكم الشمس والقمر، إذا كانا متحركين في السماء فقد سخرهما للحركة المدورة الدائمة المستمرة التي يحصل منها الليل والنهار، وإن كانا ساكنين فقد سخرهما للبقاء في محلهما. والمقرر اليوم[1] هو أن الشمس مسخرة للسكون والأرض والقمر وسائر الكواكب للحركة اليومية حول أنفسها، وللحركة السنوية للأرض حول الشمس والقمر حول الأرض، ونسمع اليوم من بعض الناس أن الفلكيين اكتشفوا أن للشمس حركة لنفسها ولمجموعتها التابعة لها جواً. ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مبتدأ وخبر، أي وسائر النجوم مسخرات بأمر الله تعالى لما خلق له والمقصود من ذلك أن كل ما في الوجود من المحسوس المشهود شيء مسخر بأمر المعبود فوظيفة الخدمة والسجود لمن له العزة فتعالى وتبارك الملك المعبود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ باهرة ظاهرة على أنها ممكنات حادثة، وحدوثها كان بأمر الله تعالى وتلك الآيات ثابتة أو مفهومة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ ولا يغفلون ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وخلق ما نشر لكم في الأرض ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ من حيوان ونبات ومَعْدَن وسائر ما يتفرع منها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتفكرون في أن اختصاصها ببعض الجهات والأمكنة والأزمنة والأحوال ليس إلا بإرادة الفاعل المختار رب العالمين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ فجعله هادئاً بحيث يغوصُ فيه الغواصون ليُخرجوا منه الأسماك وسائر الحيوانات الناعمة ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ طريفاً ظريفاً نظيفاً ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ من اللآلىء وسائر المواد المضيئة بحيث تتزينون بها و﴿تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مقبلة ومدبرة وقوله ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ عطف على تستخرجوا، وما عطف عليه وما بينهما اعتراض، أي ولتبتغوا بالسير فيه ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من رزقه الواسع ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ على تلك النعم ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي وأثبت في أعماق الأرض جبالاً رواسي ثابتة فيها ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي كراهة أن تميل بكم الأرض في سيرها ودورانها، أي جعلها بحيث تعتدل بها أثقال الأطراف حتى تتحرك على المنهج المعتدل، ولا تنحرف يمنة ويسرةً ككُرة نصفها حديدٌ ونصفها خَشَب ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ أي وألقى فيها أنهاراً

(١) علماً بأننا نؤمن بجريان الشمس على ظاهر الآية.

وسبلاً، وجعلها طرقاً لمقاصدكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى ما تريدونه من المنازل والمقاصد ﴿وَعَلَامَٰتٍ﴾ أي وجعل لكم معالم يستدل بها أهل العقل والمعرفة من العوام والخواص حسب مستوياتهم المختلفة، فمن الناس من يستدل بمطلع الشمس ومغربها أو بمطلع القمر ومغربه، ومنهم من يستدل بالجبال وبحركات الأنهار، ونبتت النباتات والأشجار وروائح الأرض، ومنهم من يستدل بالخطوط الطولية والعرضية وبحسب ما وجده من طول النهار وقصره. فيستدل بذلك على خط السير نحو الشمال أو الجنوب والمشرق أو المغرب، أو يستدل بها على أوقات الليل والنهار ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في البر والبحر وقت الليل. وكانت تلك المعالم سابقاً غير مضبوطة ولا محدودة، واليوم وصل العلم إلى درجة ضبط الأوقات بأجزاء الثواني، وضبط حرارة المنطقة وبرودتها وعروض الرياح والأمواج الباردة والحارة، وأوقات الزوابع.. وظاهر الآية الإهتداء بجنس النجم أياً كان. ولا مانع من أن يكون بعض النجوم أنفع وأوسع في الإهتداء من بعض فإن نجم الجدي وهو أصغر الكواكب من بنات النعش الصغرى الواقعة شمالي أفقنا يستدلّ به للشرق والغرب وإتجاه سمت القبلة. ففي العراق إذا وقفت بحيث تراه وراء الأذن اليمنى عند الإلتفات فذلك الموضع موضع اتجاهك للكعبة المشرفة، وفي الشام يكون وراء الرأس، وفي اليمن يكون أمام وجهك، وفي مصر يكون في المشرق منك، وكذلك يستدل بها لاختلاف الفصول والمواسم، فكلما طلعت الشعرى كان دليلاً على حلول وقت البرودة بالليل ثم انطفاء حرارة النهار. ومنهم من خص الثريا والفرقدين وبنات نعش. ولكل وجهة.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أي أفمن يخلق ما ذكر من النعم التي عمت الإنسان أو يخلق كُلّ شيء أراده ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً جليلاً أو حقيراً؟ والجواب: كلاّ. فإن الفرق بين المعدوم والموجود بأن الأول لا يكون أو ليس بكائن حتى يحصل منه أثر، والثاني كائن ومبدأ للآثار بديهي لا ريب فيه. وكذلك الفرق بين موجود لا يحصل منه أثر وموجود تحصل منه الآثار واضح ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ ذلك حتى لا تبقى لكم شبهة في أنّ الله هو الخالق المعبود والمالك، وأن غيره مخلوق هالك. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فإن تعدادها فَرعٌ عن العلم بأعدادها، ولا علم بها إلا بشيء قليل مما نشاهده فينا وفي غيرنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يستر كفركم لِنِعمِهِ و﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث لا يستعجلكم بالعذاب عليه. أو لا يمنعها عنكم مع قصوركم عن

شكرها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ من إضمار ما لا يوافق رضاء الحق ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ من إشراك الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شروع في إثبات أن آلهتهم المزعومة معزولة عن استحقاق العبادة، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ ومن لا يخلق شيئاً ليس قابلاً للعبادة، لأن العبادة تذلّل وخضوع، ولا يصح ذلك إلا للخالق العزيز الحكيم. ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ أي الذين يُدْعَوْنَ من دون الله أموات لا حياة فيها غير أحياء. وفائدة ذكره التنبيه، على أنّ بعض ما لا حياة فيه قد تعتريه الحياة كالنطفة والمواد الغذائية. وتلك الأصنام كما لا حياة فيها ليست قابلة لعروضها عليها. ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي ما يشعر أولئك الأصنام أيان يبعث الذين يعبدونهم. فعجبٌ أن يعبد الإنسان الذي يدّعي الشعور بالأشياء شيئاً جامداً هامداً لا شعور له بنفسه ولا شعور بغيره! فانتبهوا أيها الناس وابتعدوا عن هذه الجهالات والضلالات ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ واجب الوجود قديمٌ لا أول له، باق لا نهاية له، واحد لا نظير له، قائم بذاته لا حاجة له إلى ما سواه، مخالف لغيره بذاته وصفاته، حي، قيوم، عليم، سميع، بصير، قادر، مريد، متكلم مع رسله بتشريع سُبُله ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وأحوالِها وأهوالها ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ لذات موصوف بالكمال منزه عن النقص ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن قبول دواء نافع يتداوون به لجهلهم وإنكارهم للحقائق واستكبارهم عن قبول الحق. وذلك غاية في حمقهم. ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حَقّ وثبت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن الإنكار ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ من الإستكبار، فلا ينظر الله إليهم ولا يحبهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾.

وفي لا جَرمَ أقوال: منها أنه اسم مركب مع لا تركيب خمسة عشر وبَعْدَ التركيب صار معناه حق، وما بعده مرفوع على الفاعلية له. ومنها أنه مركب كلا رجل وما بعده خبر، ومعناه لا محالَةَ. وقيل: معناه لا صَدَّ ولا مَنع. وجرم اسم لا

بمعنى القطع، وأن وما بعدها خبر حذف منه الجار أي لا منع في أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنها غيرُ ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ أي وإذا نزلت آية من آيات الله تعالى في شأن من الشؤون، وقيل لأولئك المستكبرين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ استكبروا واستنكروا الحق، ﴿وَقَالُواْ﴾: الذي نزل هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني ما كتبه الأولون من شتى جهات الحياة، ويُملى على هذا الرجلِ ويَنشُره بدعوى أنه آية من آياتِ الله، فيأتون بهذا الجمود والجحود عناداً وعتواً، ولا يعرفون أن الأساطير لا تخرج عن نطاق بعض أشياء اعتيادية، وإذا كانت لها قيمة فهي محدودة وأما هذه الآيات المنزلة ففي ألفاظها براعة وفصاحة وسماحة، وفي معانيها بلاغة وعُلُوٌّ على مراتب الجمال من مطابقة المقام والحال، وفيها أحوال ما وراء الطبيعة، وفيها أمورٌ علمية لا يعلمها إلا الراسخون، وفيها تنظيم لحياة السعادة، وبيان شؤون العبادة، وطريق معيشة البشر بكرامة، وتنويرُ القلوب بتزويد العمل زاداً ليوم القيامة. وقالوا ذلك ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بسبب فساد اعتقادهم وأعمالهم ﴿و﴾ يحملوا ﴿مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ بهذه الإضلالات الجامدة الهدامة حال كون الذين يضلونهم متلبسين ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عندهم حتى يميزوا به بين الصالح وغيره وشر التعليم وخيره ﴿أَلَآ﴾ أيها العقلاء ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ساء ما يحمله أولئك المستكبرون المضللون.

وليس هذا أوّل قارُورة كُسِرت في العالم بل ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

كقوم عيسى وموسى وَمَنْ سبقهما من الرسل فأتوا بما في إمكانهم من المقَالات والمعاول الهدامة للدين ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي فأتى اللّهُ ودمَّرَ أعمِدة بيوتهم التي بنوا عليها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ إذ لما انقلع الأساس وتدمرت القواعد انهدم البناء، وما بقيت لها فائدة من الفوائد ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه منه، بل كانوا يتوقعون تدمير مقابليهم وتعمير موافقيهم ومقاوليهم. فجاء الله بضد ذلك. هذا في الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يذلهم ويحقرهم ويعذبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ﴾ الرسل وتنازعونهم ﴿فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون الذين أتوا العلم بدلائل التوحيد أو الملائكة الحاضرون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ حال كونهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ باستمرارهم على الشرك والمعاصي ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي فأظهروا خُضُوعهم واستسلامهم لله حيث لم يبق عندهم معذرة يعتذرون بها ولا قوة يقتدرون بها. وأصل الكلام وألقوا السلاح أمامَ الغالب شعاراً للسلم والطاعة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ يعني أنا لما عملنا ما عملناه في الدنيا وارتكبنا ما ارتكبناه فيها اعتقدنا أن ما فعلناه عَمَلُ خير لا فساد وسوء، والآن وقد تبين الأمر وحصحص الحق فنطلب العفو السماح، فيأتي عليهم الرد من جانب الباري جل شأنه أو من جانب الملائكة المأمورين هناك ﴿بَلَىٰٓ﴾ فعلتم ما فعلتم وأنتم مستكبرون ومنكرون ولا ينفعكم هذا الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم، وهذا اليوم أوانه ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي مأواهم ومنزلهم الحقير جهنم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ بيان لمقابل ما ذكره، يعني قد علمتم الجواب من الذين استكبروا عن الذي أنزل الله، وأما الذين اتصفوا بالتقوى فإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أَنزَلَ خيراً. روي أن قبائل العرب كانوا يَبْعثونَ في أيام مواسم الحج مَنْ ينظر في الأحوال ويأتيهم بأخبار الرسول ﷺ فإذا جاء الوافد المستكبرين المقتسمين من صناديد قريش وسألهم: ماذا أنزَلَ ربكم؟ قالوا أساطيرُ الأولين. وإذا جاء إلى المؤمنين وسألهم أجابوهم بأنه أَنْزَلَ خيراً حتى يكون الجوابُ موافقاً للحق من جهةٍ وترغيباً للوافد وأهله في اعتناق دين الإسلام المبين. ومقصودهم من قولهم أنزل خيراً أن الله تعالى ترحم على عباده، وبعث إليهم رسولاً جليلاً، وأنزل عليه كتاباً مبيناً يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، يهديهم إلى التوحيد والإيمان بالله المجيد ورسوله وما جاء به حتى يكون لهم نظام مبارك يمشون عليه ويفوزون به بسعادة الدارين.

وقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ بيان من الله تعالى لجزاء جواب أولئك المتقين المجيبين على الواقع فيقول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ وأتوا بالأقوال الصادقة والأعمال الصالحة المبنية على الإعتقاد بالله تعالى ورسوله وما جاء به من عند الله تعالى ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وهي بشارة واطمئنان روحي ونشاط نفسي واعتماد على الله في كل الأمور فإذا جاءتهم حسنة شكروا الله عليها، وإذا جاءتهم سيئة صبروا. وأما في الآخرة فجزاؤهم أحسن ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ولثواب دار الآخرة خير من جزاء دار الدنيا بدرجات. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي دار الآخرة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ومن النعيم واللذات المحترمة المشروعة ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ﴾ أي المتقين الذين ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتتسلم أرواحهم حال كونهم محفوظين ﴿طَيِّبِينَ﴾ من نجاسة الفسق والمعاصي وقبائح الأعمال، ومزينين بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يأتيكم بعد اليوم مكروه ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي أعدها الله لكم جزاء ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مخلصين لله.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم أو لإنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي بقيام الساعة ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين كانوا قبلهم ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ جزاء ما عملوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ﴾ إذ عاملهم بما يستحقونه ﴿وَلَٰكِن

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي جزاء ما عملوا من السيئات ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من العذاب ولا يستهزأ بعذابٍ استهزىء بهِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي واستدل المشركون عند إنزال الحجة بما تَعوّدوا عليه مِن قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم الضالة المشركة، واستدلوا بمثل هذا الدليل ولكنهم لا ينفعهم هذا الدليل العليل، ولا تفيدهم هذه الشبهة الواهية، لأن كل من يؤمن بصانع العالم الحي القيوم يعلم أن جميع الممكنات تحت مشيئته، ولا يجزي في ملكه إلاّ ما يشاء، وأنه لو شاء الله إيمانَ جميع الكفار لآمنوا لأنهم تحت الأمر وفي مجرى السيطرة والقهر، ولكن لم تجر سنةُ الله تعالى بإلجاء الناس إلى الإيمان والأعمال الحسنة، لأن الإلجاء يخرج المُلْجأ عن دائرة التكليف، ولا يخلي له كل شيء يناسب التشريف، بل السنة جرت بتكليف جميع المكلفين بعد تزويدهم بالعقل والعلم وبعث الرسل وبيان السبل، فمن اختار الحق والهدى اهتدى، ومن اختار الباطل والضلال تردى، حيث ضيّع ما عنده من الإستعداد لقبول الرشاد، ثم قولهم ذلك وحجتهم هذه ليس عن علم بجريان المشيئة السابقة، لأنه لا علم لهم بها، بل من شؤم ضلالاتهم وجهالاتهم اللاحقة؛ لأنه بعد العتو والعناد، وترك طريق الرشاد، وما آلت إليه القلوب من

الفساد، يتمسكون بمشيئة رب العباد. وهذه شبهة كل جاهل عاطل لا يحصل من حياته على طائل، فإن تبعية المشيئة حَقَّ الإتّباع هي أن يعرف التابع بها قبل أن يبدأ بالعمل فيعمل بما شاءه عز وجل. ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ المأمورين بتبليغ الرسالة ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؟ والإبلاغ؟ وقد فعلوا ما كلفُوا به، وسيعلم الناسُ كلهم من المُشرف بالإطاعة ومن المحقّر والمخفف بالإضاعة يوم يجري الحساب بين يدي رب العالمين.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾ من الأمم السابقة ﴿رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الداعي إلى الضلالة من الإشراك وسائر المفاسد ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي هداه الله إلى الحق واجتناب الطاغوت بحسن إستعداده واختياره الحسن، وتوجهه إلى ما يليق بإطاعة صاحب الملك والملكوت ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ لاختياره طريق الجهالة، فأهلكناهم بذنوبهم ودمرناهم، فإن لم تعلموا ذلك ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض عادٍ وثمود ونمرود ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ إلى آثار بلاد أهل الجحود حتى تشاهدوا فتشهدوا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فقد سبق الأمر وتحقق الخبر وانتهى الأثر ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ وتلك أحوالهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ أي من يضله لسوء أفكاره وآثاره ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم في قلب الدين وأوامر رب العالمين ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾أي وحلفوا أيماناً جهدَ الأيمان ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ﴾ إنه يبعثهم جميعاً فإنه وعدهم بالبعث ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنه وعدهم ويبعثهم لجهلهم بشؤون رب العالمين. وإنما يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من البعث والجمود من الحساب والجهود ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله المعبود ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ فيخزون في اليوم المشهود وقصارى ما وصلوا إليه من وسائل إنكار البعث إستبعاد إعادة الحياة إلى الموتى ولا يعلمون أنه لا صعب علينا ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ أي أردنا خروجه من القوة إلى الفعل ومن الصورة العلمية إلى الصورة العينية ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ موجوداً عينيا ﴿فَيَكُونُ﴾ إياه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ

﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾
أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن
شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ
رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي والمؤمنون الذين هاجروا من ديارهم في سبيل إعلاء كلمة الله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ من جانب الكفار بإزعاجهم وإخراجهم عنها ظُلماً ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ﴾ أي مَباءَةً واستقرارةً حسنة فالدار تبدل بالدار والرائد رضا الجبار ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ﴾ مما اسْتُعجِل لهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أولئك المؤمنون المهاجرون لفرحوا بهجرتهم. أو لو كانوا يَعْلمون أي أولئك الكفار المُخرِجُون لهم عن الديار بما نال المهاجرون لكانوا معهم في الدين ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بَدَل من الذين سابقاً أي صبروا على ما نالهم من الظلم ولم يتندموا عن ما فعلوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إليه، أو خبر مبتدأ محذوف. وما نقموا به عليك من كونك رجلاً منهم ليس محل النقمة أبداً فإن ذلك جارٍ على سنتنا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثال أفراد قومهم في أكلهم وشربهم وقيامهم ونومهم... وفي سائر مقتضيات الطبيعة البشرية من الأعراض والأمراض لكننا ﴿نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ من فضلنا، ونخصهم بالإيحاء إليهم، وهذه رتبة عالية سنية ومزية بشرية عليه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وجواب هذا الشرط ما تقدم إن جوز التقديم، وإلا فمحذوف يدل ذلك عليه وأرسلنا أولئك الرجال ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من المعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ والآيات والبينات للتصديق والآيات للتطبيق ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن الجامع لجانبي الإعجاز والتطبيق ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ والبيان بالنسبة إلى النصوص الواضحة هو التبليغ كما نزل، وبالنسبة إلى ما يحتاج إلى الإيضاح هو تفسيره وكشف الغطاء عنه بتخصيص العام، وتقييد المطلق، وإيضاح المجمل، ونسخ ما نسخ منه وغير ذلك ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الضمير راجع إلى الكفار،

والمقصود لتبين ما نزل لعل الناس الجاهلين المعاندين يتأملون بعقول صافية في تلك الحقائق ويؤمنون بها أو إلى الناس جميعاً، أي ليتأمل الكل فينال الكل نصيبه بحسب مستواه، فيهتدي الكافر إلى الإيمان ويزيد المؤمنون هُدىً بربهم ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من أهل مكة الذين مكروا بك ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كجهة مأمنهم أو جهةٍ لا يتصور مجيء العذاب منه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ يمنة ويسرةً، فإن عذاب الله لا يحتاج إلا إلى آن النزول ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؟ وفائتين من الله بالهرب فلا ملجأ من الله إلا إليه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي على حين مخافة وحذر من الله تعالى بأن يهلك قوماً قبلهم فيخافون من نزول العذاب عليهم كما نزل على تلك الأمة السابقة لوجود العلة فيهم أيضاً، أو يأخذهم على تَنَقُّصٍ من نفوسهم وأموالهم ووسائل معيشتهم شيئاً فشيئاً، فإن الناس إذا أتاهم نقص في النفوس ثم في الأموال ثم في المقام والإحترام خافوا من هذا الترتيب في النقصان مآسِيَ وعقوباتٍ أخرى، فإن لم يأتهم بما يخافون منه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟ حيث لا يأتيكم بما تخافون منه.

ومما ينبغي أن يعلم أن ليس المراد من الآية الشريفة حصر أسباب هلاك القوم، لأن الأسباب لا تدخل في الحساب. وقد قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن من جنده الهجوم من الأعداء، أو نزول العذاب من السماء، أو حدوث الأمراض والوباء، أو الموت بالقحط والغلاء، أو بوقوع الفتنة بين الناس فيقتل بعضهم بعضاً، أو باجتياح الحشرات السامة أو السباع الضارية أو السيل والغرق والحرق أو الزلازل والبراكين وغير ذلك مما لا يكاد يحصى. ولكن الله تعالى أراد أن يهددهم بما سمعوا من المصائب الواردة على الأقوام المجاورة الساكنة في جزيرة العرب وحاصل ذلك إما عذاب الإستئصال أو لا، والأول قد كان بالبركان كما لقوم ثمود فخسف الله بهم الأرض، أو بالرياح المهلكة كما لقوم عاد. والثاني إما عند السفر إلى خارج البلد في الأعمال التجارية. وإما أتى عليهم في مساكنهم وأوطانهم من البلايا المهلكة للناس شيئاً فشيئاً لا مرة واحدة وهذا القسم أخفها كما ترى ولذلك عقبه بقوله الكريم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم إنه ليس سياق القرآن الكريم سياق الفلسفة الواردة المترددة بين النفي والإثبات حتى تتباين الأقسام. وعلى العموم بعضُها مع بعض لجواز اجتماع البراكين الأرضية مع نزول العذاب السماوي كأن يكون مع

البركان الخاسف للناس في الأرض نوازل سماوية تهلك المشردين من القوم في أطراف البلد كإمطار الحجارة مِن السماء على أرض ثمود التي تسببت في قتل ما بقي من أفراد القوم والأمر في رعاية ذلك سهل يسير.

ثم إن في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فوائد مهمة.

الأولى: إن الذين أرادوا إعلاء كلمة الله في الأرض وتسبب ذلك لهجرتهم وتركهم الديار وصلوا إلى السعادة الكاملة بالرفاه والراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة، بشرط مقارنة هجرتهم بالصبر وتحمل الأذى والأتعاب، فإن الصبر هي دعامة الوصول إلى السعادة.

الثانية: وجوب النظر إلى الرجال البارزين في العالم سواء كانوا من أهل الدين أو الدنيا نظرة واقعية، فإنهم لم يكونوا من النحاس ولا من الذهب، بل كانوا بشراً كسائر البشر، وكان لهم مناسبة مع سائر الناس في الهيكل والصورة، ولكنهم خالفوهم في السيرة وجهات الإختصاص في تلك الطبقة تميزهم عن سائر الناس بالأخلاق العالية من: الفكرة السليمة، والمشاورة، والإنتباه، وإعداد العُدّة، والنَظر إلى المستقبل، والإستقامة، والوفاء بالعهود والوعود، وسائر ما يتقدم به الإنسان على بني نوعه..

الثالثة: أن القادة هم أعلم بمبادىء النظام المقرر للحركة الدينية أو الدنيوية، ويجب مراجعتهم لشرح نصوص المبادىء في حياتهم ومراجعة من قام بأعباء مهماتهم بعد مماتهم.

الرابعة: أن الأمة كائنة ما كانت يجب أن لا تغفل في طريق سيرها عن العثرات والزلات، ومن أهمها الكفر لنقمة الله تعالى والتولي عن الحق، والتوغل في الشهوات، فإن الله لعباده بالمرصاد، وإن جنود الله لا تُعَدُّ ولا تُحصى فكم من أمة أتاها عذاب الله تعالى من حيث لم تتصور ورود ذلك العذاب عليها سواء كان العذاب عذاب الإستئصال أو عذاباً نزّلها إلى محل لا يليق بها حتى تزول عن مكانها ومكانتها. وأهم أسبابه البَطَر والغرور والكفرُ بنعم الله تعالى وتركُ ما استقر عليه كيانها أوّلاً. وفي ذلك كفاية لأهل العناية.

ثم نبه الله سبحانه وتعالى أولئك الكفار المبتعدين عن إدراك الحقائق بالقلوب

إلى إحساسها بالحواس يعني هب إنهم ليسوا من أهل العقول، أليسوا من أهل الحواس حتى يستعملوها في ما يفيدهم فائدة تخرجهم من العناد والإستكبار وترجعهم إلى إطاعة الملك الجبار، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أيَّ شيءٍ كانَ مِن الشواخص المادية المُظللة التي تُرى ظِلالُها عند ظهور الشمس على الأفق إلى غروبها عن الأفق المقابل حيث ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ أي ترجع وتميل ﴿ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ نحو الغرب إذا طلعت الشمس ﴿وَ﴾ عن ﴿ٱلشَّمَآئِلِ﴾ نحو الشرق إذا مالت نحو المغرب حال كون الظلال أو أصحابها ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي منقادة له جارية على ما أراد من الإمتداد والتقلص وغيرهما، غير ممتنعة عليه، أليس ذلك الوضعُ من ظهورِ الشمس وارتفاعها ووصولها إلى خط نصف النهار وميلها إلى المغرب؟ وأليست الشمسُ كوكباً نهارياً يستضيء أكثرُ من نصفِ الكرة الأرضية بنورها؟ أليست هذه الكرة وأمثالُها والأرض والأعيان والشواخص مسخرة بأمره تعالى أليست الكرة الأرضية تظلم بغيابها عن الأفق وتضيء بظهورها وطلوعها مرةً أخرى منه تعالى؟ وقوله ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ بوصف المذكر العاقل وضميره لمراعاة وصف السجود الذي لا يليق إلا بأهل العقل والإدراك والشهود لا بالحيوان الغير العاقل ولا بالجماد الواقع بلا إدراك للوجود. أي والظلال وأصحابها داخرون متصاغرون وأذلاءُ خاضعون لله الواجب الوجود الخالق لكل ممكنٍ موجود، المعبود بالحق لمن يتأتى منه السجود.

ثم نبه الباري تعالى على أن ليس السجود مختصاً بها، بل يعمها وغيرها وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أيَّةَ دابةٍ في الأرض أو البحر أو الجو أو السماء ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكائنة فيها أو في الأرض أو غيرهما ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته تعالى والسجود له ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي يخافون مالك أمرهم وخالقهم الغالب ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ واستيلاء الفوق والغلبة منه استيلاء على باقي الوجود ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وإذا أرجعنا الضمائر إلى العقلاء مما ذكر فالمعنى واضح، وإذا أرجعناه إلى الكل فمعنى الخوف وإطاعة الأمر الخضوع وعدم المعارضة لما يرد ويتوجه إليها حسب مستواها. واستدل بالآية على أن الملائكة مكلفون مُدارونَ بين الخوف والرجاء. أما دلالتها على التكليف فلقوله تعالى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وأما على الخوف فهو أظهر من أن يخفى، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له ولكنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ
٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ
إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥
وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦
وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ
هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ
ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ عطف على قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ الآية... فيقول ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي وحكم الله تعالى وقرر أن ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي فخافوني ولا تخافوا غيري. والفاء في قوله ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، وإيّايَ مفعول لفعلٍ محذوف يقدر مؤخراً يدل عليه فارهبون: أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارهَبوا. ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ وحده ﴿وَاصِبًاۚ﴾ واجباً لازماً لا زوال له ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب، أي أبعد ما تقرر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى، وكون ذلك كله له سبحانه، ونهيه عن اتخاذ الإلهين، وكون الدين له واصباً المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به تعالى تتقونَ غيرهُ؟!

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أيّ شيء يلابسكم من نعمة، أيّ نعمة كانت، فهي منه تعالى واعلموا أن منه تعالى لا مِن غيره ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي فإليه تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾ أي رَفع ما مَسَّكم من الضرّ ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي يتجدّدُ إشراكهم ويستمرّ ذلك ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ من نعمة كشفِ الضرِّ ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أمرُ تهديدٍ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم المزعومة ما لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون سبيلاً ﴿نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ من الحرث والأنعام وغيرهما، وهذا اجتراءٌ وافتراء على الغيب ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ

تَفۡتَرُونَ﴾ من قولكم بأنها آلِهة وأنها تُعبدُ وأن لها شأناً من الإختصاصات ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ أي يعتقد بعض من العرب المشركين وهم خزاعة وكنانة أن الملائكة بناتُ الله تعالى، وأطلقوا عليها اسم البنات لاستتارهن عن العيون كالنساء المخدرات ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى عما نَسبوا إليه حسبَ زعمهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وجعلوا لله البنات وجعلوا لأنفسهم ما يشتهونه ويحبونه من البنين.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنثى له ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا﴾ من الكآبة والحزن والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي مملوءٌ غيظاً ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ أي يتستر ويختفي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ بحسب عرفهم، وإلا فالبنت قد تكون أسعد وأنفع من الابن. ويتردد في قلبه: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يعني أيُبْقي ما بُشر به ويخدمه ويربيه مع حقارة وهَوانٍ له ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾؟ أن يحفر له حفرة ويخفيه في التراب؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ به من اختيار البنين لأنفسهم واختيار البنات له تعالى، مع أنهم لا يرضون بها، ويخجلون من وجودها، هذا من ناحية اختيار أنفسهم بالخير، ومن ناحية أخرى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهم المشركون ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ وهو الإستغناء عنه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنفرد بالقدرة الكاملة الدائمة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل ما يفعل بالحكمة، ولا حاجة إلى ذات واجب الوجود كامل الصفات إلى غيره بأي وجه من الوجوه.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني ولو يؤاخِذُ اللّهُ الناسَ الظالمين مطلقاً من أيّ وَجه، أو الظالمين بالإشراك بظلمهم، أي بسبب ظلمهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ أي على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ أي من أيّ إنسان يدب على الأرض من

الظالمين، لأن فساد الظلم يوجب إبادة الظالم جزاء وفاقاً، أو ما ترك على ظهرها من دابة من الإنسان الظالم وغيره، أما الظالم فلظلمه، وأما غير الظالم فلشؤم ظلم الظالم على جريان سنة الله تعالى في الكون، من أن إهلاك الملزوم إهلاك اللازم، فإذا أراد إغراق الظالمين بالماء فقد أراد إغراق ما في مجرى الماء. ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ والمشهور في تفسير الآية أنه لو يؤخذ الله الناس الظالمين بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة من إنسان أو غيره من ظالم أو غيره. أما الظالم فلظلمه، وأما غيره مطلقاً فلشؤم ظلمه الساري إلى غيره. وقال بعض: معناها أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم كانَ أهلكَ آباءنا الظالمين بظلمهم فما كان يحصلُ وراءهم عَقَب، وما من سلسلة إلا وفي أصلها ظالم أو ظالمون. وإذا أهلك الأصل والنسل أهلك الدواب أيضاً لأنها خلقت لمنفعة الناس بالذات أو بالواسطة، كما أفاده قوله ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل يؤخرهم إلى أجل مسمى عينهُ سبحانه وتعالى لكل ما دَبَّ على الأرض ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المعين في علمه تعالى ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ أي أقلّ مدة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قيل إن الإستئخار معقول، فما معنى الإستقدام؟ وأجيب عنه بأجوبة:

الأول: أن عطف جملة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ على ما قبلها مقدم على ربطهما بصدر الكلام، فالمعنى فإذا جاء أجلهم لا مجال للتبدل مطلقاً.

الثاني: أن جملة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على الشرط لا على جوابه. فالجملة الأولى انتهت في قوله ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾. ثم عطف جملة ولا يستأخرون على قوله ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فتكون بياناً لاستحالة طلب التأخير.

الثالث: أن في الكلام طيّا ونشرهُ فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة، وإذا لم يجيء لا يستقدمون. أي وقبل مجيء الأجل لا يطلب أحد تقديم أجله، لأن الله ما دام عين ذلك الوقت للفوت لا يُخلي الإنسانَ يَطلبُ تقديمه ولا يقدمه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: أي ويعتقد الكفار المشركون ثبوتَ ما يكرهونه من البنات لله تعالى ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذبَ وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى. وأي حمقٍ أوفى من عِداء ذاتٍ يكون مرجعاً للخيرات، واعتقاد إختصاص أعدائه بأوفى الحظوظ منها؟

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي لا شبهة في أن لهم النار جزاء لتلك العقائد الفاسدة والأعمال السيئة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلٌ بهم إليها، أي فكما ماتوا وقعوا في العذاب، وما في البرزخ يكون مقدمة نزلهم يُبشرهم بلذة ما وراء ذلك من النار.

ثم صبر رسوله وسلاه بأنّ هذه الأمة المشركة الفاسدة ليست مختصة بك بل قد كان في السابق مثل أمتك أو أعلى منها في غلوها في الفساد فقال ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي رســــلاً ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي قرينهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم زين لهم الأعمال وأضلهم إضلالاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب نار الجحيم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من البعث والحشر والنشور ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عظيمين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المغتنمون بخيراته في الدارين.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ جرى الباري بحكمته على ما تقرر من سنته في إرشاد العباد من بيان نعمه التي لا يحصى المحسوس منها والمعقول فقال ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي من السحاب، أو من الجهة العليا النظيفة اللطيفة التي ليس فيها شائبة الأدناس والأوساخ ماءً ومادة من أنفع المواد لمعيشة الحيوانات وإنبات النبات وبث الرخص في الكائنات ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بما أنبت فيها من أنواع النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي بعد يبسها. فالإحياء استعارة للإنبات، والموت للجدْبِ واليبس واليَأسِ مِن المُحَضّراتِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العمل المُتقن الحكيم أي إنزال الماء من السماء لإحياء الأرض ﴿لَءَايَةً﴾ وعلامةً عظيمة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته واختصاصه بالتأثير ووحدته ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون الآيات

ويَقْبلونها وينتفعون بها في الاستدلال على الحق واليقين ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي في خلقها وجعلها محتوية على المنافع ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لأمراً يعتبر ويتعظ به ويتجاوز به من الجهل إلى العلم، فاستأنف لبيان ما فيها وقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ مُصفى مما يصحبه من المواد الكثيفة بتضييق مخرجه، سائغاً للشاربين سهل المرور في حلقهم لدهنيته، والفرث على ما في الصحاح: السرجين ما دام في الكرش، والجمع فروث. وفي البحر: إنه كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعى. وبين تقتضي متعدداً، وهو هنا الفرث والدم، فيكون مقتضى الظاهر توسط اللبن بينهما. وعن ابن عباس ﷺ: أن البهيمة إذا اعتلفت وأنضج العلف في كرشها كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً. وفي البيضاوي: ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة للبن، وأعلاه مادة للدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى تفلهُ وهو الفرث ثم يُمسكها ريثما يهضمها هضماً ثانياً فيحدث أخلاطاً أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين، وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها، ثم إن كان الحيوان أنثى زادت أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أوّلاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغُدَدِيَة البيض فيصير لبناً. ومن تدبر صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارّها ومجاريها، والأسباب المُولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته انتهى.

وقوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وتتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، كشف لكنه الأسقاء. والسَّكر مصدر سمي به الخمر والرزق الحسن كالتمر والزبيب والدبس والخل. والآية سابقة على تحريم الخمر لأنها مكية والتحريم كان بالمدينة. وفيها إشارة إلى كراهة شربها إذ ذاك لمقابلتها بالرزق الحسن. ولعل أصل الكراهة أمرٌ ذاتي قبل ملاحظة الشرع، وذلك لتشويشها للعقل الذي هو مداد السعادة. وقيل: السكر النبيذ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والاستدلال بالآيات على النتائج النظريات.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير، وكذلك كل ما كان من الغرائز في تربية النسل وصيانته وتداوي الأمراض والجروح الحيوانية، وحتى في كثير من الأوضاع النباتية في التفافها حول الشواخص، والتفاتها إلى الحرارة الشمسية وما شابه ذلك... ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكاراً ومحلاتِ قرارٍ تناسب أوقات الحرارة والبرودة وتربية العسل وتوليد النسل وغير ذلك مما تحتاج إليه. ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي واتخذي من الشجر بيوتاً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي ومما يعرشه الناس أي يرفعه من الكروم. ومن في المواضع للتبعيض، فإن النحل لا يتخذ البيت في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي تناسب طبعك وتوافق منتوجك ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي فاسلكي في تحصيل ما تتغذينَ به، وفي العود إلى المقرات الأساسية السُّبُل التي ألهمك بها ربك حال كونها ﴿ذُلُلًا﴾ أي مُذَلّلة ذللها الله تعالى وسهلها لك ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ أي عسلٌ يشرب ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بالبياض والصفرة والحمرة والسواد على اختلاف المراعي حسب سنته تعالى في مناسبة الناتج للأصول أو لغير ذلك. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه أو مع امتزاجه بغيره وليس معنى الآية الكريمة أن في العسل شفاءً لكل الناس من كل الأمراض، بل أن فيه شفاء لكلهم من الأمراض التي تعالج بشربه حسب إرادته تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أعمال الباري جل جلاله ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكر في خلقِ النحلِ بتلك الأوصاف والمُهماتِ الدقيقة لأخذ البيوت من الجبال والأشجار والعريش، ولصنع الكوارة المسدسة التي تُعجِبُ المهندسين، وفي رعيها من الثمار، ورجوعها إلى الأوكار، وإدارة العسل، وتربية النسل، ثم في إلهام النظام إلى ذلك النوع من حيث إطاعة الأمير والإصطفاف حوله، والتغني بأصوات رنانةٍ كالموسيقى العجيبة حتى يخرج الأمير ويطير فيطيرون وراءه. لآياتٍ للمهتدين.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ
شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ
فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ إستئناف قدرته تعالى على إبداء الإنسان من النطفة المعينة وتعريضه للعوارض فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ وأخرجكم من عالم صورةٍ نوعية إلى صورة نوعية أخرى وأبقاكم حسبما تقتضيه علمه وإرادته ﴿ثُمَّ﴾ إذا جاءَ الأجل المسمى ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ ويقبض أرواحكم فتعودون إلى عالم البرزخ إلى يوم تُبعثون ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي وبعد أن خَلَقكم فمنكم من يتوفى قبل الوصول إلى أرذل العمر ﴿وَمِنكُم﴾ من يرد إلى أخسِّ العمر وأحقره، وهو وقت الهَرَم الذي تنقص فيه القوى والحواسّ ويعود الإنسان كالطفل الضعيف عقلاً وإدراكاً. وأرذل العمر لا حَدَّ مُعيناً لهُ، وإنما هو يختلف باختلاف الأمزجة، فربّ معمر واصل إلى المائة لم تنقص قواه، وربّ منتقص في القوة لم يتجاوز ثمانين. وكان من دعائه ﷺ كما أخرجه البخاري عن أنس «**اللهم إني أعوذ بك من البُخل والكَسَل وأرْذَلِ العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المَحيا والممات**» وقوله ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ اللام فيه للعاقبة وهي في الأصل للتعليل ولكنها استعيرت للصيرورة والعاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ والكلام كناية عن غاية النسيان، أي ليصير الإنسان نَسّاءً بحيث إذا كسب علماً في شيء لم يلبث أن ينساه إن الله عليم بكل شيء قدير على كل شيء فهو قادر على كل شيء وعليم به.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ وجعلكم متفاوتين فيه ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ على غيرهم فيه ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي لا يقدرون على أن يَرُدوا رزقهم الذي رزقهم الله على مماليكهم. أي أن السادة المُفَضّلين على العبيد في الرزق لا يقدرون أن يجعلوهم مستوين لأنفسهم في الرزق، فكلٌّ يستوفي رزقه. ومعنى ذلك أن السادة وإن كانوا مفضلين في الرزق وأغنياء لا يقدرون على زيادة أرزاق العبيد على ما قدره الله تعالى وقرره، ﴿فَهُمۡ﴾ أي السادة والعبيد فيه أي في الرزق سواء لا قدرة لأحد الطرفين أن يزيد في رزق الآخر، فإن الكل مرزوق لله ورزقه من الله تعالى، وما يرى ظاهراً من أن السيد قادر على زيادة رزق العبيد ليس كذلك فالإنسانُ أينما كان، وفي أي زمانٍ فرِزقُه من الله لا مِن غيره، فكيفَ ينسبُ

أولئك الكفار المشركون أرزاقهم إلى الأصنام ويجعلونها مبدأ لسعة أرزاقهم دون الله؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ﴾ الله تعالى وهي الأرزاق الواردة منه إليهم ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وينسبونها إلى أولئك الهياكل الجامدة؟ فسبحان الله عما يشركون.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من بني نوعكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ تَستأنسون بهن وتقيمُون معهن مَصالِحكم في الدنيا وتَبْنونَ أساس النسلِ والعائلة ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ في الدرجة الأولى ﴿وَحَفَدَةً﴾ في سائر الدرجات ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في طبائعكم للزواج من النساء كما قال تعالى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أو رزقكم مع أزواجكم وبنيكم وحفدتكم الطيبات من الأقوات والألبان واللحوم والفواكه وغيرها ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو نسبة هذه المنافع إلى الأصنام ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وهي النعم المخلوقة لله الواصلة منه تعالى ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي أولئك المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي ما لا يقدر أن يرزقهم شيئاً ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تملكَ شيءٍ لأن التملك يتفرع من الحياة والعلم والقدرة والأصنام بَراءٌ من تلك الصفات ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي فلا تجعلوا لله الموصوف بالكمال الأمثال والأكفاء تعالى عن ذلك، ولَمَ يكن لَهُ كفواً أحَدٌ، إن الله يعلم كنه ما تفعلون فيعاقبكم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كنه ذاته وصفاته. أو لا تضربوا الأمثال كما يضرب الله الأمثال، فإن الله يعلم الأمثال المناسبة وضربها، وأنتم لا تعلمون فقفوا عند حدودكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ بعد أن نهاهم الله عن ضرب الأمثال لأنهم لا

يقدِرُون اللَّهَ حَقَّ قدرِهِ والله سبحانه وتعالى عالم بكل ما دق وجل فيضرب الأمثال مطلقاً وهو حقيق بذلك. . قال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي وذكر لكم مثلاً تعتبرون به وتتركون الإشراك. وقوله ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ بدل من قوله مثلاً. والحاصل أن الله سبحانه ذكر أن هناك عبداً مملوكاً ضعيفاً نحيفاً جاهلاً بالحقائق ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فهو جامع لموجبات الوهن أي العبودية والإنقياد لأمر سيده، وجهله وعدم قدرته على الوفاء بأية مهمة من المهمات ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ أي وشخصاً حراً في تصرفاته رزقناه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً أو مستحسناً عند الناس ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ أي ما رزقناه ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ لأنه ملكه المختص به والناس يستفيدون منه ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أي ذانك الإنسانان في الحيازة للأموال والصرف على الناس مع النساء والرجال، وهل يستويان في عقول العقلاء قدراً وشرفاً؟! والجواب: لا. فالشركاء الجامدون الهامدون أمثال للعبد المملوك بل العبد المملوك أقوى وأقدر، لأن فيه إنسانية وعلماً وقوة وحركة ذاتية، والباري سبحانه وتعالى مثل للشخص الحر القوي القادر المتنفذ الباذل ماله للناس حسب ما أراد، ولا يستوي الطرفان بأي عقلية وتصورٍ ناشىء من المتصورين الخبراء. وإنما جَمع الضمير مع أن المرجع مثنى للإشارة إلى أن المقصود هنا من اتصف بالأوصاف المذكورة المتخالفة لا الفردان. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على خلقه المميز بين الصالح وغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق فيضيفون النعم إلى غيره.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي مثلاً آخر: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ بكماً وخرساً خُلقياً لا ينطق بخير يستفاد منه ولا بشر يستفاد من اعتبار مقابله ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو غيره ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي حَملٌ ثقيل وعيال دخيل ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي على من يتولى أمره سيداً أو غيره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ مولاه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا يستحصله له ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو ناطق فصيح بليغ مفيد مُريحٌ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب فرصة سانحة. والمثل مذكور للفرق بين الجامد والنامي، والجاهل والعالم، والعاجز والقادر، والأصنام الجامدة المصنوعة، والذات الواجب الوجود الذي هو في كل فعال محمود ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولله العلم بما غاب عن علم من سواه في السماوات والأرض والسيطرة عليها ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تحدث بدمار هذا العالم وحدوث عالم جديد ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كرجع الطرف من

أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ لأن ذلك اللمح الآني ينقسم إلى ما هو أدق منه بمرات، وقدرته تعالى نافذة في أصغر وقت يمكن تحقق الحادث فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن الشيء تحقق الممكن في أقل وأدق من لمح البصر كما هو معلوم.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، ومربوط به لفظاً ومعنى، وكلاهما من الأدلة على وجود الباري تعالى وكمال صفاته ووحدته ذاتاً ووصفاً وفعلاً. وقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ النفي فيه لعموم السلب، أي يستغرق النفي فيه سائر المعلومات المتغايرة لذات العالم فلا ينافي أن يلازم النفس الناطقة علمها بنفسها، لأن كلامنا هنا في العلم بالمعلومات المباينة لها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ أي وخلق لكم حاسة السمع والبصر، وكذلك سائر الحواس ليستعملوها في إحساس ما خلقت له، وجعل لكم القلب أي قوة الإدراك المودعة فيكم، فتأخذ من مدركات الحواس وتربط بعضها ببعض وتكتسب الأمور المكتسبة بحسب قوتها وقابليتها. والحاصل إن الله تعالى خلق من النطفة الطفل وهو بريء من المعلومات، إلاّ ما لزم ذاته ثم أبدَعَ فيه الحواس وجعلها وسيلةً لاكتساب العلوم النظرية، فالمبدع للذوات والصفات بهذا النمط البديع هو الله الذي يجب أن يُعبَدَ وحدَه ولا يُشرك به أدنى موجودٍ مُفْتَعَلٍ مَصْنوع خالٍ عَن كل كمال وفضيلةٍ؛ لأن الله تصرف فيكم بذلك

التصرف العجيب ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإبداع وإيداع الصفات وجعلها وسيلة لاكتساب الكمالات لا للكفر به وإنكاره، أو للإشراك به ما لا يفهم شيئاً ولا يهتدي إلى خير في الدنيا والدين.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أولئك الناس الذين نَسُوا نعمة الله وتركوا توحيده ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض، وجعل لها جناحين، وأودع فيها قوة تحريكهما المستعجل حتى تقطع المسافات في مدة يسيرة، وقد تبقى في الجو بدون حركة وانتقال ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو وما يمنعهن عن النزول إلى الأرض مع أن الأثقال مائلة إلى المركز ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الخالق فيها قوة حافظة لها عن الوقوع والنزول ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ كثيرة مهمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبتأثير قدرته ومقارنته مع حكمته في التكوين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي مَقراً تسكنون فيه وتستريحون على حسب عادتكم ﴿و﴾ جَعَل لكم ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من الإبل والبقر وأمثالهما وأدنى منهما ﴿بُيُوتًا﴾ مغايرة لبيوتكم المعهودة في دار المقامة، وهي بيوت الأمم الرحالة، أو الذين يسكنون الجزر في البحار المعرضين للمد والجزر الموجبين للانتقال منها إلى محل آخر حسب الأوضاع الجارية فيها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي تجدونها خفيفة الوزن ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي للحمل يوم ارتحالكم وللحط يوم الإقامة ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ والضمائر للأنعام. الصُّوف للغنم، والوبر للإبل، والشعر للمعز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي متاعاً للبيت كالفرش وغيره ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به، ويحصل التمتع بوجوه كثيرة منها: واجبة كالستر والوقاية من الحر والبرد الواجبين، ومنها سنة، ومنها زينة وجمال، ومنها ما هو عرضة للبيع والتصدير وسائر وجوه المتاع من النسج... كل ذلك ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ معين عند الله فإن ما في الدنيا زائل.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ أي من غير صُنع منكم ﴿ظِلَٰلًا﴾ أي أشياء تستظلون بها ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ﴾ والكهوف والأشجار، وكالغمام في بعض الأوقات من الأيام ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي محلات للتستر من الأعداء ونزول البلاء كالأمراض المحوجة إلى الصافي من الهواء ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وكذا البرد إلا أن الأول أهم ولذا قدم بالإختصاص بالذكر ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ من الجوشن والدروع ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي تحفظكم عن الجرح أو الموت في يوم حربكم ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي بهذا النوع من الإتمام للحوائج التي

تنفعكم يتم الله تعالى إفاضة نعمه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وتنقادون ظاهراً وباطناً لله تعالى. وكل هذه النعم المذكورة وأمثالها مخلوقة لله تعالى مباشرة، أو موادها مخلوقة، وألهم الله تعالى عباده الساعين في العلم والصناعة تركيبها وتطويرها إلى درجة الإنتفاع والإعتبار ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أولئك الناس الناسون لنعم الله تعالى، فلا يضر نسيانهم وتركهم شكرها إلا أنفسهم ولا يصل الضرر إليك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الواضح المفهوم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني أن الناس المتولين من نعم الله تعالى وشكرها يعرفون نعمة الله، فإنها واضحة جلية ولا ينكرها إلاَّ أولو الأذهان الكليلة والطبائع الغبية، وأكثرهم من الكافرين وأقلهم من المؤمنين الغافلين.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية. . . المراد باليوم يوم القيامة ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نبعث﴾ ونرسل ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وجماعة من الناس ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد لهم بالإيمان والطاعة إن كانوا من المؤمنين وبالكفر والعصيان إن كانوا من الكافرين، وذلك الشهيد نبيها ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ﴾ بالإعتذار عن كفرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يزيلوا عَتَبهم، أي عَتَبَ ربهم وغضبه عليهم. وكأن هذه الجملة تفسير لما سبقها، فإنهم إذا لم يؤذن لهم حتى يتكلموا لا يعتذرون عن ذنوبهم ولا يدفعون غضب ربهم عن أنفسهم ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي ﴿الْعَذَابَ﴾ أي العذاب الذي يستحقونه يوم القيامة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك العذاب لأنه عذاب وارد بحكم صادر من الله تعالى، وإذا حكم الله بشيء فلا مرد لحكمه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يُمهلون. يعني إن العذاب إذا جاء أوانه تحقق ولم يتخلف بأي شيء.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يزعمونهم شفعاء ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي فأجابهم شركاؤهم وقالوا لهم: إنكم لا شبهة لكاذبون في دعوى أنكم تعبدوننا وتطيعوننا، بل كنتم تعبدون أهواءكم وأغراضكم الفاسدة ومطامعكم الدنيئة، وإلا فإذا جاء الحق وأتاكم كتاب الله وبرهانه مع الرسول فلم كنتم تعاندونهم وتعادونهم؟ ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ أي الشركاء ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ والإطاعة ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ لله سبحانه من الشركاء الجامدين.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وأضافوا إلى كفرهم فساداً آخر وهو منعهم الناس عن سلوك سبيل الله أي دين الإسلام ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ في مقابلة صدهم للناس ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي عذاب كفرهم، لأن كفرهم إفساد لأنفسهم، وصدّهم إفساد لغيرهم ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يباشرونه من طرق القوة والحيلة وأنواع الدسائس الدنية لإبعاد الناس عن إطاعة الله وهذا العمل الشنيع إفسادٌ ما فوقه إفساد كما قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ أي وما زدناه على عذاب كفرهم حصل بسبب إفسادهم لغيرهم وتنفيرهم لهم عن دين رب العالمين.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وهذه الآية الكريمة عرض واستعراض مهول ومهيب ليوم القياة وأحوال الأمم في ذلك اليوم كما يظهر منها. وحاصلها أنه تعالى يقول يا حبيبي اذكر يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ وهو رسولهم المبعوث إليهم فيشهد على المؤمنين بإيمانهم وأعمالهم وعلى الكافرين بكفرهم ومعاصيهم وأحوالهم، وذلك ليكون أقطع للمعذرة. ومعنى كونه ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه منهم ويشهد على علم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي على أمتك، يعني أنه كما بعثنا رسل الأمم السابقة شهداء عليهم بعثناك شهيداً على أمتك، فلا تبقى أمة من الأمم إلا ويشهد عليها شاهد من أزكى الشهداء وهو رسولها، فلا يفوتنا عقيدة من العقائد ولا عمل من الأعمال إلا يتحقق بإثبات وبرهان ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القويم الهادي إلى الصراط المستقيم ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من العقائد والقواعد بحيث ينص على بعض،

ويظهر في بعض، ويؤيد ويفسر على حسب المقصود في بعض، وقرر أموراً تدل على المراد في بعض وهي القياس والإستدلال من جانب من هو أهل لذلك، فإن الناس على درجات مختلفة من الإدراك والشعور والنور. أي حال كون الكتاب تبياناً له ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ له بشرط قبوله بصورة عامة ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بصورة خاصة، فإنهم هم المستبشرون به.

وما أحْسَنَ هذه الآية الكريمة الجامعة للصفات الموجودة فيه، وهي أنه يوضح طريق الحق للناس ويبين الأحكام الدينية الإعتقادية والعملية بطريق مُسَلَّم عند أهل العقل والعلم والمطالعة، وذلك البيان بالنص أو بغيره بطريق من الطرقَ التي اعتادها العلماء الراسخون في معرفة الأمور الخفية بحيث لا تبقى عندهم مسألة من المسائل إلا وعليها دليل من الدلائل حتى يكون المتمسك بهذا الكتاب على بصيرة في سلوكه على الحق إلى أن يلقى ربّ العالمين.

وفي روح المعاني: والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جمع ما يتعلق بأمور الدين، أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك. ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام. وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه - عليه الصلاة والسلام - فانتظام الآية بما قبلها ظاهر. والدليل على تقدير الوصف المخصص للشيء المقام وأن بعث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما هي لبيان الدين. ولذا أجيب عن السؤال عن الأهلة بما أجيب. وقال ﷺ «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» وكون الكتاب تبياناً لذلك باعتبار أن فيه نصاً على البعض، وإحالةً للبعض الآخر على السنة حيث أمر باتباع النبي ﷺ وقيل فيه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ وحثاً على الإجماع في قوله سبحانه ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية... فإنها على ما روي عن الشافعي رضي الله عنه وجماعةٍ دليل الإجماع. وقد رضي ﷺ لأمته باتباع أصحابه حيث قال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضو عليها بالنواجذ**» وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرقَ الإجتهاد، فكانت السنة والقياس والإجماع مستندة إلى بيان الكتاب، وذهب بعضهم إلى ما يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصيص، فقال: ما من شيء من أمر الدين والدنيا إلا يمكن استخراجه من القرآن.

وقد بين فيه كل شيء بياناً بليغاً واعتبر في ذلك مراتب الناس في الفهم، فرب شيء يكون بياناً بليغاً لقوم ولا يكون كذلك لآخرين، بل قد يكون بياناً لواحد ولا

يكون بياناً لآخر، فضلاً عن كون البيان بليغاً أو غير بليغ، وليس هذا إلا لتفاوتِ قوى البصائر، ونظير ذلك اختلاف مراتب الإحساس لتفاوت قوى الأبصار. وقيل: معنى كونه تبياناً أنه كذلك في نفسه وهو لا يستدعي وجود مُبَيَّنٍ له فضلاً عن تشارك الجميع في تحقق هذا الوصف بالنسبة إليهم بأن يفهموا حال كل شيء منه على أتم وجه. ونظير ذلك الشمس، فإنها منيرة في حد ذاتها وإن لم يكن هناك مستنير أو ناظر. ويغني عن هذا الإعتبار أن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية، ويؤيد القول بالظاهر أن الشيخ الأكبر قدس سره وغيره قد استخرجه منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية. وقد رأيت جدولاً حرفياً منسوباً إلى الشيخ كتب عليه أنه يعرف منه أحوال أهل المحشر، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل الجنة، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل النار. وكل ذلك ـ على ما يدعون ـ مستخرج من الكتاب الكريم. ومثلُ هذا الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ، فإنهم قالوا: إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية، وهو أيضاً مستخرج من القرآن العظيم. انتهى مع ترك غير المقصود منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ
إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا
يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟
ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال ابن مسعود ﷺ هذه الآية أجمعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ﷺ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعل إيرادها عقيب قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ للتنبيه عليه.

والمراد بالعدل التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة وهي القوة المتوسطة بين الجربزة والغباوة. وفضيلة القوة الشهوية البهيمية وهي العفة المتوسطة بين الفجور والجمود. وفضيلة القوة الغضبية السبعية وهي الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن. ويشمل العدل التوسط في الإعتقاد والأعمال والأكل والشرب واليقظة والمنام، والعدل في الحكم بين الأنام، وبين الأولاد في الرعاية والوئام، وبين الزوجات في المقام والمنام، وبين الأصدقاء في الحب والإحترام، وبين سائر الناس من الرعايا والحكام.. إلى غير ذلك. وعن سفيان بن عيينة أن العدل: استواء السريرة والعلانية في العمل.

والمراد بالإحسان إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيان بها على الوجه اللائق وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخاري من قوله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما في الواجبات من النقص ويجوز أن يراد بالإحسان الإحسان المتعدي بإلى أي الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم. فقد أخرج ابن النجار في تاريخه قال: مرّ علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه على قومٍ يتحدثون. فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذكر المروءة. فقال أو ما كفاكم الله ـ عز وجل ـ ذاك في كتابه إذ يقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾؟ فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل، فما الذي بقي بعد هذا. وأعلى مراتب الإحسان على هذا الإحسان إلى المسيء، وقد أمر به نبينا ﷺ. وروي عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم ﷺ: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. وفسر ابن عباس ﷺ العدل بالتوحيد. وفسر الإحسان بأداء الفرائض. والمراد بإيتاء ذي القربى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر. وهذا داخل في العدل أو الإحسان. وصرح به اهتماماً بشأنه.

وقوله تعالى ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الإفراط في متابعة القوة الشهوية، كالزنا مثلاً. وفسرها ابن عباس رضي الله عنه بالزنا. والمنكر: كل ما ينكر على مباشرة من الإفراط في إظهار القوة الغضبية وفسر بالشرك وبمباشرة ما توعد عليه بالنار، وبمخالفة السريرة للعلانية، وبكل ذنب لا يوجب الحد في الدنيا، لكن يوجب العذاب في الآخرة. والبغي: الإستعلاء والإستيلاء على الناس والتجبر عليهم. وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصلة من رذيلتي القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية. وفي تفسير الآية أمور مهمة إيجابية وسلبية هي الأساس للأحكام الإسلامية. ولكن الذي يظهر من ملاحظة استعمال الكلمات الواردة هنا في الكتاب والسنة والأدب العربي أن المراد بالعدل رعاية الإعتدال والإنصاف في الأحكام الواردة على الناس، وبالإحسان العفو بالنسبة إلى ما يخص الإنسان في ذاته فإنك إذا حكمت في قضية مربوطة بالغير لاحظت العدل، أو مربوطة بنفسك مما يمكن لك فيه السماح لاحظت العفو والإحسان وصرف النظر عن حقك وبإيتاء ذوي القربى بذل المبرات إلى الناس الأقرب فالأقرب. وأن المراد من الفحشاء المنهي عنه ما يتعلق بالشرف والأعراض سواء كان زنا أو مقدماتها. وبالمنكر كل ذنب لم ينشأ من الإستيلاء والسيطرة وبالبغي كل عدوان ناشىء عنهما. وقوله تعالى ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يرشدكم وينبهكم بما يأمر به وينهى عنه سبحانه وتعالى أحسن تنبيه، ابتغاء أن تتعظوا بذلك وتأخذوا طريقكم إلى الله رب العالمين.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي وأدوا واجب بيعة الإسلام إذا بايعتم الرسول ﷺ لأن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ. أو المراد به العموم في كل موثق مشروع جار بين شخصين أو طائفتين أو الرعايا وصاحب الأمر في الإسلام حتى يكون الناس في أمان واطمئنان قلب من المقابل في العهود والمعاملات الجارية بينهم، فإن الأمة هي الأخلاق، وأعلى صفاتها رعاية الأمانة والصدق حضوراً وغياباً. وما عدا ذلك يكون كذباً ونفاقاً ولا يحصل منهما إلا العداء والشقاق المدمران للعالم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ نهي عن إبطال نفس العهود الواقعة بينهم. والمعطوف عليه للوفاء بما تعاهدوا عليه، والمعطوف لإدامته والبقاء عليه فإن الناس كانوا يعلنون نقض العهد في بعض الأحيان إذا زاد النفع في نقضه، ولا يستمرون إلى تمام المدة. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وعيد لهم على مخالفة الفقرتين. أي وقد جعلتم الله شاهداً وكفيلاً على العهد ورعاية بنوده وإدامته فمخالفة شيء منها حرام عليكم. وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي من مخالفة البنود وعدم الإستمرار على العهود.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضها ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي مغزولها ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد غزلها وإحكامها ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكث بكسر النون، وهو ما ينكث فتله. والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه أيّاً كان. وقيل المراد امرأة معلومة وهي ريطة بنت سعد بن تيم القرشية، فإنها كانت خرقاءَ تفعل ذلك في غزلها. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تكونوا متشبهين بامرأةٍ هذا شأنها متخذي أيمانكم وعهودكم مفسدة بينكم، فإن من لا يراعي العهود لا يعتبرها كأشياء أساسية واجبة الرعاية، وإنما يعتبرها كأمور خارجية غير مهمة يعتبرها تارة ويبطلها أخرى، فيؤول ذلك العهد المنقوض إلى أساس فتنةٍ وفساد ومنشأ أحقاد وحزازات بينهم وقوله تعالى ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي بسبب أن تكون جماعة وهي الأمة المعاهدة بالكسر أربى وأقوى وأكثر عدداً وعدداً من الأمة الأخرى المعاهد معها، أي لكثرتكم وقوة المقابل لكم، أو المراد أمة أخرى غير الذين عاهدتموه بأن تجدوا قوماً آخر أقوى من القوم الذين عاهدتموه فتنقضون عهدكم معهم وتعاهدون ذلك القوم الأقوى وذلك ينشأ من قلة المروءة والشهامة ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي إنما يمتحنكم الله تعالى بنقض عهدكم ذلك ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ما كنتم تخالفون من أحكام الدين، أو ما تختلفون فيه في الدين، فبعضكم يرجح الدوام على العهد وبعضكم يرجح نقضه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على ملة واحدة هي الإسلام، أو أمة واحدة غير متعددة، لا تحتاج إلى معاهدة بعضهم من بعض ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يختار لدينه من كان أهلاً له، ويترك من ليس أهلاً له ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه حسب ميزان الاستحقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي المستأنف عما نهي عنه ضمن قيود نسبة أخرى. فيقول ناهياً متوعداً مُهدّداً: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ﴾ وعهودكم ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي دغلاً ومكراً وخديعة ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ لكم عن طريق إطاعة الله تعالى ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليه بإبرام العهد ﴿وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ﴾ يوم القيامة

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي بسبب صدكم وإعراضكم عن سلوك سبيل الله وهو إبرام مبايعة الإسلام ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عند حلول وقت العقاب ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بدل بيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى ثواب الآخرة ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ذلك الثمن القليل ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. والآية نزلت في قوم بمكة أسلموا وزين لهم الشيطان نقض الإسلام لما رأوه من غلبة قريش، ولكن الله تعالى ثبتهم على الإيمان واستمروا عليه ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ أي متاع الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ وينقضي ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿بَاقٍ﴾ لا نفاد له ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين واستمروا على الإيمان ﴿أَجْرَهُم﴾ وثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأحسنه الصبر، فإن جزاءه عند الله، ولا يعلم بمقداره أحد غيره، يعني أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمال الصابرين وما آتاهم من الشدة المحنة، ويختار أحسنها عنده، ويجعل كلها في درجة ذلك الأحسن ويجزي أولئك الصابرين بذلك المستوى العالي عنده فيختار لهم أحسن النعيم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ويعمل ذلك لإطاعة الله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ والمراد بالحياة الطيبة إما الحياة في الدنيا وطيبها مقارنتها لانشراح الصدر واطمئنان القلب وسروره بجزائه يوم لقائه تعالى، فإن هذه الحياة توجب نسيان المصائب والمعائب والمعاتب ولو كان في أسوأ أهوال الدنيا. وإما الحياة في الآخرة في الجنة، إذ هناك حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاء. روي عن الحسن أنه ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والحمد لله رب العالمين.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ جملة مستأنفةَ وعَودٌ من حكاية ما مضى على الرسل من أذى الكافرين، وبيانِ هول البعث الحساب والميزان وشهادة الأنبياء والمرسلين، وبيان أن الكتاب المنزل على محمد ﷺ فيه دواء كل داء وحصانة كل سقم وشقاء، وأن محتواه الإيجابي أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والسلبي نهي عن الفحشاء والمنكر والبغي إلى التمسك بالقرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه، ويؤديه في تلاوته بأنك إذا قرأت القرآن على الكافرين لدعوتهم إلى الدين فاستعذ بالله ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ كي يبتعد عن الناس الذين تقرأه عليهم، وإذا أردت تلاوة القرآن عادةً فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي فاسأله عز وجل أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله كي لا يوسوسك في قراءة القرآن ويشغل قلبك.

وكيفية الإستعاذة عند الجمهور من القراء وغيرهم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتضافر الروايات على أنه ﷺ كان يستعيذ كذلك.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ واستيلاء ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسوله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يعتمدون عليه تعالى لا على غيره ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي يجعلونه والياً عليهم فيحيونه ويجيبونه ويطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي وعلى الذين هم بسبب إغواء الشيطان لهم يشركون بالله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي إذا نسخنا آية لفظاً ومعنى بآية أخرى حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الكفار ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍۭ﴾ أي متقول على الله تعالى تأمر بشيء ثم تتندم منه فتنهى عنه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون شيئاً أصلاً. أو لا يعلمون أن في النسخ والتبديل مصلحة. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ أي القرآن الناسخ ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي جبريل عليه السلام وأطلق ذلك عليه لأنه روح له علاقة خاصة بالذات المقدس جل جلاله، أو روح ذو قدس ونظافة ونزاهة وبراءة من الأدناس النفسانية ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي من أمر ربك أو من جانب ربك متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي الحكمة المطابقة للواقع ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإيمان والأعمال

الصالحة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وليكون ذلك الحكم المنزل هداية وبشارة للمسلمين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وعنوا بذلك البشر غلاماً لعامر ابن الحضرمي وكان قد قرأ التوراة والإنجيل ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي لغة ذلك الرجل الذي ينسبون تعليم الرسول ﷺ إليه أعجمي، أي لغة ركيكة مبهمة لا يستفاد منها المقصود بوجه واضح ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذا القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ لسان عربي ذو بيان وإيضاح وفصاحة في المفردات وبلاغة في المركبات علاوة على ما يحتويه من الأخبار الماضية والمستقبلة، وعلوم العالم الغيبي، ومواقف البعث والحشر والنشر وأسرار الآخرة. وفي نقل هذا القول إشارة إلى أن أولئك الكافرين لا عقل لهم ولا خبرة يميزون بها بين الكلام العالي والسافل، فقولهم ذلك عند منزلتهم السافلة الفاسدة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصدّقون بأنها نازلة من عند الله تعالى ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى طريق إدراك الحقائق، ويبقيهم في الجهالة والضلالة لجهلهم وغيهم وعَيهم وعتوهم وعنادهم، بل يجعلهم على طريق الاشتباه لقلة إنتباههم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما نسبوه من الأمور الغير السليمة إلى ذلك النبي الزكي الصالح السليم ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله ويتكلم بكلام من عند نفسه أو من إنسان آخر من هو فاسدٌ ماشٍ على سلوك الفاسدين وهم المفترون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا النبي الزكي والرسول الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفترون على الله ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله فعليهم غضب، والجملة مستأنفة لبيان حال من كفر بآيات الله تعالى بعدما آمن بها. وقوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ إستثناء من الموصول وصلته، أي فليس عليه ذنب لعذره بالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر، ويجتمع ذلك التلفظ مع وجود الإيمان في القلب، وخبر المبتدأ مقدر أي فهو معذب معدود من الكافرين ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي إعتقده وطابَ به نفساً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وربطَ الغضب بقوله من الله للتهويل والإشعار بعظمة الغضب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظم من جرمه. روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الإرتداد، فأبوا فربطوا سُمية بينَ بعيرين ووجئت بحربة في قُبُلِها، وقالوا: إنما أسْلَمْتِ للرجال. فقتلوها وقتلوا ياسراً، وهما أوّل قتيلين في الإسلام وأما عمار فأطاعهم بلسانه وأعطاهم ما أكرَهُوه عليه. فقيل: يا رسول الله إن عماراً كَفَرَ. فقال رسول الله: «**كلاّ إن عماراً مليءٌ إيماناً مِن قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه**». فأتى عمارٌ رسولَ الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: «**مالَكَ؟ إن عادُوا فَعُدْ لَهم بما قلت**».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضب الوارد عليهم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي اختاروها وقدَّموها على رعاية دار الآخرة، وهو العبادة والطاعة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الذين ثبت كفرهم في علم الله تعالى بسوء أفعالهم في الدنيا ومعاندتهم لأوامر رب العالمين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلا يُصْغُون لقول الحق ولا يُبْصرون الآيات البينات المرشدة إلى إطاعة الرسل ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ حيث ضيعوا ما عندهم من رأسمال الأعمار وصرفوها فيما لم يفدهم إلا النار ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلى دار الإسلام وهم أمثال عمار ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ أي عذبوا على الإرتداد ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟﴾ الكفار ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لسيئاتهم التي فعلوها قبل ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ ينعم عليهم مجازاةً لما صنعوا. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف منصوب برحيم ﴿تَأْتِى كُلُّ

نَفۡسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي تدافع عنها وتسعى في استخلاصها من العذاب بالإعتذار إلى الله تعالى ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بزيادة العذاب على ما يستحقونه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ والمعنى جعلها الله تعالى مثلاً لأهل مكة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فَأَبْطَرَتْهُمُ النعمةُ ففعلوا ما فعلوا فجوزوا بما جُوزُوا. ودخل فيهم أهل مُكة دخولاً أولياً ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ أي ذات أَمْنٍ لا يأتي عليها ما يوجب الخوفَ ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾ أقواتها وما يتمتعون به ﴿رَغَدٗا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي من جميع نواحيها ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ وأنكرت أنها من الله بل نسبوها إلى قوة سواعدهم وكثرة مساعيهم ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ في اللباس إستعارة مصرحة حيث شبه ما غشي القومَ مِن أثر الخوف والجوع وضررهما الشامل لهم باللباس فاستعير له اسمه إستعارة مصرحة تحقيقية لأن ما غشي القرية أو القوم من أثرهما أمر محقق محسوس كما يحتمل أن يكون فيه إستعارة مكنية بأن يشبه لباس الجوع والخوف بالطعم المرّ البشع بجامع الإستكراه. وقد طوى ذكر المشبه به فتكون هناك إستعارة مكنية، وقرينة الأولى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف، وأما قرينة المكنية فهي الإذاقة الموهومة المستعارة للإذاقة الحقيقية ادّعاءً إستعارة أصلية، ثم يشتق من الإذاقة الفعل المذكور المستعارة للفعل المطوي المعبر عنه بقوله أذاقها الله المراد به إذاقة واقعية كاستعارة الأظفار الوهمية لأظفار السبع المحقق ادعاءً في قولهم «أظفار المنية نشبت بفلان» وقوله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ أي أن تلك الإذاقة تنشأ عما صنعوه من كفران نعمة الله تعالى ولقد جاءهم رسول منهم أي من عشيرتهم فكذبوه في رسالته من الله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون ومتلبسون بالظلم حين ذاك، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها

الناس الباقون من الجماعة الظالمة ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وذروا ما تفترونه مما تحرمونه بهواكم ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ واعترفوا بأنها من الله المنعم في الحقيقة واحمدوه عليها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي إن صح ما تزعمونه من أن عبادتكم لأي شيء عبادة لله رب العالمين.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ تعليل لحل ما أمرهم الله بأكله مما رزقهم يعني لم يحرم عليكم ربكم إلا ما ذكر هنا فكلوا مما سواه. ثم الحصر إضافي أي إنما حرم الله تعالى أكلَ هذه الأشياء دون ما حرمتموه أنتم من البحائر والسوائب ونحوها. فلا تنافي الآية الكريمة تحريم أشياء غير ما ذكر فيها كذوات الأنياب من السباع وذوات الأظفار من الطيور والحشرات السامة والحيوانات المستقرة ونحوها ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي دعته الضرورة إلى تناول شيء من تلك المحرمات حال كونه ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٖ﴾ متجاوز مقدار الضرورة وسد الرمق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه على ذلك. ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ مفعول به للقول و﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ بدل منه، وما في قوله تعالى ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾ موصولة واقعة على البهائم، وعائد الموصول محذوف وبيان الوصف محذوف مستفاد من شهرة توصيفهم لها بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. يعني ولا تقولوا للبهائم التي تصفها ألسنتكم بوصف من الأوصاف المذكورة الكلامَ الكذبَ المخالف للواقع، وهو قولكم ﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ وقوله تعالى ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ اللام فيه للعاقبة والصيرورة، أي وعاقبة قولكم ذلك الإفتراء على الله تعالى بأن تلك البهائم

محرمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ ويتعمدون الكذب عليه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بمطلوب له شأن ووزن في الآخرة ﴿مَتَٰعٞ﴾ أي لأن المنفعة التي قصدوها وراء ذلك متاع ﴿قَلِيلٞ﴾ يتمتعون به في الدنيا ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ خاصة دون غيرهم ﴿حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل نزول هذه الآية، وذلك ما في سورة الأنعام من قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ الآية ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بذلك التحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك كما قال الباري بقوله ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ من كفر أو معصية أو افتراء على الله تعالى ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي بسبب جهالة تدعوهم إلى تلك الضلالة ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ فآمنوا بعد الكفر وصَدَّقوا بعدَ الإفتراء وأنابوا إلى الله وتابوا إليه ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي من بعد عمل السوء والتوبة ﴿لَغَفُورٞ﴾ لذنوبهم و﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم يقبل توبتهم. فإنه يحب التوابين.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ إرشاد للرسول النبي الأمي العربي محمد ﷺ بالثبات على العزم والقوة والتخلق بأخلاق أبيه إبراهيم في نشره التوحيد في العالم بدون مبالاة بمزاعم المشركين، وأنانياتهم، والصبر على أذاهم، وبيان لبطلان مزاعم المشركين من العرب أنهم على دين إبراهيم بأن إبراهيم كان عابداً لله وحده مائلاً عن الباطل إلى الحق وموحداً مخلصاً ولم يكن من المشركين، فمزاعم أولئك الكفار باطلة عاطلة فاسدة، وإيذان بأن نسبة اليهود أنفسهم إلى دين إبراهيم، أو أن إبراهيم كان على دينهم لا أصل لها ولا أساس للتباين بين آداب اليهود وآداب سيدنا إبراهيم فإنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. والأمة بضم الهمزة الرجل الجامع للخير والإمام ومن هو على الحق ومخالف لسائر الأديان، وهذه المعاني تطلق على سيدنا إبراهيم

بالحقيقة. وجاءت بمعنى الجماعة الكثيرة من الناس، ويجوز إطلاقها بهذا المعنى عليه أيضاً تجوزاً لاستجماعه كمالات لا توجد إلا متفرقة في أمة جمة. والقانت: المطيع. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور دينهم الإعتقادي أو العملي ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ صفة ثالثة لأمة والجار والمجرور متعلق بشاكراً ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربه واختاره لحمل أعباء الرسالة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سالم من الخلل موصل إلى الله عز وجل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي صفة الرسالة ودعوة الناس إلى توحيد الله وقد كان أهلها ووفى بحقها ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لحمل أعباء الرسالة الواصلين إلى الدرجات العالية المناسبة لمقام المرسلين.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا رسولي الكريم المولود من نسل إسماعيل بن إبراهيم ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وعقيدته الراسخة الرفيعة الوحيدة وهي توحيد الباري سبحانه ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر. وهذا الأصل أمر مشترك بين جميع الأنبياء والمرسلين لقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. وهذا الإتباع هو الموافقة في أصل الدين ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ يعني إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة فيه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود، وليس السبت من شرائع إبراهيم عليه السلام كما زعمت اليهود ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المختلفين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيهم ومخالفتهم له في ذلك حيث لم يقبلوا منه يوم الجمعة حتى بدله بيوم السبت وفرض عليهم العبادة وحرّم عليهم الصيد فيه مع أنهم خالفوه في ذلك أيضاً حتى غضب الله تعالى عليهم وجعلهم من الممقوتين.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ معناه ما دام أنت من الرسل الهُداة إلى الطريق القويم وعلى عقيدة جدك العظيم إبراهيم فادع إلى سبيل ربك أي الإسلام الذي هو سبيل معين للوصول إلى رضاه بالحكمة أي بالحجة القاطعة المحكمة المزيلة للشبه عن قلب المدعويين، وهذا إذا كانوا في مستوى فهمها وكانوا من أهل الاستفادة من البراهين القطعية والحجج العقلية ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي الخطابات المُقْنِعَة للغير النافعة للناس على مجاري عرفهم وعاداتهم أي بأن تكون مقدمات الدليل مقبولة عندهم ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وجادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة من الرفق واللين، وعدم جرح عاطفة المقابل، والتنازل له بحسب المقام، والاستماع لكلامه، واستعمال المقدمات المشهورة... وهذا النوع من طرق الدعوة هو المطلوب منك للوفاء بتبليغ الرسالة، وليس عليك الهداية وإخراج الناس من الضلالة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي أمرك بدعوة الناس إليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إليه فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أحكم الحاكمين.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي وإن أردتم معاقبة الناس الذين يعاندون الحق وقاتَلُوكم وقتلُوا منكم ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي مثل ما فعَلُوا بكم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عَن المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي فالصبر خير من المعاقبة والإنتصار بها للصابرين الذين يبتغون وجه الله ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جانبهم من أنواع الآلام ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ مصحوباً بالشيء وملابساً به ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فإنه هو المفيض لقوة الصبر على القلوب عند تفاقم الكروب ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ عليهم أي على الكافرين الماكرين ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ صدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن نفحة من نفحات القدس تزيل هموماً واردة من أعداء الجن والإنس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ معية الرأفة وإفاضة الرحمة وشرح الصدر وتقوية الهمة ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في الطاعة ويخلصون لله حتى تحصل لهم وحدة الشهود ولا يرون الخير والشر إلا من الله تعالى.

الجزء الخامس عشر
سورة الإسراء

مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر سبح تسبيحاً بمعنى نزه تنزيهاً. وذلك الوزن مسموع في المصادر كالغفران. وقيل إنه اسم مصدر لأن قياس مصدر سبح التسبيح، وقد يستعمل علماً للتسبيح بمعنى التنزيه فيقطع عن الإضافة لأن الأعلام لا تضاف. ومع أنه موضوع للتنزيه فلا ينافيه إرادة التعجب. والمقصود: ما أبعد اللَّه الذي له قدرة الإسراء بعبده ليلاً عن جميع النقائص فله الكمال المطلق والتصرف المطلق في الممكنات كلها ما خفي منها وما انجلى، وما سفل منها وما عَلا، فلا يكون اصطفاؤه لعبده المخصوص به إلا حكمة وصواباً. وأسرى وسرى بمعنى واحد وهو سير الليل أو أكثره فليست همزة أسرى للتعدية، وقيل: الهمزة للتعدية ومفعول محذوف، والتقدير: أسرى ملائكته بعبده أي سبحان الذي جعل ملائكته سارياً بعبده. وليلاً منصوب على الظرف، وفائدة ذكره مع وضوح أن السرى لا يكون إلا في الليل الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بعينه ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، أو لنظافته وبعده عن الأقذار، ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ لكونه مهبط الوحي من لدن موسى عليه السلام إلى زمان الرسول ﷺ، ومتعبد الأنبياء ومحفوفاً بالأنهار والأشجار والبساتين وإنما أسرى بعبده قال تعالى ملتفتاً من الغيبة إلى التكلم ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كذهابه في برهة من الليل الواحد مسافة مسيرة شهر

تقريباً، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له ﷺ هناك، وسائر ما شاهده مِن ملكُوتِ العالم. . . ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال الكافرين و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لأفعالهم ويعلم أن حبيبه محمداً ﷺ تأذى منهم فجازاه بما ينسيه تلك الأذى وما فوقها أو أنه هو السميع لأقوال محمد ﷺ وبصير بأفعاله، ويعلم أنه عبد مستحق للإعلاء والترقية وإراءة عجائب الأمور مما يطمئن به وتسكن به نفسه المقدسة، وتتوجه به إلى الحي القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

وهذا الإسراء، وإن كان فيه وفي وقته وكيفيته أقوال كثيرة، إلا أن الراجح منها أنه كان بالروح والجسد في ليلة الإثنين السابع والعشرين من رجب، عندما كان الرسول محمد ﷺ في حجر إسماعيل عليه السلام عند الكعبة الشريفة لما روي أنه عليه السلام قال: «**بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق. . .**» الحديث الشريف. والظاهر أن المراد بالمسجد الحرام المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه، وكان ﷺ إذ ذاك في الحجر منه. فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا في الحجر - وفي رواية في الحطيم - بين النائم واليقظان، إذا أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه، فاستخرج قلبي فغسله، ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض يقال له: «البراق» فحُمِلْتُ عليه**» قال الراوي: وهو البراقُ يضع خطوه عند أقصى طرفه.

وفي رواية أنه ﷺ كان في بيت عمته فاختة بنت عبد المطلب المكناة بأم هانىء الصحابية. فقد أخرج النسائي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير من حديثها أنه ﷺ كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء فأُسري به ورجع من ليلته وقص القصة عليها. وقال: «**مُثلَ لي النبيون فصليتُ بهم**» ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشاً. . . الحديث وهذا هو الإسراء.

وفي الحديث وسعى رجالٌ إلى أبي بكر وأخبروه بالقصة، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه على ذلك؟ قال: إني أُصدقه على أبعد من ذلك؛ أُصدقه خبر السماء غدوةً أو روحةً! فسمي الصديق.

وكان في القوم من يعرف بيتَ المقدس فاستنعتوه إياه، فجلي له فطفِق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا أما النعتُ فقد أصاب فيه. فقالوا: أخبرنا عن عيرنا فهي

أهم إلينا، هل لقيتَ منها شيئاً؟ قال: نعم مررت بعير بني فلان، وهي بالروحاء، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحالهم قدحٌ من ماء، فعطشتُ فأخذته وشربته ووضعته كما كان. فاسألوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا؟ قالوا: هذه آية. قال: و مررت بعير بني فلان؛ وفلانٌ وفلانٌ راكبان قعوداً، فنفرَ بعيرُهُما مني، فانكسر فاسألوهما عن ذلك. قالوا: هذه آية أخرى. ثم سألوه عن العُدَّة والأحمال والهبات، فمثلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك. وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، وفيها فلانٌ وفلانٌ يقدمها جملٌ أورق عليه غرارتان مخيطتان، قالوا: وهذه آية آخرى. فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه، إذ قال قائل هذه الشمس قد طلعت وقال آخر: هذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلانٌ وفلانٌ كما قال، فلم يؤمنوا وقالوا: هذا سحر مبين! قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

وأما السنة التي وقع فيها الإسراء ففيها أقوال منها ما ذكره النووي في الروضة أنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر. ونقل عنه بعض المحققين أنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث. وعن ابن حزم دعوى الإجماع على ذلك.

وأما معراجه ﷺ ففي صحيح البخاري أول كتاب الصلاة ما نصه: عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن النبي ﷺ قال: «**فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام، فَفَرَجَ صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطْبَقَه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: مَن هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحدٌ؟ قال: نعم مَعِي محمد ﷺ فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح عَلَونا السماء الدنيا، فإذا رَجَلٌ قاعد على يمينه أسْوِدة، وعلى يساره أسْودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول. فَفَتحَ**» قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم. غير

أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ بإدريس قال: **مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: إبراهيم** عليه السلام. **وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصاري يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. قال أنس ابن مالك: قال النبي ﷺ: ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاةً فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ﷺ، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تُطيق ذلك. فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وَضَعَ شطرها. فقال: راجعْ ربك فإن أمتك لا تطيق. فراجعت فوَضع شطرها. فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون لا يبدلُ القول لدي. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: استحييتُ مِنْ ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان ما أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حَبائِلُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المِسك»**، انتهى.

وفي فتح الباري: وقال بعض من اعتنى بالبخاري: الحبائل جمع حبالة، وحبالة جمع حبل على غير القياس، والمرادُ أنّ فيها عقوداً وقلائد من اللؤلؤ انتهى.

ثم إن الإسراء والمعراج بالروح والجسد معجزتان من أهم المعجزات وأقصاها في الإدراك، ومع ذلك، فمادامتا من الممكنات، والله تعالى قادر على كل ممكن، فلا محالة يجب على كل مؤمن الإيمان بهما. أما الإسراء فهو منصوص الكتاب بقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فإن العبد اسم للروح والجسد، والسري بالليل ظاهر في حركته بهما وإلا فلا غرابة في الإسراء بالمنام ولا مجال للتعجب عنه بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، ولما كانت المعجزات من خوارق العادة فلا فرق بين سري شخص في بعض ليل المسافة البعيدة ولا صعوده من الأرض إلى ما فوق السماوات، وبين قلب العصا من الخشب حية تسعى،

وجعل نهر النيل يبساً تمر عليه القوافل، وبين إحياء عيسى للأموات وإبراء الأكمه والأبرص، وكل من له إيمان بالقرآن الكريم يعلم ذلك كله، ويعلم أن وصول عرش بلقيس من سبأ إلى القدس خارق للعادة في طرفة العين، ومن لا إيمان له بالقرآن يعلم سرعة حركة المجموعة الشمسية حول الشمس، وحركة بعض تلك الكواكب على نفسها دورة في كل يوم وليلة. وكل ذلك واقع محسوس بالإرصاد ونسبتها مع جذبها ودفعها ودورانها المستمر إلى قوة لا شعورية خارجة عن أفق الشعور السليم، فلم تبق إلا نسبتها إلى الفاعل القادر المختار ونسبة قدرته إلى كل ممكن من الممكنات على حد سواء.

وفي كون الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعروجه منه إلى السماء إرشاد إلى الاهتمام بمهمتين:

الأولى: أن المسجد الأقصى كان مجمعاً للأنبياء والمرسلين ومهبطاً لوحي رب العالمين، والتبرك بآثارهم من شعار أهل الذكر والرسالة من رب العالمين.

والثانية: تعلق علم الله سبحانه وتعالى بأن الكفار بالدوام حاقدون على المسلمين وهم بالمرصاد للإستيلاء على تلك البقعة المقدسة وجعلها مركزاً لبث سمومهم إلى آسيا وأفريقيا الموطنين للمسلمين، وعلى ذلك أثاروا فتنة الحروب الصليبية هناك، وبعد إخراجهم منها أعادوا الكرة على المسلمين، بإرجاع اليهود إليها وإسكانهم فيها حتى يتسنى لهم تطبيق ما يريدون من الوقيعة بالمسلمين، وفي ذلك عظة للأمة المسلمة وعبرة وإرشاد لهم لليقظة والإنتباه الواسع للدفاع عنها واستعادتها إلى حظيرة الإسلام بأي ثمن كان. ومن أهم أسباب ذلك الوحدة والإعتصام بحبل الله المتين والرجوع إلى إرشاد القرآن المبين، فإن المسلمين قد ذاقوا أمر الأمرين في صيانتها حتى صانوها، ولم يرجع الأجانب إليها إلا بعد إضعاف قوى المسلمين وتفريق قواهم المتحدة وجعلهم على أصناف شتى. ولا تعود الكرة إلى المسلمين إلا بالتسلح بالإيمان والوحدة والاعتصام بالدين.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والجامع بينهما أن كلاً منهما يدل على مفخرة عظيمة

لذات عظيم؛ فإن إعطاء التوراة لموسى عليه السلام، وكلامه تعالى معه بدون واسطة بمنزلة معراج سيدنا محمد صلى الله عليه وآله لأنه منح موسى التكليم كما دعا عبده محمداً صلى الله عليه وآله وأسرى به وعرج به إلى ما شاء الله من المقام العالي وكلمه وناجاه وفرض عليه وعلى أمته الفرائض، وجعلها عماد دينه وأساس تقواه. أو أعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب أو موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ثم فسر جعله ذلك هدى لهم بقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي رباً تُفوضون إليه أموركم غيري وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منصوب على النداء، أو على الإختصاص. أي يا من مننا عليهم بحملهم في سفينة النجاة مع نوح حتى يسلموا من الغرق ويبقوا لنشر التوحيد في العالم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كثير الشكر لمولاه على ما أولاه من نعمة الرسالة وإخراج الناس من الجهالة والضلالة إلى الهداية والجلالة. عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً، أو طعم طعاماً حمد الله تعالى فسمي عبداً شكوراً. وعن عبد الله بن أحمد قال: شكره عليه السلام أنه كان يسمي إذا أكل، ويحمد الله تعالى إذا فرغ.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أعلمنا بني إسرائيل في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جواب قسم محذوف، وحذف متعلق القضاء للعلم به، والتقدير وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم وعلوهم وقلنا: والله لتفسدن إلخ ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء. ويجوز جعله جواب ﴿قَضَيْنَآ﴾ بإجراء القضاء مجرى القسم فيجاب بما يجاب به القسم و﴿مَرَّتَيْنِ﴾ منصوب على أنه مصدر لقوله ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ من غير لفظه والمراد إفسادين. ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي لتستكبرن عن

طاعة الله أو لَتَغْلبنَّ على الناس بالظلم والعدوان ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي أولى مرتي الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي تَرَدَّدوا وسط ديار بني إسرائيل لطلب الناس ليقتلوهم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ محتم التحقق في علمنا. وكان ذلك أيام الملك يواقيم الإسرائيلي سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل ميلاد عيسى عليه السلام في الدور الثالث من الأدوار الخمسة لبني إسرائيل، وكان سببه أنه صار بينه وبين بختنصر البابلي حرب فانتصر على الإسرائيليين، ولكنه بعد بُرهة من الزمان إستعاد الملك يواقيم قوة وثار على بختنصر وصارت هذه الثورة سبباً لعودة بختنصر على ديار الإسرائيليين ودخوله «أورشليم» القدس الحالي وتخريبها وقاد أكثر أهلها أسرى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الغَلَبة والإنتصارَ على الأعداء البابليين ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ كثيرةً بعدما نُهِبت أموالكم وقتل أولادكم ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ والنفير من ينفرُ معَ الرجل من عشيرته وأهل بيته للحرب ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم إزاء اللّهِ وعباده ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي لنفعها أي إن أحسنتم عادت منفعةُ الإحسان إليكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فالإساءة تعود لأنفسكم ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرة ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من مرتي إفسادكم ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بَعَثنا عليكم عباداً آخرين ليقهروكم وتظهر آثارُ قهرهم وعتوهم في وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في عهد البابليين ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ أي وليدمروا ما غَلَبوا عليه تدميراً.

وذلك كان في الدور الرابع من الأدوار الخمسة لبني إسرائيل وفي سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد، وذلك أنه في سنة اثنتين وأربعين قبل الميلاد استعاد (أنتيفون) ابن أريسْتُوبُولَ الإسرائيلي حرية البلاد واستقلالها، ولكن لم تأتِ سنة (٣٧) قبل الميلاد حتى ساعَدَ الرومانيين الملكُ هيرود الإسرائيلي على تدويخ مملكة يهودا فاستولى عليها وقتل (انتيفُون) و(هيركانَ) الذي هو آخر ولدٍ من ذرية (ماكابيه) وتحت حكم (هيرودانتياس) حكم على عيسى عليه السلام بالإعدام. ولكن الله تعالى عصمه كما يقول تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ فلما عسف الرومانيون باليهود وسامُوهُم سُوءَ العذاب ثارُوا فاضطَّر الرومانيون لأخذ (أورشليم) سنة سبعين بعدَ الميلاد وأمرَ ملكهم (تيتوسُ) بإحراق مَعبَدهم وذبح مُعْظَم أهلها وبَيْعِ من بقي منهم، فلم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية، ولكن ثورة أخرى جَعَلتِ الإمبراطورَ الروماني (ادرْيان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية

يأمرُ بهدم المدينة من أساسها وذبح خمسمائة ألف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة. ولكن هذا التشريد الهائل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم ومن هذا التاريخ بدأ الدور الخامس الإسرائيلي إلى أن جاءَ دورُ وعدِ بلفور المشؤوم وإعطاء اليهود أرض فلسطين وإسكانهم هناك بحماية خاصة وقوة هائلة من الأوروبيين كما نراها بعيوننا وإن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.

وإنما فَسرتُ وَعدَ أولاهما بوعدِ استيلاء بختنصر البابلي على أورشليم وَوَعْد الأخرى باستيلاء (أدريان) الروماني عليها، مع أنه كان لملك بابل بختنصر قبل ذلك استيلاء على أورشليم وقادَ الملك (يواقيم) و(سَدْياس) إلى أرض بابل أسيرَيْنِ، وكان لملك آشور (سالمانازار) قبل بختنصر إستيلاء على مدينة السامِرَة وقادَ أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده، لأن الحركة الهائلة المُخيفة التي وردت على بني إسرائيل في عهد بختنصر وغارته الأخيرة في عهد الملك (ادْرِيان) الروماني لم يكن لها نظير في تاريخهم، ولذلك نُفَسر الوعدين بما ذكرنا.

وما يتخيل من ظاهر الآية الكريمة أن الداخلين في البلاد الإسرائيلية أخيراً هم أعيان الداخلين فيها أولاً ليس بمراد، وأن الأعداء وإن كانوا من غير صنف الأولين فهم أعداء والعدوُّ عدو كيفما كان وأينما جاء.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعدَ البعث الثاني إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ للإفساد في البلاد على عادتكم السابقة ﴿عُدْنَا﴾ لمعاقبتكم على سنتنا. وكثيرٌ من المفسرين قالوا: إن الشرط تحقق في تكذيبهم للنبي العربي محمد ﷺ وقصدهم قتله فعاد الله عليهم بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على الباقين، ولكن المحققين يقولون: إن العود لم يتحقق إلا في تاريخ ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ميلادية عند اعتراف الغربيين بدولة اليهود وإسكانها في فلسطين، لأن العود إلى الدولة والسلطة لم تتحقق إلا في ذلك الوقت. لأن ظاهر قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ العود إلى الدولة والسلطة الرسمية والبغي على العباد والإفساد في البلاد. والعود بهذا المعنى لا يتحقق إلا بما تقرر لهم من السيادة الرسمية. ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ كما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله**

هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود». والغرقد شجر معروف له شوك ينبت بأرض بيت المقدس، وهناك مقتل اليهود. وأول بعض شجر الغرقد ببعض الكفار الموالين لليهود، أي يكون الكفار على عدائهم إلا بعضاً مخصوصاً منهم، فهو لا يرغب في قتالهم. ومما يستأنس على هذا المعنى بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي سجناً حاصراً لهم محيطاً بهم فإنه يدل على اقتراب تلك الأيام من أيام آخر الزمان الذي تحقق أهَمّ علاماته من قلةِ العلم والإيمان والأمان وسائر أخلاق المؤمنين.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ جملة مستأنفة لبيان نعمة أخرى أخرى من نعمة الإسراء والمعراج وهي القرآن المُعجز بألفاظه ومبانيه، الهادي بأنواره ومعانيه. فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناكه ﴿يَهْدِي﴾ الجن والإنس كافة بلا فرق بين عنصر وعنصر إلى الحق أي الطريقة ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق الموصلة إلى سعادة الدارين ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان بالله ورسوله المؤيد بالآيات البينات ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ لا يدرك مداه الشامل لما ذكرناه ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقوله ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾ عطف على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ والمعنى: أنه يبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم. أو عطف على يبشر بإضمار يخبر.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ بيان لحال الإنسان وضعفه عن مقاومة الشدائد والبلايا كما هو ضعيف عن شكر النعم والعطايا فقال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ على نفسه بالشر وهو الموت والفناء عند تفاقم البلاء ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي دعاء كدعائه بالخير وطلب الأولاد والأموال والجاه ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله. روي أنه ﷺ دفع أسيراً إلى سَوْدَةَ بنت زمعة أم المؤمنين

فترحمت عليه فَأَرْخَتْ كِتافه، فهرب، فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم، فقال ﷺ: «**اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له**» فنزلت.

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض الأدلة على القدرة القاهرة الباهرة التي كما تدل على وجود الباري ووحدته تدل على أن معجزة الإسراء والمعراج وأمثالهما ليس بأعظم من خلق الشمس والقمر ودوران القمر حول الأرض ودوران الأرض حول الشمس بطول الأزمان بدون فتور، حتى يستنتج منهما العقلاء وذوات الأرواح والإحساس أوقات منامها ومقامها وعملها وراحتها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي جعلناهما آيتين دالتين على قدرة الباري وحكمته في خلق النهار للعمل والتعب، والليل للراحة والإستراحة ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي فجعلنا الليل مظلماً والنهار مضيئاً أو جعلنا لهما آيتين هما الشمس والقمر ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهي القمر وجعلناها في نفسها مطموسة لا نور لها إلا ما يستفيد من آية النهار أعني الشمس ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره أي جعله مُبصراً وذلك ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو كسب العلم والرزق في النهار وكسب الراحة للحواس والأعضاء بمنام الليل ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلق بها غرض الإنسان لمعرفة الحوادث التاريخية وأسبابها، وجعلها درساً نافعاً ودفتراً واسعاً لاكتساب المعلومات القيمة ومعرفة طريق الحياة والحذر من البينات ﴿وَ﴾ لتعلموا ﴿ٱلْحِسَابَ﴾ لأوقات العمل والراحة التي يتعلق بها أعمال البشر في التعليم والتدريب والتهذيب وما يحتاج إليه البشر من استخدام الأجراء والعمال وأوقات العبادات وأداء المناسك وغيرها ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ مما تفتقرون إليه للمعاش والمعاد وطرق تطور العباد، وإصلاح الأنفس وتعمير البلاد، ومكافحة أهل الفساد بإعداد العدة وتوفير الزاد ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ في هذا القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل الهداة إلى السبل ﴿تَفْصِيلًا﴾ مناسباً لتطور أهل الزمان.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ منصوب على الإشتغال ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي عمله الصادر منه بكسبه واختياره. وسمي طائراً بالمجاز كأنه طار إليه من الغيب ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي ثابتة في رقبته وذمته، هذا في الدنيا ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صحيفة عمله ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ الإنسان المقيد به ﴿مَنشُورًا﴾ غير مطوي أي واضحاً غير مخفي: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي ويقال له من جانب ملائكة الحساب: اقرأ كتابك واعلم ما فيه ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهدايته وعمل بما يرضاه ربه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ﴾ عن طريق عنايته ولم يهتد بهدايته ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي فإنما وبال ضلاله على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ أي ولا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من العقلاء البالغين حتى نبعث إليه بالذات أو بالواسطة رسولاً يهديه إلى الحق ويبين منهج عقيدته وعمله وطموحه وأمله. وهذه الآية صريحة في أن الإنسان العائش في الفترة وانقطاع الوحي السماوي واندراس الشريعة السابقة، ليس مكلفاً في الدنيا ولا معاقباً في الآخرة، وبما أنه ليس هناك واسطة بين الجنة والنار فهم في الجنة لكن على درجة تناسب حالهم، وكما أن نص الكتاب هذا فأصول أهل العلم تدل دلالة قاطعة على أن الغافل لا يكلف، وأما إلزامه غرامة ما بتلف فمن باب خطاب الوضع، ومن هنا يظهر بوضوح ما أفاده المحققون كالغزالي ﷺ أن الناس المتوطنين في الجزر البعيدة عن المعمورة، وسكان الوديان العميقة السحيقة، وأهل قمم الجبال الشاهقة ممن لم تصلهم البعثة ليسوا مكلفين ما داموا كذلك. وأما اليوم الذي نرى ما يجري، ونسمع ما يقال، ويذاع فيه فلم يبق مجال لأحد من العقلاء أن يعتذر بعدم وصول البعثة إليه. نعم إن الناس الضعاف في العلم والمقدرة الواقعين تحت سيطرة دعاة السوء عذابهم أقل من عذاب المسيطرين عليهم المحرفين لهم عن طريق الحق والصواب.

ولما بين الباري سبحانه أنه جرت سنته على ترتب الحساب والعذاب على البعث وتمرد الناس العابثين اللاهين اللاعبين بأصول الدين عقب الآية السابقة بقوله الكريم ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي نهلك أهلها وندمر ساحة العمارات كأن لم يكن

عليها قصر ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالطاعة وكف النفس عن الغفلة والغرور والفسق والفجور، وبشكر الخالق على النعمة والدثور ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وخرجوا عن طاعة باريها وتمردوا وعاندوا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ بحيث لم يجدوا للدفاع ولياً ولا نصيراً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تميز لكم، وهي خبرية. أي وأهلكنا كثيراً من أهل القرون الماضية ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ عليه السلام كعاد، وثمود، وشعب نمرود، وأهل مدين المردود، وفراعنة مصر ذوي الكفر والجحود، وأصحاب الأخدود النار ذات الوقود... والقرن مائة سنة على الراجح. ولم يكن إهلاكها منا إلا لتمردها وطغيانها وبغيها وعدوانها على بني الإنسان ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وكفى بربك على العقاب قديراً.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يعني أنا أرسلنا الرسل وأوضحنا السبل، وبَينا على لسان المبلغ الصادق أن الله خلق العباد للرشاد، لا للبغي والعناد والغي والسفه والفساد، وأن الدنيا دار المتاع المؤقت وأن الآخرة دار الجزاء المؤبد. وبعد ذلك ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي متاع الدنيا الحاضرة عنده ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي في الدنيا العاجلة ﴿مَا نَشَآءُ﴾ من المتاع ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي لمن نريد تعجيله له منهم. وإلا فليس كل ما يريده أهل العاجلة يأخذه فما كل ما يتمنى المرء يدركه ﴿ثُمَّ﴾ بعد وفاته وبعثه وحسابه ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكان ما عجلنا له ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا﴾ عند الله ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مطروداً من رحمته تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي الدار الآخرة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي السعي اللائق لنيلها ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك السعي ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله إيماناً صحيحاً لا يشوبه ما يقدح فيه

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً مثاباً عليه هناك. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي ونمد كلاً من الفريقين هؤلاء المريدين للعاجلة وهؤلاء المريدين للآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي من معطاه الواسع الذي لا منتهى له ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعاً عمن يريده، بل هو واصل إلى كل من أراده له ربه.

﴿ٱنظُرْ﴾ أيها الناظر المتبصر المتفكر ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها، لأن التفاوت فيها بالجنة ودَرَجاتها العالية ومثوبة الله، وبزيادة على ذلك من اللقاء هناك، وما النسبة بين من يراه مسروراً ومن يُحْرم منه مقهوراً. وفي بعض الآثار أن النبي ﷺ قال: إن بَيْن أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها. وقد أرضى الله تعالى الجميعَ فيما يغبط أحدٌ أَحَداً. وصح أن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر. ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب مع الرسول والمراد به أمته ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي فتمكث في أسوأ حال ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الله ﴿مَّخْذُولًا﴾ حائراً تائهاً متفكراً.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ من هذه الآية إلى آخر آية الثماني والثلاثين بيان لصفات وأعمال هامة من شعار الإنسان الكامل والعبد الفاضل بحيث إذا حاز عبد تلك الصفات اعتبر متميزاً بأحسن الصفات ومتوسماً بأعلى السمات، منها ما يتعلق بالإعتقاد، ومنها ما يتعلق بغيره، وهو إما متعلق بأقرب الإنسان إلى الإنسان وأحقهم بالرعاية أعني الوالدين. أو بمن يليه من الأقارب وغيرهم. ومنها ما هو نهي عن اقتراب الرذائل وما يتعلق بها من الحقوق

الثابتة بينه وبين غيره، ومنها ما يتعلق برذائل نفسية شخصية، ويختمها بما بدأ به أولاً. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي وأمر أمراً مقطوعاً به بأن لا تعبدوا إلا إياه أي خصصوا عبادتكم به تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وبأن تحسنوا إليهما إحساناً. وقوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا﴾ كلمة إما فيه مركبة من إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد. ولذلك صح إلحاق نون التأكيد بالفعل بعدها. وقوله ﴿عِندَكَ﴾ بمعنى في كنفك ورعايتك. وقوله ﴿الْكِبَرَ﴾ مفعول به و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل يبلغن، والجملة ما مع بعدها بيان لجملة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ باعتبار بعض الصور ويعلم حال سائر الصور بالأولى. وحاصله فإن بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وضعف القوى مطلقاً، ولانَتْ قلوبُهما بحيث لا تتحمل أي عنفٍ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا﴾ أو لأحدهما في حال من الأحوال المزعجة لك ﴿أُفٍّ﴾ ولا تتضجر مما يستقذر منهما، ولا تستثقل من مؤنتهما أو مؤنة أحدهما شيئاً ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنّهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ محترماً لا خشونة ولا سوء أدب فيه.

ولما نهى الله سبحانه وتعالى عن التأفيف والنهر لهما نهياً تحريمياً علم أنّ ما فوقهما من الأقوال والأفعال الغير المناسبة لهما حرام بالطريق الأولى. وذلك المعنى إما مستفاد من القياس الجليّ، أو من العُرْفِ، أو بطريق المجاز. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا﴾ أي للوالدين ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ أي تذلل وتواضع لهما ففي الذل إستعارة مكنية حيث شبه الذل بطائر يطير في الهواء وينحط ويتنزل من علو، وذكر الجناح قرينة لها، وفيها إستعارة تخييلية. أو في الجناح إستعارة مصرحة حيث شبه العطف ولين القلب بالجناح وإضافته إلى الذل قرينة، وذكر الخفض ترشيح لمناسبته للمشبه به. وقوله ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي من فرط رحمتك عليهما. وتنبه حتى لا يظن الوالدان أو أحدهما فيك تعنتاً ويَرَيا أن خفض الجناح منك نوع من التأثر وتضجر القلب فيزداد ألَمهُما النفسيُّ من ذلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي وادع الله سبحانه أن يرحمهما برحمة خالدة ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي كما ترحما عليّ عندَما كنتُ صغيراً لا أدبّر نفسي وأتَيا بما احْتَجْتُ إليه، وتَرَجيا مع ذلك دوامي وبقائي في الدنيا.

روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبويّ بلغا من الكبر بحيث أنّي ألي منهما ما وَليا مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: «**لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد فوتَهما**» وقوله تعالى ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي

نُفُوسِكُمْ﴾ تأديب وتنبيه للأولاد على تصفية النفس من كل ما يخالف الإخلاص فإن العمل بدون إخلاص ليس له نتيجة إلا الإفلاس. فقال ربكم أعلم بما في نفوسكم من قصد البرّ إليهما وفاءً بحقهما وأداء وامتثالاً لأمر الله تعالى أولاً ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي إن تكونوا صالحين وقاصدين للصلاح تكونوا أوّابين رَجّاعين إلى الله، وعند ذلك يغفرُ الله تعالى لكم فإنه كان للأوابين غفوراً.

ولما أمر الله تعالى عبده المخلص بإخلاص العبادة له وتخصيصه بالطاعة والتذلل وتوحيده، ثم أمره بالإحسان إلى الوالدين، وهما أحق الناس بالرعاية، أمره بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي صاحب خصلة القرابة من العصبات وذوي الفروض وذوات الأرحام ﴿حَقَّهُۥ﴾ من الصلة وحسن المعاشرة في الحضور، وحفظ الغيب في الغيبة، والمساعدة بما يمكن عند الكرب. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وآتهما حقهما وهو الزكاة إذا كان الأمر للوجوب، وحقهما من زيادة المساعدة إذا كان الأمر للندب، فإن رعاية المساكين وأبناء السبيل صدقة تطوع ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي ولا تصرف المال فيما لا ينبغي فَأعطِهِمْ مقدار الكفاية، ولا تنفق مالك فيما لا يحتاج إليه، ولا في المعاصي ولا للسمعة ولا للرياء. ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي كانوا أمثالهم في الشرارة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي مبالغاً في الكفر والتعنت والعناد وبذلك خرج عن طريق الرشاد ولعن إلى أبد الآباد ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي وإن أعرضت عن المذكورين لفقدان المال وانتظار حصوله في المستقبل ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي فقل لهم في طلب السماح منهم قولاً ليناً يرتضونه ولا يتأذون به حتى حصل المجال آتيتهم بقدر الحال.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.. الآية

في الآية الكريمة تمثيلان بليغان لمنع الإنسان الشحيح من الشح والمبذر من التبذير زجراً لهما عن الصفتين الرذيلتين ودعوة لهما إلى التوسط بينهما، لأن خير الأمور أوسطها. عن ابن عمر ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «**الإقتصاد نصف المعيشة**» وفي رواية عن أنس مرفوعاً: «**التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين**» ويستفاد ضمن الآية تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الموجود وحاجة الإنسان إليه وعدم صرفه في قضاء الحوائج بوجود اليد والقوة لصاحبها وربطها بالعنق بحيث لا يقدر على تحريكها ودفع أي أذى من صاحب وجلب أي خير إليه. كما أنه يستفاد تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الكثير وإفاضته على الناس المحتاجين وغير المحتاجين وصرفها المناسب وغير المناسب بإنسان له يدان مبسوطتان ممتدتان يمنة ويسرة بحيث لا تتحركان لمنع الأذى وعمل مفيد له، فكأن الإنسان ما له يد، أو له يدان لا تعملان ولا تأتيان بنفع لصاحبهما وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ متفرع عن المتعاطفين أي فتصير لذينك الأمرين ملوماً مذموماً عند الله وعند عقلاء الناس بالبخل واللؤم والإسراف وإتلاف المال وسوء التصرف نادماً متحسراً، أو منقطعاً عن الناس لا يميل إليك أحد ولا يأتيك من أحد مَدَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لقوله السابق ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الآية وللنهيين الواقعين قبلها. يعني إن أعرضت عن الإنفاق على الناس أولاً وإن بخلت على الناس في صرف المال، أو بسطْتَ اليدين على الكل، فإن ذلك لا يؤثر في تغيير ما قسمه الله تعالى بين الناس من المعيشة، فلا تجعل نفسك عاصية عن إطاعة أوامر قدسك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ عالماً بسرائرهم بصيراً عالماً بظواهرهم، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم بل يخفى على كل أحد سواه ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي فقر وقلةٍ في الأرزاق، فالمراد بالأولاد البنات وبالقتل وَأدهن في الحفرات ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي نحن نرزقهم لا أنتم ونحن نرزقكم أيضاً وأنتم آباؤهم لا أنتم ترزقون أنفسكم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا﴾ في حد ذاته لأنه إبادة نفس معصومة بدون موجبات معلومة، فهذا التعليل كاف في منع الآباء عن قتل الأولاد، وإنما العلة الأولى لردع النفوس المخطئة المتوهمة عما توهمته من تحمل أعباء النفقات.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مقدماته كالنظر بشهوة، والمسّ، والغمز،

والخلوة، والكلام الفاسد لهن، واستمالة قلوبهن. . . فضلاً عن مباشرة نفس الإيلاج المحرم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزنا ﴿كَانَ﴾ في جميع الملل ولم يزل ﴿فَٰحِشَةً﴾ يستنكرها الطبع السليم ﴿وَسَآءَ﴾ سبيل الزنا ﴿سَبِيلًا﴾ لقضاء الشهوات الجنسية لأن صاحبها إذا تعوده استمر عليه وذلك موجب لجلب الفتن والمنازعات والويلات وخراب العائلات وعدم استقرار النفوس بمن يصاحبه من الأزواج والزوجات، وطبيعة المرء متحاشية عن قبول تلويث الفراش بالعمل الفاسد، وحتى الحيوانات والطيور فكيف بالإنسان الشهم الجسور الغيور! علاوة على كبر إثمها في الدين. فعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. . .**» وجاء في روايات «**إنه إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان**» ولذلك عد من الكبائر وشرع عليه حد الجلد لغير المحصنين، والرجم بالحجارة لهما، وكفى بذلك عاراً وبواراً.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني حرم الله قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا بسبب من الأسباب التي توجب قتلها، بأن قَتَلَتْ نفساً معصومة فقُتلت قصاصاً، أو كان رجلاً مُحصناً وزنى، أو امرأة محصنة وزنت، أو ارتد عن دين الإسلام، وفسر الحق بما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**» وأما قتل الصائل على الإنسان فلاعتباره في حكم القاتل في الجملة، وقتل تارك الصلاة

لاعتباره من المرتدين، وقتل اللائط لاعتباره زانياً. والتفصيل في المطولات. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي بغير حق يوجب قتله ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لمن يلي أمرهُ وارثاً أو سلطاناً إذا لم يوجد الولي ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي تسلطاً واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: القصاص، أو الدية. وقد تتعين الدية كما في قتل الخطأ ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي الولي ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أي فلا يتجاوز الحد المشروع بأن يقتل اثنين بواحد، أو يقتل القاتل بطريق يؤذي إيذاء زائداً على العادة كأن قتل شخص بالسيف الحاد فيقتل القاتل بالسكين الكالّ، أو بأن يأتي بالمثلة كقطع الأنف والأذن وغيرهما ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الولي ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ من الله حيث أحل له القصاص وأخذَ الدية. فلا يجوز أن يجعل نفسه مكسوراً بارتكاب ما لا يحل في الدين.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وهي صيانته وتنميته ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ أوانَ قوته في العقل وهو وقت البلوغ رشيداً، وعند ذلك لا يجوز التصرف في ماله إلا بإذنه وظاهر إطلاق الآية الكريمة النهي عن التعرض له قليلاً أو كثيراً، فالمطلق يبقى على إطلاقه ويجب على المسلمين التورع عن إضاعة أموال اليتامى بأي وجه كان. نعم يجوز لإخوة اليتيم إذا كانوا في دار واحدة ولهم أموال مشتركة وزراعات وبهائم التصرف في ذلك المال بحيث لا يتضرر مال اليتيم، وذلك بتخويل القاضي عند وجوده أو أهل الخبرة عند فقده أو إهماله لذلك الأمر أحد الإخوةِ في بيع حصته مع ماله إذا كان فيه منفعة حتى يتسنى له إدارة شؤون اليتيم كسوة وتربية وتعليماً. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي بما عاهدتم الله عليه من أحكام الدين إيجاباً وسلباً، وبما عاهدتم عليه غيركم سواءٌ كان بالأحلافِ المشروعة أو بالمعاملات والعقود الشرعية أو النذور الصحيحة ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولاً عنه. وفيه إستعارة بالنكاية حيث شبه العهد برجل رشيد إلتزم أمراً، وذكر مسؤولاً قرينة ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتموه ولا تُخْسِرُوه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ للمشترين ﴿وَزِنُوا۟﴾ المواد الموزونة عادة في المعاملات ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان المعتدل صغيراً كان أو كبيراً ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إيفاء الكيل والوزن بالميزان المعتدل ﴿خَيْرٌ﴾ مما يختاره الناس، ويعدونه خيراً لأنفسهم في المعاملات لأن المذكور خير تشريعي وما كان مختاراً عند الناس خير جعلي ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أحسن عاقبة لما يترتب عليه من الثواب ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ولا تتبع ما ليس لك به علم فيما يطلب فيه العلم

من المعتقدات والشهادات، ولا تشهد بالزور ولا تقذف أحَداً بدون العلم بعمله السيىء، ولا تقل سمعت من فلان أو رأيت فلاناً فيما لم تسمعه ولم تره، ولا تنسب إلى أحد كفراً أو كبيرة بدون علمك به ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي يسأل كل تلك الأجهزة عما نسب إليه، فيسأل السمع: هل سمعت؟ والبصر هل رأيت؟ والفؤاد هل علمت؟ أو يسأل أصحابها عن العلم بسببها ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فخراً وكبراً ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ إذا وطئتها بالقوة ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ إذا رفعت قامتك تكبراً ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور في جملة الأوامر والنواهي ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي السيىء منها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ الناهي عنه ﴿مَكْرُوهًا﴾ غير محبوب وغير مرضي وإن كان مراداً له تعالى إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وليس بين الإرادة والكراهة تضاد حتى يمتنع اجتماعهما في محل لأنهما أعم وأخص من وجه مادة اجتماعهما أولئك الناس الآتون بتلك المنهيات ومادة افتراق الإرادة عن الكراهة إرادة الباري لإيمان المؤمن فإنه مراد غير مكروه ومادة افتراق المكروه عن الإرادة كراهة كفر المؤمن فإنه مكروه وليس بمراد لانتفائه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور المتقدم في التكاليف ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي من الشرائع التي هي مشتملة على الإتقان والخير والمناسبة مع سعادة المكلفين، وأهمها هو الإبعاد عن الإشراك الذي هو شرك الهلاك المؤبد فاذكر ربك ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من جهة نفسك اللوامة على ما فعلت من موجبات الندامة ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً من رحمته الواسعة. والخطاب، وإن كان مع الحبيب، فإنه يراد به غيره من البعيد والقريب.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الهمزة للإستفهام الإنكاري، والخطاب مع المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله. فيقول: أيها الجهلة المحتارون في وادي الضلال أفلا تتفكرون في أن خالق العالم ليس ممن يحتاج إلى النسل لحفظ

نوع الأصل فإنه أصل فرد صمد ليس مثله أحد، ولو فرض فارض بالتقدير إختياره لنسل فكيف اختياركم بأشرف صنف منه وخص نفسه بصنف لا تختارونه لأنفسكم؟! ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ وهذا خلاف ما عليه عقولكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ثقيلاً على السماوات والأرض قبولُه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ كررنا في مواضع منه إنكارَ نسبةِ النسلِ إليه مُطلقاً، لأنه الغني المطلق الموصوف بالكمال المطلق ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتفكروا في الحقائق ويختاروا لأنفسهم الإعتقاد الصحيح اللائق ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق إلى الباطل وذلك عادة كل إنسانٍ عار عن العقل جاهل.

وبعد أن بينت لهم إستغناءه تعالى عن الأولاد بين لهم استحالة وجودِ الشريك له تعالى، فإنه الواجب الوجود، القادر المعبود الذي يفعل ما يريد ولا مجال لوجود الشريك له. و﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون لكان بينهم وبينه مناسبة ومراسلة ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا﴾ أي أولئك الآلهة ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ المجيد الفعال لما يريد ﴿سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من وجود الآلهة أو وجود إله واحد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فليس هُو من الموصوف بالإمكان والحدوث حتى يمكن أن تكون فيه شائبة الحاجة ويكون له افتقار إلى الشريك والمعاون في الأمور وذلك معلوم عند ذوي الفطنة والشعور. فهو المتوحد بالكمال والجمال والجلال والمتفرد بالإستيلاء على الكائنات الموجودة كلهن وجزئهن ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ من الملائكة والجن والإنس ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ من الجمادات والنبات والحيوانات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ له تعالى متلبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ إذ ليس تسبيحهم بتقطيع الأصواتِ أو تركيب الحروف والكلمات، فإن لكل موجود حدوداً ولكل موزونٍ ميزاناً فبقاؤها في الجوّ الواسع، ودَوَرانُها المستمر لإفادة المنافع، ورعاية مقدار الحركات على الوجه اللائق الرائع، وتغيرها بإرادة الباري في إنزال الثلوج والبرد والأمطار على البراري والبحار لتفجير الينابيع وجريان الأنهار كل ذلك تسبيح وتقديس أفصح من تسبيحات أهل النفوس للملك الديان القدوس. وكيف تفقهون تسبيح ذواتٍ لا فُتور لها عنه بالساعات والدقائق والثواني؟ فتبينَ أنا ما وَجدْنا في الإنسان مثلهنّ مُسبحاً شكوراً، ولكن الله يسامحُ العِباد﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا

مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هذه الآية الكريمة تمثيل لهم في عدم استماع الحق بمنْ كانَ وراء حجاب يمنعه عن رُؤية منْ يمرّ وراءَه أو عن سماع كلامِهِ كما أنَّ الأكنة كذلك أي ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ لا يُبْصر بالعين المجردة فلا يرونك حتى لا يؤذوك وهذا الحجاب مانع عن رؤيتك فقد روي أنها نزلت في أبي جهل والنضر وأم جميل وأمثالهم إذ كانوا يؤذونه إذا قرأه فحجب اللّهُ أبصارهم عنه فكانوا يمرون ولا يرَونه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تُكِنها وتسترُها وتحولُ دونها عن إدراك معناه أي مَنَعناهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ أي صمماً وثقلاً عظيماً مانعاً عن استماعه، وكل هذه الجعليات ترتبت منه تعالى على اعتقادات وسخة راسخة في قلوبهم، وأعمال سيئة أبرزوها في معاندة أبرز رسولٍ هادٍ ناشر لأحكام الإسلام، وإلا فالباري سبحانه قالَ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي غير مذكور معه آلهتهم ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أي نفرة وهرباً من استماع التوحيد لله المجيد ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي بسببه ولأجله ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي ونحن أعلم بغرضهم حين هم مستمعون للقرآن عند قراءته ونحن أعلم بحالهم حين هم ذوو نجوى متناجون به ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي رجلاً سحر فزال عقلهُ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي ذكروا لك الأشباه والنظائر فمثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون وليس عندهم من ذلك النوع صنف آخر وإلا كانوا يمثلونك به أيضاً ولكن لا تهتمَّ بهم فإنما المشركون بهائم بُهْمٌ لا يُهمُّهم إلا فروجُهم وبُطونهم ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن طريق الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن واقعي يطعنونك به.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ

ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي وقال المشركون المنكرون للبعث واستفهموا استفهاماً إنكارياً: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ أي أئذا متنا ولم تبق لحومنا وبقي منا العظام المجردة ﴿وَرُفَٰتًا﴾ والرفات: ما بُلِيَ فَتَفَتَّتَ. وقيل إنه التراب ﴿وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا﴾ على غضاضة الحي وطراوته مع ما بينها وبين يبوسة الرميم من مباعدة ومباينة تامة ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي في جوابهم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ﴾ ويبتعد عن قبول الحياة أيّاً كان فإنكم تحيون وتبعثون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾بعد قولك هذا: ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي قل يعيدكم الرب القادر الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً باعتبار الأصل، ثم كنتم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي فإذا قلت لهم ذلك وكان يحتوي دليلاً دقيقاً جليلاً، فَبَدَلَ أن يقبَلُوا منك الكلامَ السليم سيحركون إليك رؤوسهم استهزاء وتعجباً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لاستبعاده: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟ أي في أي زمان يتحقق ذلك العود ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كلّ آتٍ قريب. وذلك يتحقق ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتبعثون استجابة لدعوته متلبسين بحمده على كمال قدرته أو تعلمون أن كل ما وعد به فهو حق ﴿وَتَقُولُونَ﴾ إذ ذاك سبحانك اللهم وبحمدك وتظنون في ذلك اليوم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ أي وقل يا حبيبي لعبادي المؤمنين يقولوا في المحاورات مع أولئك المشركين المستكبرين الكلمة التي هي أحسن الكلمات المناسبة في المخاطبة، وليأتوا باللين منها، ولا يخاشنوهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي يفسد ويهيج الشرّ بينهم وبين الكافرين. والمداراةُ والملاينة أنسبُ بهم لإصلاح ذات البين من المخاشنة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

واضح العداوة. وهذه العداوة قد تكون بإفساد نفسه في ذاته، وقد تكون بإيقاع الفتنة بينه وبين إنسان آخر، أو أناسي آخرين. ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للنيات الطيبة والأعمال الحسنة ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ في الدنيا أو في الآخرة بخلق العزم على ما لا تحسن عاقبته وبمباشرة الأعمال السيئة في نفسه أو مع غيره ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما أرسلناك مفوضة إليك أمورهم وإنما أرسلت للتوجيه والتنبيه والإرشاد إلى كسب سعادة المعاش والمعاد ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بنياتهم وأعمالهم وحالهم ومآلهم فيختار منهم من يختاره للرسالة وإخراج الناس من الضلالة إلى الهُدى باختيار سلوك طريق الحق، ومنهم من يختاره لقبول ما وصل إليه من التوجيهات، ومنهم من كان على غير ذلك ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالمواهب القدسية، والمراتب النفسية، والأخلاق العالية الزكية، أو بالمعجزات الجسيمة، أو بعموم الرسالة، أو بفضائل الأمة ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وفيها الأذكار الصباحية والمسائية ﴿سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ وقد كتبنا فيه من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأن القدس يأخذها الأمة المحمدية الصالحون المصلحون باختيار الدين على الدنيا كما ورثها الأصحاب الكرام في سابق الأيام، وكما ورثها جيش الحق جيش صلاح الدين بعد استيلاء الكفار عليها مدى من الأعوام وسترثها الأمة الإسلامية بالنصر العزيز والفتح المبين بعون الله العلام.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ جاء الزعم بتثليث الزاء قريباً من الظن. ويقال: إنه القول المشكوك فيه، ويستعمل بمعنى الكذب حتى قالوا: إن كل ما ورد منه في القرآن الكريم فهو بمعنى القول الكذب، كما أنه جاء بمعنى القول المحقق. وهذا مورده الكذب البواح، ومفعولاه محذوفان، والتقدير قل يا حبيبي للكفار المشركين: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ الشركاء ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وهم آلهة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في المشركين الذين أشركوا بالله تعالى

فعبدوا عيسى وأمه وعزيراً والشمس والقمرَ والكواكب. هل يجيبونهم في ما يدعونهم له والجواب كلا. فإذا تبين أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ من المرض والفقر وما ابتليتم به ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ لذلك الضر عنكم إلى غيركم. ومن لا قدرة له على ذلك لا يستحق أن يعبد لأن العبادة وصحتها مترتبة على اتصاف ذلك المعبود بقدرة الخلق والإبداع والإيجاد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون ويسمونهم آلهة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي القربة بالطاعة والعبادة والإنقياد ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من فاعل يبتغون. يعني إن أي واحد منهم أقرب إلى الله تعالى بامتيازه عن غيره بالنبوة والرسالة كعزير وعيسى عليهما السلام، أو بكرامة حاصلة بالطاعة والإخلاص كسائر أعيان الأمة الذين كانوا من الصالحين فنقشوا صورهم وحولوها إلى الأصنام وعبدُوها بعد بالتدريج العادي ﴿وَيَرْجُونَ﴾ من الله ﴿رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فكيف يتصورون أنهم آلهة وكيف يعقل أن لهم إبداعاً في الكائنات من الأرض أو السماوات وإنما يرجون رحمته، ويخافون عذابه كهيبة عذاب الله في قلوبهم؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وحقيقاً بأن يخاف ويحذر منه أعاذنا الله تعالى منه.

ولما ذكر أن عذاب الله سبحانه وتعالى كان مهيباً مهولاً يخاف، وأن العذاب لا ينزل إلا باستحقاق الإنسان له بالعقائد الفاسدة والأعمال السيئة، لا سيما الظلم والطغيان والبغي والعدوان، وأن الأمة في آخر أدوار الدنيا تستحق بهما العذاب. قال تعالى ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي ما من معمورة في الدنيا ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي مهلكو أهلها إهلاكاً عاماً ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بابتلائهم بأنواع البلايا المحيرة للعقول ورفع الأمان عنهم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاك الجماعي أو العذاب الشديد ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

ثم إن من الناس من ادعى أن الإهلاك والتعذيب المذكورين مختصان بالكفار وبلادهم، وذلك لكفرهم. ومنهم من قال بعمومهما لجميع البلاد والعباد سواء كانت بلاد الإسلام أو غيرها، والعباد من المسلمين أو الكافرين. وهذا هو الظاهر لدليلين: الأول دلالة ظاهر الآية الكريمة، فإنها ليس فيها التخصيص ببلد دون بلد ولا بقوم دون قوم. والثاني: أن الظاهر من الكتاب والسنة أن نزول العذاب ناتج من المعاصي وخروج الناس عن إطاعة الباري. وهذه العلة موجودة في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها. ومعاصي أمة الإسلام لو فرضنا أنها لا تصل

إلى درجة معاصي الكفار، لكنها لما كانت مسلمة وعارفة بالآيات والآداب كان الواجب أن تتنزه عنها بالمرة. فالذنوب الصغيرة الناشئة من المسلم كبيرة وكبيرته من أكبر الكبائر. وعلى كل حال فقد رأينا تغييرات هامة وتخريبات عامة في بعض المناطق الإسلامية، ونسترحم المولى جل شأنه أن يسامحنا ولا يستمر في تعذيبنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء إنه رؤوف رحيم.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعني بالآيات التي اقترحتها قريش على الرسول ﷺ. فقد أخرج أحمد والنسائي والحاكم، وصححه والطبراني وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا. فقيل له: إن شئت أن تستأنِيَ بهم، وإنْ شئتَ أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا بل أستأني بهم**» فأنزل الله تعالى هذه الآية. والحاصل أنه ما منعنا أن نرسل الآياتِ التي اقترحتها قريش إلا أنه كذب بها الأولون المقترحون لنوع تلك الآيات، فلما آتيناهم تلك الآيات كذبوا بها فأهلكتهم، وهذه سنتي ولا تبديل لها فإذا أرسلناها كذبت بها قريش، ولا بد أن نهلكهم ولا نريدُ أن نهلكهم وأنت فيهم، أو لا نريدُ أن نهلكهم ونعلم أن مِن أولادهم من يؤمن بالله ورسوله ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي التي اقترحتها حال كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ للناس العقلاء أي جاعلة لهم أهل بصيرة بالحق أي كان من شأنها ذلك ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي فكفروا بها، وعقرها أشقى ثمود فأهلكناهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لمن أرسلناها إليهم. يعني أنه كلما أرسلت آية مقترحة كانت كإنذار للناس المقترحين بهلاكهم عند إنكارهم لها، وما تزال هذه سنتنا في الكائنات، ولن تجد لسنتنا تبديلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ مناسبته مع ما قبله هي أن القوم لما طالبوا رسول الله ﷺ بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بأن إظهارها

ليس بمصلحة صار ذلك سبباً لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه، وأن يقولوا له: لو كنت رسولاً حقاً من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك كما أتى بها موسى وعيسى وغيره من الأنبياء، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى يَنصرُهُ ويؤيده، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي إن قدرته محيطة بالناس فهم في قبضة قدرته. وما دام الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلاّ بقضاء الله وقدره، فلا تهتم بما يقولون، فإنا ننصرك ونُقويكَ حتى تُبلغَ رسالتنا وتُظهر ديننا. أو المراد: إن الله تعالى أحاط بالناس المشركين المستولين على مكة وما حولها، وستفتحها بجيش المؤمنين المجاهدين وتظفر بهم، ونحن نريد بك وبأتباعك الخير، وكل ما ظهر منك وكان محلاً لاستهزاء الناس وتطويل ألسنتهم عليك وعلى دينك كان مآله خيراً لك ولأمتك ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ عامَ الحديبية أن تدخل أنتَ وأصحابك المسجد الحرام ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ حيث عبروها بدخولكم في تلك السنة ولم يعلموا أن المراد دخوله في العام القابل وأن صدهم لكم عن دخوله في تلك السنة وجريان الصلح بينكم صار خيراً للمسلمين. أو ما جعلنا الرؤيا التي رأيتها عام واقعة بدر وأنك بينت مصارع الكفار.. إلا فتنة لهم حيث سخر المشركون منك واستهزؤوا مع أن النتيجة كانت لكم والعاقبة للمتقين. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ أي وما جعلنا بحث الشجرة البعيدة عن رحمتنا أي شجرة الزقوم، وأنها تخرج في أصل الجحيم إلا فتنة للناس حيث استهزؤوا وقالوا: كيف تنبت الشجرة في الجحيم، وهي مجتمع النار؟! ولم يعلموا أن الله قادر على ذلك، وأنه جعلَ من الشجر الأخضر ناراً، وأنه جعلَ طير النعامة بحيث يبتلع الجمر ولا يحترق، وقطع الحديد المحماة الحمر ولا تضره وجعل السمندل بحيث يتخذ من وبرهِ مناديل إذا توسخت تُلقى في النار فتذهب أوساخها وتبقى هي سالمة وتستعمل كالسابق! وعلى كل حال ومقال فلا تعتمد إلا على الله القادر العليم ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ في الأوقات بآيات جسام من الغلاء والوباء وغير ذلك ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ ونحن لهم بالمرصاد فنجزيهم على طغيانهم وعدوانهم بما تقتضيه الحكمة الإلهية وأنا أحكم الحاكمين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ

جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم
بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾
رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ من سنة الله تعالى في إنزال كتابه الكريم أنه يذكر الناس في كثير من المناسبات بأمره الملائكة بالسجود لخليفته المخلوق من التراب ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ له ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ فطرد من باب الرحمة لغروره وذلك ليتفكر الإنسان في أصل خلقته ويعلم أن إطاعة خالقه رحمة وأن مخالفته نقمة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تحية وأدباً واحتراماً ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد لغروره ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ أي خلقته من طين ولم يكتف بالمخالفة وإبائه عن السجود بل ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكافُ حرف خطاب لتأكيد معنى التاء قبله، ورأيتَ بمعنى علمت، وهذا مفعوله الأول، والموصول وصلته صفته، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: لا يستحق التكريم عليّ وقوله ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي لأستولينَّ عليهم إستيلاءً كاملاً، أو لأستأصلنهم وأهلكنهم جميعاً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى له ﴿ٱذْهَبْ﴾ يعني أنت مخول ومؤجل ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وضل عن طريق الحق ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي مكملاً لا يُدَّخر منه شيء ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ والمراد بصوته وسوسته التي أعلى وأندى من الصوت في الوصول إلى الأسماع، ولا يبعد أن يراد به صوتُ دعاته الداعين إلى الضلال بالطرق الإحتيالية ووضع الشبكات الإصطيادية ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ والباء مزيدة أي اجمع على الناس أتباعك الخيالة والمشاة. وهذا كناية عن استيعاب الأتباع، أي أجلب لمعونتك وإغواء الناس المفلسين جميع من تقدر عليهم أن تستعملهم في هذه المهمة التي ليس شيء أهم منها عندك.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بكسبها من الجهات المحرمة وإنفاقها فيها ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالإستيلاء على أمهاتهن بالعقود المشبوهة، والإنفاق عليهن من المحرمات والمشبوهات، حتى إذا ولدنَ فبإرضاع الأولاد من حليب النساء بدون التقيد بالصلاح والعفة، ثم بتربيتهم على غير منهج الدين المبين، حتى إذا بلغوا أوان

البلوغ والعمل عملوا ما شاؤوا بدون رعاية الدين ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ بالمواعيد الباطلة، وأملهم بالآمال الفاسِدة، وقال معترضاً بين خطابه والإلتفات إلى الغيبة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو تحسينُ الخطأ وتمويهه بما يوهم أنه صواب.

ثم قال تعالى مثبتاً لقلوب العباد المخلصين ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ أي قدرةٌ واستيلاء لإغوائهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكلون عليه. ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي يجريه فيه بالرياح اللينة أو إلهام العلوم السليمة الهينة ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾ ولم يزل ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾ والموصول وصلته صفة الرب المجرور بالباء الزائدة للتأكيد.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ تجهيل لعباد الأصنام من حيث أنهم يعبدون ما يعلمون أنه لا نفع فيهم ومع ذلك يعبدونهم تجاهلاً وعناداً واستمراراً على الحماقة التقليدية بدليل أنه إذا مسكم الضر وخوف الغرق في البحر ضل من تدعون إلا إياه. وذهب عن خواطركم بحيث لا تعتمدون عليهم ولا تلتفتون إليهم لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع ولم تنتفعوا بها قطعاً ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وحصل لكم الأمان من الغرق ﴿أَعْرَضْتُمْۚ﴾ عن ذكره تعالى بعد أن كنتم مستغرقين فيه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لنعمته تعالى طبيعة ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي أن يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الأرض وأنتم عليه ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من فوقكم ﴿حَاصِبًا﴾ وهو مطر الحجارة أي مطراً يحصبكم أي يرميكم بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك، أو يصرفه عنكم غيره ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة غير المرة الأولى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة التي تقصف ما تمر به من الشجر ونحوه ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ الله سبحانه بواسطة ما

ينال فُلككم وذلك ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم السابق ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي نصيراً ينصركم وينجيكم من هذا الغرق.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾... هذه الآية الكريمة عرض إجمالي لنعم الله تعالى على الآدميين مما يوجب شكره والاستمرار في طاعته ويقول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي والله لقد كرمناهم وشرفناهم صورةً وسيرةً. أما صورةً فبالمشي على رجلين، وبوجود يدين عاليتين قابلتين للبسط والقبض والجذب والدفع، وبوجهٍ جميل وملامح جَذابة، ورأس محتوٍ على مشاعر مهمة، وأما سيرةً فبالعقل والعلم والصفات الحسنة والأخلاق العالية، والتطور والترقي من السيىء إلى الحسن، ومنه إلى الأحسن، وبالتعلم فالتعليم والإسترشاد فالإرشاد، وتوجيه الجيل للمستقبل المُفضل، وحفظ مآثر السلف الشُرفاء علماً وعملاً وأدباً وحسباً وغير ذلك، بتاريخ يضبط الحوادث النافعة والضارة، وأسبابها وطرق الإستفادة منها، وبطهارته في الحياة والممات، وبصيانة هيكل المقدسين منهم من البلى والآفات، وبتحمله للقوى النفسية مع التقوى والتوجه إلى الحضرة القدسية، ولذلك راعيناهم بإبقاء الأصل والنسل في العسر واليسر ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ على أكباد رطبة في ﴿ٱلْبَرِّ﴾ وأعواد يابسة في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ وجعلناهم مستولين على الحيوان الإنسي والوحشي من السبع والطير، ومقتدرين على تسخير الأجواء والصحاري والبحار، وجعلناهم شاكرين لأنعم الله وذاكرين في الأسحار ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من فنون المشتهيات وصنوف المستلذات المستفادة من آثار القدرة أو من الصناعات ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وبعد أن أعلن الله سبحانه وتعالى أنه كرم بني آدم بأمور لا اختيار لهم فيها كحسن الصورة والسيرة وإنشاء العقل فيهم الذي هو ينبوع وأصل يتفجر منه فوائد وكمالات لا تحصى بينَ أنه فضلهم وميزهم على كثير ممن خَلَقه باكتساب صناعات وأمور إختيارية لهم فيها الكسب والإختيار. فالتكريم متعلق بمبادىء لا اختيار لهم فيها، والتفضيل مربوط بأمور اكتسابية لهم فيها شأن واعتبار. وأما تقييد المفضل عليه بالكثير فوجهه أنه خلقَ حملة العرشِ على تلك الطاقة العظيمة، وخلق جبريل على تلك القوة الشديدة، وخلق الجن بحيث يتمكن من أعمال شاقة في البر والبحر والجوّ خارجة عن طاقة الإنسان ألا ترى أن عفريت سليمان قال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؟ وتلك الطاقات أعلى وأقوى وأوسع من طاقة البشر.

ولا يلزم من امتياز البعض من الملائكة والجن على البشر في تلك الأمور زيادتهما على البشر في القدر والمقام عند الله تعالى؛ فإن الإمتياز الإكتسابي دون الامتياز الوهبي، فقد جعل الله سبحانه في البشر رسلاً هادين مهتدين مرشدين حاملين لأعباء الرسالة وأنوار الجلالة، وخلق لخاتمهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس رضي عنهم وأحب أن يرضوا عنه، وخلق فيها أفراداً من العباد تقربوا إلى الله مع ابتلائهم بموانع من القوى النفسية الهائلة إلى أعلى درجات القرب بحيث لم يصلها غيرهم. وأما الملائكة فلا يمكن منهم الفسوقُ والفجور، ولا مزية لذات خلقت عاريةً عن الموانع والشهوات أن يُطيع آمرهُ في الإتيان بالأعمال الممتازة من الحسنات. فقول أهل العقائد بتفضيل البشر على الملائكة: خواصهم على خواصهم، وعوامهم العادلين على عوامهم ثابت محققٌ ولا يعارضه تفضيلهم وتفضيل الجن في بعض الأعمال على البشر. هذا والله الهادي إلى الصواب.

ولما بينَ الله سبحانه وتعالى نعمةُ الموهوبة والمكسوبة على عباده من بني آدم، بين أنهم مع كل تلك النعم المتوفرة انقسموا قسمين بالإجمال؛ فقسمٌ تبعوا أئمة الهدى والكمال، وقسم تبعوا أئمة الغيّ والضلال. فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي اذكر يا حبيبي ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ سواء كان إمامهم إمام هدى، أو إمام ضلال، وينادي المنادي يا أمة آدم، أو نوح، أو إبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمد المصطفى ـ صلوات الله عليهم ـ.أو يا أمة عاد، أو ثمود، أو فرعون، أو نمرود. ويا أتباع الأئمة المجتهدين والمرشدين إلى طريق الحق واليقين، ويا أتباع

الدُّعاة المبتدعة الضالين الخارجين عن الإسلام والدين، فيدعون للميزان والحساب، ويسلم إلى كل فرد من أفرادهم صحيفة الأحوال ودفتر الأعمال، مميزين بين السعداء والأشقياء بإعطاء كتاب الأوائل بالأيمان، وكتاب الأشقياء وراء الظهور بالشمال ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ بشروا واستبشروا، وجعلهم الله قارئين، ولو كانوا من الأميين لأن قراءة الإنسان كتاب أعماله بنفسه إعتبار وعناية ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ويقفون على تفصيله، ويستبشرون بما فيه، ويعلمون أنهم أوتوا جزاءً فوق الإستحقاق ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولا ينقص من أجورهم ﴿فَتِيلًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشر الذي في شق النواة.

وبعد أخذ الكتاب بالأيمان وقراءته وتسليمه لأقرانه ليطلعوا عليه زيادة في الإستبشار، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾، ﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ وذكر مقابله بقوله ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي في هذه الدنيا التي اغترّ بها ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يبصر طريق النجاة ولا يهتدي إلى الحق ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وأما من أوتي كتابه بشماله وحوسب حساباً عسيراً فهو الذي كان في هذه الدنيا أعمى وقد علم حاله ومآله. ونسأل الله الرؤوف الرحيم والعفو الكريم أن يدخلنا في زمرة عباده الصالحين وينجينا من عذابه وعسر حسابه، إنه هو الجواد الهادي إلى الرشاد الراحم بالعباد في الدنيا والدين. وهذه الآيات البينات كافية لمن اكتفى بالإرشاد، والمرجو منه تعالى شرح الصدور وتيسير الأمور والصيانة عن كل مكروه وفساد إنّه أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنتَ أرسلت إلينا فاطردِ الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم، لنكون نحن أصحابك! فنزلت أي ﴿وَإِن﴾ الشأن قد قرب أن يميلوك عن الذي أوحينا إليك من ملازمة المسلمين الفقراء لرقة قلبك وشدة رغبتك في إيمانهم ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتتقول علينا غير الذي أوحيناه إليك مما اقترحه عليك بعض من المشركين ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ذلك ليتخذنك صديقاً لهم ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ على ما أنت عليه من الحق بحفظنا لك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي ولولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً من الميل اليسير لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم فضلاً عن

نفس الميل. ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي ولو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لأذقناك ضعفاً وهواناً في الحياة بعدم النجاح في مهمة الرسالة وضعفاً وهواناً في وقت الممات بعدم اكتراث الناس بوفاتك أو بعد الممات بإصابة ما لا يحمد في البرزخ وما وراءه. وقيل: معناها لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مضاعف ما يعذب به غيرك في الدارين؛ لأن ذنب الكبير أخطر وعقابه أكثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب أو يرفعه عنك.

روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ إلى هنا قال ﷺ: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**» وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله. ويقول كما قال النبي ﷺ.

> ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي أن المشركين كما قرب أن يستميلوك إليهم ولم ينجحوا في مرادهم كادُوا وقربوا أن يزعجوك ويستخفوك بعداوتهم ومحاولاتهم البائسة اليائسة ليخرجوك من الأرض أي الأرض التي أنت فيها وهي مكة المكرمة الأرض التي أنت أحق بها، لأن فيها بيت العز والكرامة بيت العبادة والطاعة، وبيت الشرف والسعادة، وذلك أول بيت وضع للناس، وأول بيت بني في تلك الديار على التقوى، وحقه أن يكون مقراً لك لأنك كنت مقصوداً بدعاء أبيك إبراهيم، ومفتاحُ بيتِ الكرامة يُسلم إلى الكريم. وكان هذا الإستفزاز بما فعلوه من حصره ﷺ في شعب أبي طالب والتضييق عليه وعلى أقاربه المختصين به وأتباعه، ووقع ذلك بعد نزول الآية كما في تفسير البحر،

وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن استفزوك فخرجت منها لا يبقون فيها بعدك إلا زماناً قليلاً. وهذا وعيد لهم بإهلاكهم، وقد كان في بحر عشر سنين.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي سننا سنة من قد أرسلنا وهي أن لا ندع أمةً تستفِز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تَلبث بعده إلا قليلاً. والسنة: سنة الله وإضافتها إلى المرسلين للملابسة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تجد لسنتنا تحويلاً منا لجريان القضاء بها، ولا من غيرنا إذ لا قدرة لهم على تحويلها ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي لزوالها عن خط نصف النهار، ويدل عليه قوله ﷺ: **«أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر»** ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ أي إلى وقت تقرر ظلمته، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجر أي صلاة الصبح. وسميت قرآناً لأنها ركنها، وخص بها لأن وقتها وقت الجهر وفراغ القلب ونشاط الإنسان والصوت إذ ذاك يخرج صافياً وافياً بنزعات الضمير وما أسره الإنسان، ولأن الوقت مبارك وتجتمع فيه ملائكة الليل وملائكة النهار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي تشهده الملائكة. والآية الكريمة جامعة للصلوات الخمس المفروضة، فإن زوال الشمس من نصف النهار إلى ظلمة الليل يستوعب الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح فهذه الصلوات موجودة ومفروضة في مجموع ذلك الوقت.

وأما تخصيص كل منها بوقتها المحدود فمأخوذ من الإجماع ومن سنة الرسول ﷺ. فقد روى أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره أنه ﷺ قال: **«أمّني جبريلُ عند البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، وكان الفيء قدر الشراك، والعصر حين كان ظله (أي الشيء) مثله. والمغرب حين أفطر الصائم (أي دخل وقت إفطاره). والعشاء حين غاب الشفق. والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم. فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله. والعصر حين كان ظله مثليه. والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء إلى ثلث الليل. والفجر فأسفر وقال: هذا وقت الأنبياء من قبلك»**. الوقت ما بين هذين الوقتين. وأما الجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما تقديماً أو تأخيراً، وكذلك المغرب والعشاء فإنما أخذ من الحديث الوارد في الموضوع. والسنة الفعلية وتقريره ﷺ لأسباب خاصة مذكورة في كتب الفقه في مواضعها المعينة. وأما جمعه ﷺ بين الظهر والعصر

بدون سبب من الأسباب من الخوف والمرض والسفر والمطر فأجاب الفقهاء عنه بأجوبة، منها أن صورته كانت صورة الجمع ولم تكن جمعاً في وقت واحد منهما، أي أنه ﷺ صلى الظهر في آخر وقته، وبعد فراغه عنه مباشرةً دخل وقت العصر وصلّاه بلا فصل. وعلى الطالب المراجعة لأماكنها في كتب الفقه والحديث.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي وفي بعض أجزاء الليل تجنب النوم واتركه للصلاة حال كونها ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي فريضة زائدة على الصلوات المفروضة فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. فالنافلة بمعنى الزائدة على معناها اللغوي. وهذا بناء على أن قيام الليل كان واجباً عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خاصة أمر بقيام الليل وكتبت عليه دون أمته. لكن صحح النووي أنه نسخ عنه فرضية التهجد، ونقله أبو حامد من الشافعية وقال: أنه الصحيح. وفي مسلم ما يدل عليه. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ أي مقاماً يحمده كل من عرفه، وهو مطلق يحتمل كل مقام كرامة، لكن المشهور أنه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي**» وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس، والجمهور أنه ﷺ لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع إلى خديجة رضي الله عنها فقال: «**زملوني زملوني**» فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ وعلى أثرها نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ كما سنذكره بالتفصيل إن شاء الله تعالى في تفسير السورتين.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ أي في القبر ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ أي منه عند البعث ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ إخراجاً مرضياً. وقيل: المراد إدخال مكة ظاهراً عليها بالفتح وإخراجه منها آمِناً من المشركين. وقال محمد بن المنكدر: إدخاله الغار قبل الهجرة وإخراجه منه. وقيل: الإدخال في الصلاة والإخراج منها. وقيل: الإدخال في المأمورات والإخراج من المنهيات. وقيل: الإدخال فيما حمله ﷺ من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤدياً لما كُلّف به من غير تفريط. وقيل: المراد إدخاله في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أي أمر كان وإخرجه منه فيكون عاماً في جميع الموارد والمصادر. وقالوا: هذا هو الموافق لظاهر اللفظ والمطابق للمقام. ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ أي حجة تنصرني على من خالفني. وعن الحسن أنه أريد به التسلط على الكافرين. وقيل: أراد به عزاً ينصر به الإسلام على

غيره سواء كان من الغيب أو الشهادة، بأهل الجهاد بالسيف أو بالحرف. والحق أن المراد من السلطان كل ما يفيده الغلبة على أعداء الله تعالى وظهور دينه ووصفه بقوله نصيراً للمبالغة.

﴿وَقُلْ﴾ مبشراً نفسك وغيرك من الأصحاب بأمر الله تعالى وإذنه ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلام والدين الثابت ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي زال واضمحل ولم يبق له كيان في جزيرة العرب وسائر البلاد الإسلامية ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي زائلاً مضمحلاً غير ثابت الآن أو فيما بعد، أو مطلقاً لكون الباطل باطلاً في الواقع. أخرج الشيخان وجماعة عن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وفي رواية الطبراني في الصغير عن ابن عباس أنه ﷺ جاء ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ حتى مر عليها كلها.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وننزل من القرآن المخصوص بالنبي الذي أرسل رحمة للعالمين ما هو شفاء لمرض الكفر والرذائل النفسية بكافة أصنافها ولمرض الجهل البسيط، وهو عدم العلم بالمقصود، والمركب إذا أنصف الجاهل ولم يعاند البديهة، ولسائر الأمراض البدنية من الأعصاب، والأوجاع، والأورام، والحميات، وغيرها... لمن شاء الله أن يكون شفاءً له. فإذا كان المعنى هذا فتكون كلمة من للبيان ومقدمة على المبين لرعاية الفواصل أو للاهتمام بالمقدم. أما شفاؤه لمرض الكفر فظاهر لمن نظر إلى كثير من الناس الكافرين الذين أسلموا بمحض استماعه وفهم مدلوله المنبىء عن أسرار الغيب وأنوار الحق، وأما للرذائل فمن جهتين: الأولى جهة كشف أسباب المرض وهي محبة الدنيا والأمور العاجلة التي لا قيمة لها، وأن مردها إلى الفناء، والثانية أن طاعة الله هي التي تنفع وتبقى عند الله تعالى، وأما للجهل البسيط فيظهر من أن الناس لم يكونوا عالمين بأن الله هو الخالق للسماوات والأرض وما بينهما ومن يعيش فيها، وأن الإنسان والجن مخلوقون للعبادة ونيل السعادة الأبدية الخالدة، فإذا نزل القرآن على الرسول ﷺ وبلغه إلى الأمة وانتشر بينهم، وأدركوا معانيه

ومقاصده خرجوا من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم. وأما شفاؤه من مرض الجهل المركب فلأن الإنسان، كائناً من كان، إنما يكون معذوراً بجهله بالحقائق واغتراره بما يعتقده في نفسه من الدوام أو الخلود أو الإستغناء من غيره، أو عدم المسؤولية إذا لم يسمع الحقائق ولم يعش في المجتمع المكتسب للفوائد والمترقي من البساطة إلى أفق العلم والرقي. وأما بعد ذلك كله وبعد فهم القرآن ونشر مبادئه واعتناق الناس لها لا يبقى عذر لأي مكلف أن يبقى على فساد اعتقاد ورسوخ عناده، واختيار الضلال في شأن مسؤوليته ومعاده. وأما شفاؤه لأمراض البدن فقد ثبت من قراءة أبي سعيد الخدري ﷺ الفاتحة على اللديغ من الحي الذي مروا عليه وشفائه وتقريره ﷺ لذلك. وكل آية تقرأ على أي مريض فلها بركة ودخل في شفائه من مرضه، ولا سيما الآيات التي فيها مادة الشفاء وهي ست: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. و﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] قال السبكي: وقد جربت كثيراً. وعن القشيري: أنه مرض له ولد يئس من حياته فرأى الله في منامه فشكا له ذلك، فقال له اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه، أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت به، ففعل فشفاه الله تعالى. والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفي بخاصية روحانية، كما فصله الأندلسي في مفرداته. نعم العلماء اختلفوا في جواز نحو ما صنعه القشيري عن أثر الرؤيا وعرفوها بأن يكتب شيء من أسماء الله تعالى، أو من القرآن ثم يغسل بالماء، ثم يمسح به المريض أو يُسْقاه. فمنع ذلك بعض من التابعين، وأجازه بعض، وهو الراجح كما في فتح الباري على صحيح البخاري. والنشرة التي منعها ﷺ ما كان مشتملاً على ألفاظ لا يعرف معانيها أو على أسماء الأصنام. وأما ما فيه أسماء الله الحسنى أو الآيات القرآنية الكريمة، ولا سيما ما هي من الآيات الست المذكورة فجائز بلا شبهة. وقال مالك ﷺ: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها. وما بينته من أن القرآن كله شفاء للمرضى على الوجه المذكور هو الحق.

والإمام الرازي عمم شفائيته، وقد أحسن فقال: هو شفاء للأمراض الروحانية، وهي نوعان: إعتقادات باطلة، وأخلاق مذمومة. فلاشتماله على

الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفي عن النوع الأول من الأمراض. ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة يشفي عن النوع الآخر. والشفاء إشارة إلى التخلية. والرحمة إشارة إلى التحلية. ولأن الأولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة. هذا وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ نص في أن القرآن كما أنه عسل لأهل الإنصاف كذلك أسل لأهل الظلم والإعتساف، فإن الدواء إنما ينفع من يشربه لا من يصبه، والظالمون أنفسهم باستمرار العناد لا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بيان لنقص الإنسان من ناحية الصفات الفاضلة ويحتاج إلى مدد ومعونة من الله تعالى بتخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل. وذلك موقوف على الإسلام والإنقياد للرسول الكريم في ما جاء به من الله تعالى ويقول: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي إنسان كان إلا من تخلى عن الرذيلة وتحلى بالفضيلة، فأعطيناه الصحة والأمن وسعة ذات اليد ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا كأنه مستغن عنا من كافة الجهات ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي لوى عطفه عن طاعتنا ولم يهتم بها ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو خوف أو فقر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديد اليأس من رحمتنا، لأنه لم يحسن معاملته في حال الرخاء حتى يرجو الفرج منا ويطلب الخروج من ذلك الشر ويبقى تائهاً متأثراً إلى أن يفرج الله تعالى عنه، أو يبقى على ما كان عليه حتى يلقى ربه. فالدواء النافع للإنسان اتباع طريق الرسول الهادي إلى الحق بالشكر على النعمة والصبر على النقمة وبذلك يصل إلى سعادة الدارين.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ والشاكلة كما في القاموس: الشكل والنية والطريقة والمذهب. وكل من هذه المعاني مناسب للمقام، لأن كل إنسان يعمل على حسب ما يناسب شكله وطبعه ويمارس أعماله على طريقته المختصة به، وهي عبارة عن كيفية استعمال عقله وسائر قواه في سبيل أداء واجباته في حياته وترك المحرمات مع رعاية الشريعة إذا كان من المهتدين، أو بدونها إذا كان من المعتدين، ويجوز أن يراد بالشكل الوارد في معنى الشاكلة الصورة العلمية للمكلف الموجودة في علم الباري تعالى أزلاً وأبداً المشابهة للصورة العينية الخارجية بلا فرق. أي أن كلاً من المكلفين يعمل على طبق ما تعلق به العلم الأزلي المربوط بالصورة العلمية، فإن الله يعلم أن المكلف الذي سيخلقه ويخرجه من العلم إلى العين ماذا يعلم وكيف يصرف إرادته واختياره وماذا يكتسب والعمل بهذا الوجه يحقق الكسب والإختيار، فإن العلم الأزلي حاك عن المعلوم الخارجي وتابع له، فصح أن كلاً يعمل على شاكلته.

ومنهم من فسر الشاكلة بجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه، أي فمن كان جوهر روحه منوراً مشرقاً ظهرت منه الأعمال الحسنة، ومن كان جوهر روحه مظلماً صدرت منه الأعمال السيئة، ولكن هذا التفسير ليس بمرضي لأنه على ذلك تكون الأعمال تابعة لذلك الجوهر المخلوق كذلك فلا يبقى مجالٌ لتصرف صاحب الروح على خلاف مقتضاه، فإن الماهيات الإنسانية متحدة أو مختلفة إذا كانت مطبوعة ومجبولة على الإشراق، أو على خلاف ذلك تكون الآثار الصادرة من لوازم الماهية كالزوجية للأربعة، والفردية للثلاثة، ولازم الذات لا يزول، فالحق في التفسير غير هذا الأخير والله الهادي إلى سواء السبيل ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ أي الذي برأكُمْ ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي أحسنُ طريقة وأسلم منهاجاً.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه. فسألوه فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، فظننت أنه يوحى إليه فلما نزل الوحي قال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية... وفي السير عن ابن عباس ﷺ أن قريشاً بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم: سلوهم

محمداً، فإنهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا فخرجا، حتى قدما المدينة فسألوهم. فقالوا: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فجاؤوا وسألوه فبين لهم ﷺ القضيتين وأَبْهَمَ أمر الروحِ وهو مبهم في التوراة، والآية على هذا مكية، وعلى السابق مدنية. والمقصود بالسؤال الروح الإنساني المتصف بالكمالات العلمية والعملية والقُوَى النفسية على اختلافها وكثير من العلماء قالوا: إنها مباينة للروح الحيواني الذي يوجب الحس والحركة الإرادية، وقالوا: إنه جوهر مجرد عن المادة متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، واستدلوا على ذلك بوجوه:

منها: أنها بتعقلها وإدراكها للأشياء تكون محلاً لما ليس بمادي كالمجردات وللأشياء التي لا تختص بوضع ومقدار كالكليات، ولما لا يقبل الانقسام كالوجود والوحدة والنقطة وسائر البسائط التي إليها تنتهي المركبات، وما كان كذلك لا يكون جسماً ولا جسمانياً بل يكون مجرداً عن المادة.

ومنها: أنها تدرك ذاتها وآلاتها وإدراكاتها، ولا يلحقها ضعف وكلال بضعف الأعضاء والآلات بل تزداد قوة وكمالاً ولا شيء من القوى الجسمانية كذلك.

ومنها: أن القوة العاقلة لو كانت في جسم فإما أن يكفي في تعقله له حضوره عنده فلزم أن لا ينقطع تعقلها عنه، وإن لم يكف حضوره بل كان الإدراك بحصول الصورة لزم أن لا يحصل لها إدراك له لامتناع تعدد الصور لشيء واحد، فلا بد أن تكون جوهراً مجرداً عن المادة.

ثم إن من العلماء الذين قالوا بتجردها من قال إن النفوس الإنسانية متحدة بالنوع والاختلاف بين أفرادها بالأوصاف والعوارض ولا ينافي ذلك قوله ﷺ: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»** لأن اختلاف الأفراد في الأوصاف وصل إلى حد كاد أن يلتحق باختلاف في الذات والماهية. ومنهم من يقول إنها ماهية جنسية تحتها أنواع مختلفة تحت كل نوع أفراد متحدة الماهية متناسبة الأحوال وهذا هو الموافق للحديث الشريف المذكور آنفاً، فإن الذهب والفضة نوعان مختلفان من جنس المعدن. وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة، وليس في قوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ ما يدل على وجه منها، إلا أن الجواب المذكور

في الآية لا يليق إلا بوجهين: الأول أن السؤال عن حقيقتها، والجواب أنها جوهر بسيط مجرد محدثٌ بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد. والثاني السؤال عن قدمها وحدوثها، والجواب أنها من أمر الله وفعله فهي حادثة. ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة عدمه فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة، ولا يلزم من كونها مجهولة نفيُها. ويشير إليه قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ومبنى هذا أيضاً الفرق بين عالم الأمر وعالم الخلق وحاصل الجواب على الثاني أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده، وجعل قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إحتجاجاً على الحدوث بمعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها ذاك، فلا تزال في تغير من حال إلى حال وهو من أمارات الحدوث هذا.

ثم حاصل المعنى: أن الناس يسألونك عن الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره، قل: الروح من الإبداعيات الكائنة بأمر ربي بكلمة كن من غير مادة وتركيب منها، ووجد وحدث بإحداثه وتكوينه، وماهيتها غير معلومة ولا يلزم من عدم العلم به عدم وجوده ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولو لزم من عدم العلم عدم الوجود لزم أن لا يكون كثيرٌ من الأشياء المحققة موجودة لعدم علمنا بها.

وهنا بحثان: الأول في حقيقة الإنسان، والثاني في حدوث الروح مع البدن أو قبله.

أما البحث الأول ففيه عند المحققين قولان: الأول أن الإنسان عبارة عن جسم نوراني حي علوي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سارٍ فيه سَرَيانَ الماءِ في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل، والتفرق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحاً لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان. والروح عبارة عن ذلك الجسم واستحسن هذا القول الإمام، فقال: هو مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت. وقال ابن القيم في كتابه الروح: إنه الصواب ولا يصح غيره. وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة.

الثاني إنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح، وليس بداخل العالم ولا خارجه لا متصل به ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة. وذهب إليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم الشيخ أبو القاسم الراغب الأصفهاني وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي وأكثر أهل المكاشفة والرياضة وجمع كثيرون من غيرهم.

وأما البحث الثاني أي حدوث الروح مع البدن أو تقدمها عليه: فذهبت طائفة إلى حدوثها قبل حدوث البدن منهم محمد بن نصر المروزي وابن حزم الظاهري، واستدل لذلك بما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**الأرواح جنودٌ مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر إختلف**» قال ابن الجوزي في تبصرته: قال أبو سليمان الخطابي: معنى هذا الحديث الإخبارُ عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد. وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر فماذا استعد جسدٌ لشيء منها هبط إليه وأنها تعودُ إلى ذلك البرزخ بعد الوفاة. وبعضهم استدل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عام. وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده وذهب آخرون منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي إلى الحدوث بعده. ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم الحديث الصحيح: «**إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**» ووجه الإستدلال: أن الروح لو كان مخلوقاً قبل لقيل ثم يُرْسَل إليه الملك بالروح فيدخلهُ فيه. واختار الجمهور هذا القولَ. وبابُ التأويل والاستدلال مفتوح للفريقين. ولكن الذي يطمئن إليه القلب على ما يستفاد من ظواهر الأخبار، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ القول الأول، وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد بمدة يعلمها الله تعالى وحديث خلق ابن آدم يظهر تأويله على أن الله أمر الملك المخصوص الموكل به بأخذ الروح المختص به وربطه بذلك الجسد على وجه يعلمه الله سبحانه وتعالى، ولا نكرةَ في ذلك قطعاً. ثم التحقيق أن الروح والنفس الإنسانية شيء واحد وتعدد الأسامي لنفس بحسب استعدادها واتصافها بالقوة الخيرة والشريرة، كما ذكرناه سابقاً هذا.

وأما مستقر الأرواح بعد مفارقة الأبدان، فالذي دلت عليه الأخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف؛ فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين. وصح

أن آخر كلمة تكلم بها ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**» وهو يؤيد ما ذكر. ومستقر أرواح الشهداء في الجنة، تردُ من أنهارها، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وروي في أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك. وروى ابن المبارك عن كعب قال: جنة المأوى جنة فيها طير خضر، ترعى فيها أرواح الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً. ولعل هذا في عوام الشهداء، وما تقدم في خواصهم، أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون إلى غير ذلك.

وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين، فقيل في الجنة أيضاً. وهو نص الإمام الشافعي. وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعاً: «**إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه**» ورواه الإمام أحمد في مسنده، وخرجه النسائي عن طريق مالك، وخرجه ابن ماجه، ورواه خلق كثير. وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعاً ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين هو مستقر أرواح الشهداء. وقيل: مستقر أرواح الموتى أفنيةُ قبورهم، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث. واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «**إذا مات أحدكم عرضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى**» وبأنه ﷺ حين زار الموتى قال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**» هذا.

ولكن الحق كما أفاده بعض المحققين الأصفياء أن لا تتقيد أرواح الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بمستقر واحد، لأنهم طُلَقاءُ في الكون تستقر في العرش وفي الجنة وفي أي مكان شاؤوا، وأن أرواحهم أينما استقرت فلهم علاقة برقية حضورية بمقابرهم ومشاهدهم، فيخلق الله تعالى فيهم إدراك زوارهم، وأن من سلم عليهم يعلمون بسلامه بإعلام من الله تعالى. ومستوى أرواحهم فوق مستويات الشهداء والصديقين والصالحين. وأن أرواح غيرهم أيضاً من السعداء أينما استقرت فلهم علاقة حضورية بمقابرهم، وهذه العلاقة علاقة استيعابية عامة تشمل كل من زارهم وأهدى لهم التلاوة، وثوابَ الأعمال على ما قرره المحققون من أنه يصل مثل ثواب ما قرأ لهم من آيات القرآن، وثواب الصدقات التي يتصدق بها لهم بإذن الله تعالى، ويفرحون بتلك الهدايا كما يفرح الأحياءُ من الأحباء بالهدايا والكلمات

الترحيبية وما شاكل ذلك. ولا تكن في ضيق صدرٍ مما تلونا عليك فإن رحمة الله وسعت كل شيء وهي مكتوبة للمتقين. وإن شئت أن تحقق ما قلنا فارجع إلى محله من كتب المسانيد لا سيما مسند الإمام أحمد ﷺ وكتب الفقه المدونة المعتمدة من المذاهب الأربعة، وخلاصتها الصافية من الأكدار والاضطرابات وعلى ذلك عقيدة الأكثرية الساحقة من أئمة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني أن هذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين أنزلناه إليك رحمة بك وبأمتك تفضلاً وإحساناً لا وجوباً وتحتماً، ولئن شئنا والله لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك أي لنمحينه من صدور من هو في صدورهم وسطور من هو في سطورهم، ونمنع الملك الجليل جبريل من التنزيل، إذ لا يتنزل إلا بأمرنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي لهذا القرآن وتنزيله وإبقائه عندكم ﴿وَكِيلًا﴾ أي متعهداً وملتزماً باسترداده بعد الذهاب بأي وجه من وجوه الاسترداد ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ من ربك تعاونك وتردُّ عليك ما ذهب منك، فإنها تكون وكيلاً إعتبارياً لك بذلك الأمر الخطير لفضله الشامل وكرمه الكامل، لا سيما بالنسبة إليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ﴾ ولم يزل ولن يزال ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ من كل وجه من وجوه الاصطفاء والتفضيل والتخصيص بالرسالة العامة الخاتمة للنبوة والتنزيل. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما سبق له من التوصيف في البيان ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أو ما يقارب المثل ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ومُعيناً بكل جهةٍ من جهات المعونة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا وغيرنا أسلوب التعبير للناس أهل مكة ومن بلغ ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المعجز بالبيان والمعاني وبدائع الاستحسان ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل موضوع مهم مرفوع ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الناسون لحق الله تعالى عليهم ورعاية الحق المطابق للواقع ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ وجحوداً بأنعم الله تعالى المتوالية عليه من كل جانب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن

﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ تفجر من الباب الأول، والينبوع مصوغ من نبع الماء كيَعبُوبٍ من عب الماءُ إذا زَخَرَ وكَثُر مَوْجُه، فالباء زائدة فيها للمبالغة، والمراد بالينبوع عين لا ينضب ماؤها. وعن السدي أن الينبوع هو النهر الذي يجري من العين ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان كثير الأشجار ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ خصوهما بالذكر لإفادتهما القوت والقوة، أو لغلبتهما في بعض أنحاء الجزيرة ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ من باب التفعيل ﴿خِلَـٰلَهَا﴾ أي وسط تلك الجنة فنصبه على الظرفية ﴿تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾وما يرى فيها من المواد ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ عند التهديد والوعيد ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كسفة كقطعة لفظاً ومعنى ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلاً لنا نرى كلاً منهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير القبيل بالكفيل، أي كفيلاً بما تَدَّعيهِ يريدون شاهداً لك بصحة ما تدعي ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي ذهب، أو من مواد ذوات زينة عجيبة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تصعد في معارجها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نستسلم لها ولا نعترف بها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ بلغتنا وفيه تصديقك ﴿قُلْ﴾ لهم رداً عليهم وتعجباً من جهلهم بطاقات الرسل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ عن أن يظهر شيء في ملكه بدون أمره وإرادته ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل ليس لهم وظيفة إلاّ تبليغ ما نزل عليهم، ولا قدرة لهم على الإتيان بشيء من تلك المقترحات وأمثالها ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الذين اقترحوا ما اقترحوا ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ إستثناء من أعم الفواعل أي ما منعهم من الإيمان شيء إلا قولهم الفاسد في مقام الإستنكار: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ مستنكرين بعثَ الرسل من البشر إلى البشر.

﴿قُلْ﴾ في مقام تحقيق الحق وإزهاق الباطل وأن إرسال الرسل إلى بني نوعهم مملوء من الرحمة والحكمة والنعمة: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ مشيهم ولا يصعدون إلى السماء ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مقيمين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾ من السماء ﴿مَلَكًا رَّسُولًا﴾ إليهم من نوعهم يُعلمهم مالا يصِلُ إليه علمهم

وإدراكهم. يعني إن تأييد العقل المادي بالعقل الروحي، وإعانة أهل الشهادة بعلوم الغيب وترقية قلوب الضعفاء القلوب بالمعلومات المهمة من سنة الله تعالى في الكون ولا تجدون لسنته تبديلاً. ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما ألزمتهم الحجة وبينت لهم ما يوافق الحق والحكمة ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بيني وبينكم في تبليغ ما أرسلت به والنصح في أدائه والمداراة معكم بما يمكن مني، فليس على الرسول عتب بعد النصب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ ولم يزل ولن يزال بعباده ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهر الأعمال وبواطن الحال، وإليه المرجع والمآل.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي أنصاراً ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله عز وجل ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند قيامهم عن قبورهم ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي كائنين عليها إما مشياً بأن يزحفوا منكبين عليها، وأما سحباً بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكن لهيبها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ﴾ العذاب الشديد المنتقل إلى الأشد عذابهم المقرر لهم على هذا المنهج الذي لا يتبدل ولا يتخفف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ البينات النازلة في كلام العليم الخلاق والواضحة بالنظر في أنفسهم أو في الآفاق ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ في بيان كفرهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي عظاماً باليات متفرقات ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ مستأنفاً لعالم ثان من الزمان.

ثم يقول الباري جل شأنه مستنكراً إستفهامهم الإنكاري ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أولئك الكفار المنكرون للبعث والخلق الجديد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس والجن حتى يحشرهم ويحاسبهم فيثيبهم أو يعاقبهم. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أي وجعل لإعادتهم بخلق جديد وقتاً معيناً محدوداً ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شبهة في تحققه ووجوده ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ وإنكاراً لتلك الإعادة.

ثم ظاهر الآية الكريمة أن الكفار أنكروا إعادتهم يوم القيامة على معنى جمع أجزائهم المتفرقة وإفاضة الحياة عليها كما كانت في الدنيا فرد عليهم بطريق برهاني هو أن الله قادر على خلق السماوات والأرض، وكل قادر على ذلك قادر على إعادة الأجزاء المتفرقة فيما عدا من أخبرَ الصادقُ بعدم تفرق الأجزاء له بعد الموت كالأنبياء والرسل الكرام، ومن لم يعمل خطيئة قط والمؤذنين احتساباً والشهداء في القتال لإعلاء كلمة الله ونحوهم ممن حُرِمَت أجسادهم على الأرض، وتلك الأجزاء هي الأجزاء الأصلية الحاصلة في أول الفطرة حال نفخ الروح، وهي عندهم محفوظة من أن تصير أجزاءً لبدنٍ آخرَ فضلاً عن أن تصير أجزاءً أصليةً له، وذكر المثل إما جارٍ على طريقة (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل. أو المراد به المماثلة في التركيب والشكل. وذهب بعض إلى أن الباقي في من عدا من لا يبلى هو عُجبُ الذنب الذي في آخر سلسلة الفقرة الظهرية، ويعاد عليه أمثالُ ما كان موجوداً في أعدل أوقاته في الحياة، والمماثلة ظاهرة بين المخلوق الجديد والمخلوق الفاني، وحقيقة الإنسان هي كما كانت بلا تبدل. ولو نظرنا إلى الأدلة الكثيرة الواردة في أن نشوء أهل السعادة على وجه أحسن وأملح مما كان بحيث يتعجب من حسنه، وأن نشوء أهل الشقاوة على وجه يكون أفظع وبعيداً عن الحسن والملاحة، لقلنا أن الله سبحانه يعيد الإنسان على ما كان يريد أن يعيده بجمع أجزائه الأصلية كلها أو بعضها، وخلق صورة أخرى مثل ما كانت في الدنيا تركيباً، وإن كانت أحسن نضارة ونظارة وجمالاً وملاحة، أو كانت أبعد صورة من الجمال والحسن والنضارة بحيث تناسب حال الشقاوة، وذلك يكون موافقاً لتلك الأدلة الواردة في الموضوع.

﴿قُل﴾ يا أيها المنكرون للرسالة ونزول القرآن على بشر مثلكم يهدي المكلفين إلى الحق والحاسدون على أولئك الناس الموهوبين الذين أنزل الله عليهم رحمته إنما أنتم تقيسون أحوال الغيب على الشهادة، وتنظرون إلى ألطاف الباري على عباده نظركم إلى بخلكم بالخير والإحسان والإفاضة، وذلك قياس سقيم عقيم ﴿لَّوْ

﴿أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ أي خشية الفقر ونفاد الخزائن، وأما الباري سبحانه وتعالى لو أعطى كل مكلف في الدنيا مقدار ما لا يدخل في العد والإحصاء فهو قادر على ذلك ولا يخشى إقلالاً ونفاداً، ولذلك خص الأنبياء والمرسلين بهبات كثيرة وعطايا وفيرة، وخص عبده المختار محمداً ﷺ ببعثه رحمة للعالمين، وإنزال القرآن عليه وإبقاء دينه إلى يوم الدين. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي ممسكاً بخيلاً، وأما الباري سبحانه وتعالى فلم يزل ولا يزال ولن يزال كريماً جليلاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ أي تسع أدلة واضحات الدلالة على نبوة موسى عليه السلام وصحة ما جاء به من عند الله تعالى. وفي تعيين هذه الآيات التسع أقوال: فمن المفسرين من قال: هي العصا، ثم الضفادع، ثم القمل، ثم موت البهائم، ثم بردٌ كنار أنزل مع نارٍ مضطرمة أهلكت ما مرت به من نبات وحيوان، ثم جراد، ثم ظلمةٌ، ثم موتٌ عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والتنين، ونقص من الثمرات. وروي غير ذلك. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فقلنا له سلهم عن فرعون ليرسلهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ﷺ فسأل على صيغة الماضي بغير همز وهو لغة قريش. أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي سُحِرْتَ فتخبط عقلك. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام رداً لقول فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التسع أو جنسها ولو في البعض وهذا أظهر، إذ لم تنزل الآيات كلها إذ ذاك ﴿إِلَّا رَبُّ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما القادر على ما أراد حال كونها ﴿بَصَآئِرَ﴾ تبصرك صدقي ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي مصروفاً عن الخير.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يخرج موسى ومن معه من قومه من أرض مصر التي هم فيها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي فعكسنا عليه مكره؛ فإنه أراد إهلاك موسى وقومه وبقاء نفسه وأتباعه من الأقباط فأهلكنا فرعون وقومه ونجينا الآخرين ﴿وَقُلْنَا﴾ على لسان موسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد فرعون ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها وهي أرض مصر، وهذا إن ثبت أنهم دخلوا أرض مصر بعد ذلك أن المراد بالأرض الأرض المقدسة وهي أرض الشام ومعناه حينئذ التمكين من الإستيلاء على الأرض المقدسة والبقاء فيها كما تحققت في زمان يوشع عليه السلام. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وعد الحياة الآخرة أي قيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي مختلطين مع من قابلكم وعاداكم حتى تعلموا ماذا نعمل بهم يوم الحساب والميزان والعذاب ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ عاد إلى بيان حال القرآن الكريم بعد بيان أحوال الناس على اختلافها، فقال وبالحق أنزلناه أي أنزلنا القرآن إنزالاً متلبساً بالحكمة والصيانة حتى لا يشوبه شيء مما يخالفه، وبالحق نزل كذلك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ...﴾ منصوب على قاعدة الإشتغال، أي وفرقنا قرآناً فرقنا آياته بين أمر ونهي، وحِكم، وأحكام، ومواعظ، وأمثال، وقصص، وأخبار مغيبات أتت.. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على تدريج ومهلة، فإنه أيسر لفهم المعنى وحفظ المبنى، والإحتواء على أسراره المكنونة، وأحكامه المقصودة ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ﴾ في مرات كثيرة ﴿تَنزِيلًا﴾ على حسب الحاجة للجواب عن

السؤال، ولبيان أحكام الحرام والحلال والوعد والوعيد في الامتثال والإحتيال ﴿قُلْ﴾ للذين كفروا: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ سواء عندنا فـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة في النزول، وعرفوا حقيقة الوحي وعلموا بنبوتك ﷺ ونزول القرآن عليك ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ يسقطون عليها بسرعة حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ أي ساجدين لله تعظيماً له تعالى، أو شكراً للوفاء بوعده تعالى بإنزاله عليك.

وفسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه، والسجود، وإن كان على الجبهة والأنف، لكنه ذكر الأذقان لإفادة المبالغة في سجودهم وتحاملهم على الوجه والأنف أي أنهم يتحاملون على الجبهة والأنف بحيث يلتحق بهما الأذقان وتكون مساوية لهما في وقوع الاعتماد عليها. والآية نزلت في عبد الله بن سلام وأتباعه الذين دخلوا في الإسلام بإخلاص تام. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي إنه كان وعده ببعث محمد ﷺ ونزول القرآن عليه محققاً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فرحة بإنجاز الوعد السعيد المفيد لكل مسعود الموصل إلى أهم مقصود ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ بكاؤهم ﴿خُشُوعًا﴾ فإن البكاء إذا كان عن حرارة القلب يجر إلى مزيد من الخشوع، أو يزيدهم القرآن الكريم بسماحهم له خشوعاً لله تعالى.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ أيْ أيَّ واحدٍ من الاسمين تدعو ذاته به ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ روي أنه صلى الرسول ﷺ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه: يا الله يا رحمٰن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت. وعن الضحاك أنه قال: قال أهل الكتاب للرسول ﷺ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه: يا الله هذا الاسم فنزلت. والمراد على الأول التسوية بين اللفظين، فإنهما يطلقان على ذات واحدة، وإن اختلف الإعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق. وعلى الثاني أنهما متساويان في حسن الإطلاق والإيصال إلى المقصود. والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين، حذف أولهما استغناء عنه، و﴿أَوِ﴾ للتخيير، وأياً اسم شرط وتنوينه عوض عن المضاف إليه، و﴿مَّا﴾ صلة لتأكيد ما في أي من الإبهام والضمير في قوله ﴿فَلَهُ﴾ راجع إلى المسمى المستفاد من المقام، لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام: أياً ما تدعو فهو حَسَن لأن له الأسماء الحسنى أي وكل منها

تعبير عن ذات الواحد الواجب الوجود والمغايرة في اعتبار الأوصاف المفهومة منها، أو أياً ما تدعو فهو حسن لعدم الفرق بالحقيقة بين اسم الله واسم الرحمٰن، فاستعمال كل منهما حسن تساويا في الاستعمال أو تخالفا فيه بأن تكثر الأول وتقل الثاني، أي وما دام له الأسماء الحسنى فقل: يا الله أو يا رحمٰن، أو يا رحيم، أو يا ملك، أو يا قدوس. . . وهكذا إلى آخرها. وهي تسعة وتسعون كما قال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**» أي من ضبطها وتلفظ بها وذكر الله تعالى بها مؤمناً بمعناها وثبوتها للذات الجليلة دخل الجنة.

واعلم أن تلك الأسماء، وإن كان كلها دالة على ذات الباري تعالى ومتساوية في ذلك، لكن فيها الاسم الأعظم، وفي تعيينه أقوال: روي أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إلٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**» وروي أنه ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: وإلهكم إله واحد لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم. وفاتحة آل عمران: الم الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم**» ونص حجة الإسلام الغزالي في كتابه المقصد الأسنى على أن لفظ (الله) أعظم الأسماء التسعة، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره، ولأن أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً، وسائر الأسماء قد يسمى به غيره عز وجل، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها. واسمه تعالى الرحمٰن لا يطلق على غيره تعالى، وهو من هذا الوجه قريب من اسم الله سبحانه، وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً، ولذا جمع عز وجل بينهما في قوله سبحانه ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ انتهى.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله مختف بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به. فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءاتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمِعُهُمُ القرآنَ حتى يأخذوه عنك ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ أي وسطاً

بين الجهر والمخافتة، وظاهره أن المراد بالصلاة القراءة التي هي أحد أجزائها مجازاً. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزير ابن الله، والملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وهذا رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية. ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون رداً على الوثنية. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ناصر ومانع له عن الذل لاعتزازه بنفسه، أو لم يتخذ ولياً يواليه لكونه ذليلاً يعتز بمناصرتهم، حيث يستحيل أن يعتريه الذل وهو ذو الجلال والإكرام ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال. روى غير واحد أنه ﷺ كان يعلم الغلام من بني عبد المطلب إذا أفصح الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات، وسماها ﷺ آية العز كما أخرج أحمد والطبراني عن معاذ ﷺ، وأخرج أبو ليلى عن أبي هريرة ﷺ قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويدي في يده فأتى عَلى رجلٍ رَثّ الهيئة فقال: «أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟» قال: السقم والضرّ. قال ﷺ: **«ألا أُعَلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً»** الآية فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حالته فقال: «مهيم؟» فقال: لم أزل أقول الكلمات التي علمتني.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفَرَج، والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل ابن أبي فديك، قال قال رسول الله: «**ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل** ﷺ **فقال: يا محمد قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً**». وأخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قال لها: «**إذا أخذتِ مضجعك فقولي: الحمد لله الكافي، سبحان الله الأعلى، حسبي الله وكفى، ما شاء الله قضى، سمع الله لمن دعا، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجى، توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً**». ثم قال ﷺ «**ما من مؤمن يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره**» وهذه من المأثورات، ومن قرأها انتفع بها بإذن الله رب العالمين.

سورة الكهف

مكية، وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا
لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا
﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي كل فرد من أفراد الحمد والثناء الوارد من كل فرد من أفراد الحامدين، أو جنس الحمد وماهيته، أو الحمد المعين المعهود الذي حمد الله تعالى به ذاته ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ﴾ أنعم على أفراد المكلفين وغيرهم بأن ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ المعين المخصوص المضاف إلى ربه إضافة معنوية ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكامل الذي امتاز بأن ينزل لاستيعاب أحكام الدين الإعتقادية والعملية الأصلية والفرعية ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾ أي لذلك الكتاب ﴿عِوَجَا﴾ أي شيئاً من العوج والاختلال لفظاً بمخالفته لأصول الفصاحة ومعنى بمخالفته لأصول البلاغة وتناقض المعنى أو عدم تناسبه مع واقع حاجة المكلفين المنصفين المتصفين بالإعتدال في القوى الثلاث: الشجاعة، والعفة، والحكمة ﴿قَيِّمًا﴾ على سائر الكتب السماوية شاهداً بصحتها، أو قيماً على مصالح العباد باحتواء حاجات المعاش والمعاد، وقد أنزله الله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ﴾ العباد ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ صادراً ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ على من خالفه بأن كفر به، أو آمن ولكنه خالف أحكامه ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ

يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ويبشر من جمع بين الإيمان به وإطاعة أحكامه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو نعيم الجنة الخالدة حال كونهم ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من دون الإنقطاع والإنتهاء ﴿وَيُنذِرَ﴾ بالأخص الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كبني حريث المعتقدين بكون الملائكة بنات الله واليهود القائلين بأن عزيراً ابن الله والنصارى المدعين أن المسيح ابن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي باتخاذ الولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ حتى يكون اعتقادهم ناشئاً عن معرفة ﴿وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾ المؤسسين لهذه الإعتقادات الفاسدة حتى يكون تقليدهم لهم في ذلك تقليداً سديداً رشيداً، وإنما اعتقادهم بذلك سفه على سفه وظلمات بعضها فوق بعض ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي عظمت مقالتهم تلك في الكفر والضلال إذ فيها نسبة غير معقولة وغير مقبولة، حيث لا مناسبة بين واجب الوجود الموصوف بالكمال والممكن المعروف بالنقص والاختلال، حتى يزعم زاعم أن الواجب محتاج إلى هذا الممكن، وأن التناسل والحاجة إليه موقوف على قبول المحتاج للفناء واحتياجه إلى ما يبقى به نوعه، والواجب تعالى حي قيوم لم يزل ولا يزال ولن يزال. وصيغة كبر بضم العين، وكل ما كان على منوالها كظرف، أو محولاً من وزن فعل بفتح العين أو كسرها تفيد بالمبالغة وتلحق بباب التعجب. ففاعل ﴿كَبُرَتْ﴾ هنا ضمير راجع إلى المقالة السابقة و﴿كَلِمَةً﴾ منصوب على التميز وما بعدها صفتها، أي كبرت تلك المقالة كلمةً تخرج من أفواههم. والعبارة في قوة ما أكبرها كلمةً خارجة من أفواههم، وذلك قول المبرد والأخفش. وأمّا أكثرُ النحاة فعلى إلحاقها بباب نعم وبئس، وأثبت لها جميع أحكامها. فكبرت هنا بمعنى بئس، وفاعلها راجع إلى التميز بعده، وتخرج صفته على جواز الصفة للتميز أو صفة للمخصوص بالذم المحذوف. وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون في ذلك الموضوع إلا قولاً كذباً، تصريح بأن الجملة السابقة لإنشاء الذم ولا شيء أحق بالذم من الإفتراء على الله رب العالمين.

وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ بيان لواقع حال الرسول ﷺ من تأسفه وتأثره على إصرار المشركين واستمرارهم في الكفر وإنكار ذلك الهادي إلى الصواب وتسليته بما بعدها من بيان فناء الدنيا ورجوع الناس إليه تعالى ويقول له بحسن الخطاب: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أيها الرسول الرؤوف الرحيم ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ ومهلكها

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي من بعدهم على إصرارهم على الكفر وتوليهم عن الإيمان ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي بهذا الكتاب المنزل عليك ﴿أَسَفًا﴾ منصوب على كونه مفعولاً له لقوله ﴿بَٰخِعٌ﴾ ويقول له ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من كل ما يبصر بالعين ويدرك بالعلم ويستخرج ويستفاد منه ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ تتزين به وتمتاز به من سائر الأشياء يتنعم بها الإنسان ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ ونختبرهم بها ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من تلك الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أي تراباً ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، فمآلها إلى الفناء وبعد فناء هذه الزينة ومن تنعم بها يرجع الكل إلى اللقاء والحساب وينال كل ما يستحقه وما أشقى من تعس بالشقاء، وما أَسْعَدَ من سعِد بحسن المواجهة واللقاء.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن الكريم للإنذار والتبشير وجمع الملكفين على الإيمان بالله وحده، وأن الدنيا وزينتها آيلتان إلى الفناء، وأن الباقي هو الباقيات الصالحات.. أتى بذكر أصحاب الكهف الذين آمنوا بربّهم وتركوا الدار والديار لعبادة الواحد القهار، فعاملهم الله تعالى بالكرامة وذكر آثارهم في العصور مرّ الليل والنهار، وبذكر أصحاب الرقيم الذين ابتلاهم الله تعالى في الغار فنجاهم ببركة أعمالهم الصالحة، وقال ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ والخطاب لسيدنا محمد ﷺ والمقصود جميع المكلفين الفاهمين للآيات. وأم منقطعة مقدرة ببل التي هي للإنتقال هنا من غرض لا للإبطال. أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا في بقائهم ونجاتهم وثمرات إخلاصهم عجباً ذات عجب، لا بل كل آية من آياتنا الكونية في أسرارها وإتقانها وحكمتها مما يتعجب منه لكن الناس لا يتعجبون إلا مما يخالف العادة المستمرة وإلا فجميعها آيات من مهمات الآيات ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ثم إن من المفسرين من قال: إن أصحاب الكهف والرقيم عبارة عن طائفة واحدة بدليل أنه بعد أن ذكر الله تعالى أصحاب الكهف لم يذكر عن أصحاب الرقيم

شيئاً، والمحققون منهم على أن أصحاب الكهف قوم وأصحاب الرقيم جمع آخرون. وقصتهم مروية في الصحيحين وغيرهما فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فَأَوَوا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ، فليدعُ كلُّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحدٌ منهم: اللهم إن كنتَ تعلمُ أنه كان لي أجير عمل على فرق من أرز فذهب وتركه، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: إعمد إلى تلك البقر فَسُقْها. فقال له: إنما لي عندك فرق من أرُزّ، فقلت: إعَمدْ إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفَرَقِ، فساقها! فإن كنتَ تعلم أني فَعلتُ ذلك من خشيتك ففرّج عنا! فانساخت عنهم الصخرة.**

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كلَّ ليلة بلبن غنمٍ لي، فَأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاعون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدَعهما فيستكينا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا! فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبَتْ، إلاّ أن آتيها بمائة دينار، فَطَلَبْتُها حتى قَدرْتُ فَأتَيْتُها بها، فَدفَعتُها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها، قالت اتق الله تعالى ولاتَفُضّ الخاتم إلا بحقه! فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك فَفرج عنا! ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا». وروي نحو ذلك عن ابن عباس وأنس والنعمان بن بشير، كلّ يرفعه إلى رسول الله ﷺ.

والرقيم على هذا بمعنى محل في الجبل. وقيل: بمعنى الصخرة. وقيل بمعنى الجبل. ويكون ذكر ذلك تلميحاً إلى قصتهم وإشارة إلى أنه تعالى لا يضيع عمل أحدٍ خيراً أو شراً. ذلك أصحاب الرقيم كما في الصحاح.

وأما أصحاب الكهف فهم كما في الآية الكريمة فتيةٌ شبابٌ، وكانُوا من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا وهربوا خوفاً منه إلى الكهف كما

قال سبحانه وتعالى ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ واتخذوه مأوى وملجأ لهم. والفِتية جمع قلةٍ لفتىً ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رحمة عظيمة بالستر والصيانة عن الملك وأتباعه في الدنيا وبالعفو والمغفرة والدرجة في الآخرة ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الملك وأعوانه الكافرين ﴿رَشَدًا﴾ أي إصابة ووصولاً إلى الطريق الموصل إلى المطلوب ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ أي فجعلنا على آذانهم سترة وحجاباً مانعاً من استماع الأصوات وأنمناهم براحة وهدوءٍ ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي سنوات متعددة أي ذوات عدد كما يأتي في الآية.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكاً من الملوك يقال له (دقيانوس) ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها (أفسوس) وقيل: هي (طرسوس) وكان بعد زمن عيسى عليه السلام. فأمر بعبادة الأصنام، فدعا أهلها إلى عبادتها، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله تعالى سراً، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فَهَربوا ليلاً، ومروا براعٍ مَعَه كلب فتبعهم، فأوَوْا إلى الكهف، فتبعهم الملك إلى فم الغار فوجدَ أثَرَ دخولهم ولم يجد أثرَ خروجهم، فدَخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروَا شيئاً هذا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم من منامهم ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي منهم وهم القائلون لبَثنا يوماً أو بَعْضَ يوم، والقائلون ربكم أعْلَم بما لبثتم ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماض أي ضبط، وفاعله ضمير راجع إلى أي، وما في قوله تعالى ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ مصدرية والجار والمجرور حال مقدم عن قوله تعالى ﴿أَمَدًا﴾ وهو مفعول أحصى ماضي أفعال. والأمد الزمان المحدود. وقيل: أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد بناء على ما اختاره سيبويه من جواز بناء أفعل التفضيل والتعجب من المزيد بحذف الزوائد، أي أكثر جمعاً وضبطاً له. وأمَداً نصب بفعل دل عليه أحصى لا به لأنه لا ينصب المفعول به إلا على قول ضعيف، ويجوز أن يكون نصبه على كونه تميزاً.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ

ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ
وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ
ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ
مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ
أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ
بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي نحكي لك خبرهم وما كان منهم بالوجه المطابق للواقع: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ جمع فتيّ كصبي وصبية ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ بالتثبيت ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قوينا قلوبهم حين قاموا بين يدي الملك وعارضوه وقالوا ربنا رب السماوات والأرض وحده لا شريك له ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ لا بالإستقلال، ولا مع الخالق المعبود الموصوف بالكمال ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي والله إذا دعونا من دونه إلهاً قد قلنا قولاً ذا شطط وبعد عن الحق مفرط في التجاوز على حق الربوبية ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ على وجه السفه ومخالفة الحق بدون أي دليل ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي على عبادتهم ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ بدليل واضح يفيد مدعاهم الفاضح، فإن الإعتقاد بدون دليل يهدي للرشاد فساد ما وراءه فساد ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ بنسبة الشريك أو الشركاء إليه.

ولما قاموا وقالوا ذلك أمهلهم الملك مدةً وجيزة لإعادة النظر في أحوالهم ولما خرجوا من عنده تشاوروا فيما بينهما بأنهم إذا بقوا عند الملك والقوم المشركين صاروا من الهالكين وقالوا ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم الإشراكية الفاسدة ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ تختفوا عن أعينهم وإن احتجتم إلى الطعام والشراب أو إلى مخرج من الأعداء ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ من كل الجهات ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به بحيث لا تقعون في عسر لا يطاق، فإن الله وعدَ من هاجر إليه بالسعة في المعيشة، والبسط في الحال، والسعادة في المآل.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ أي تعدل وتتجاوز عنهم. والفجوة: المتسع والمحل الواسع. وبيان الآية الكريمة: أن

الكهف كان بحيث قابل بابه بناتِ النعش الصغرى التي فيهن كوكب القطب المسمى بالجدي، وأقرب المشارق إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه. والشمس إذا كان مدارها مداره طلعت مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن، وهو الذي يلي المغرب وغربت محاذية لجانبه الأيسر، وهو الذي يلي المشرق فيقع شعاعها على جنبه وتحلل عفونته وتعدل هواءه، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم، وتبلي ثيابهم، ولعل ميل الباب إلى جانب المغرب كان أكثر، ولذلك وقع التزاور على كهفهم، والقرض على أنفسهم. وقال الزجاج: ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله تعالى الشمس بقدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم واحتج عليه بقوله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الوضع الثابت للشمس بالنسبة إليهم من آيات قدرة الله تعالى ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي إلى الإيمان بها ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ﴾ ولم يؤمن بها ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى الحق ويخلصه من الضلال.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أي أصحاب الكهف ﴿أَيْقَاظًا﴾ أي غير نائمين لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي والحال أنهم رقود أي نائمون حقيقة ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم في حال رقدتهم إلى جهة أيمانهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ الكلب هو الحيوان المعروف. والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسط. ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾ منصوب على أنه مفعول به وعمل فيه ﴿بَٰسِطٌ﴾ مع أنه اسم فاعل بمعنى الماضي لأن المراد هنا حكاية الحال الماضية فكأنه يراد به الحال ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ موضع الباب ومحل العبور من الكهف. وقوله ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو عاينتهم وشاهدتهم، وأصل الإطلاع الوقوف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة. وقوله ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي لأعرضت بوجهك عنهم فاراً ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لملئت منهم خوفاً يملأ الصدر. ونصب رعباً على أنه مفعول به ثان، والمفعول الأول صار نائباً للفاعل بعد تحويل الفعل إلى المجهول. وحاصل المعنى أنهم كانوا في الكهف نائمين على شكل خاص، وكلبهم في معبر الكهف موجود متيقظ للحراسة. وهيئتهم من كثرة الشعور والمنام على وجه قرب بعضهم من بعض في ذلك المحل كانت مخوفة مدهشة، فكنت لو شاهدتهم فيه أيها المشاهد لأعرضت عنهم دهشة وقلقاً، ولملئت منهم رعباً وخوفاً، وكنت تلوذ بالفرار من المحل.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنمناهم في الكهف بعثناهم فيه من المنام والغاية المترتبة على البعث أشياء، منها: أنه يسأل بعضهم بعضاً عن مدة منامهم ولبثهم في الكهف، ليترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ هنا والسائل كبيرهم مكسلينا. ﴿قَالُوا﴾: أي قال بعض منهم في الجواب ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والمراد أنه لم يتحقق لنا مقدار لبثنا، أي لا ندري أن مدة ذلك هل هي مقدار مدة يوم أو مقدار مدة بعض يوم منه. والظاهر أن هذا القول المردد فيه كان في أول انتباههم قبل أن تزول عنهم غفلة النوم حتى ينظروا إلى الأمارات الدالة على الوقت المحدد ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي وقال بعض آخر منهم بعد النظر إلى الأمارات الدالة على طول مدته من طول الأشعار وتغير وضع المحل القول المذكور، أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم والعلم عند الله تعالى.

وبعد أن ظهر لهم أن المدة غير معلومة وكانوا في حال المنتبه المتأثر بطول الزمان من الجوع ورخاوة الجسد والحاجة إلى المعونة ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ المعهودة لنا التي خرجوا منها. ويقال أنها كانت مدينة طرسوس في محافظة الإسكندرونة القريبة من (سورية). والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أنظف على أصول الدين، وأطيب من حيث الطراوة ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي من نوع ذلك الطعام الأزكى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي وليبالغ في لطف الكلام ولين الجانب وإعطاء البدل ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يفعلنَّ ما يُؤدى إلى شعور الناس بكم وبأنكم من أهل المدينة ومن المختفين عن الملك ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأنتم أولئك الناس المخالفون لقوانين ذلك الوقت ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي جعلوا شأنكم دائراً بين أحد أمرين لا ثالث لهما وهو: إما الرجم بالحجارة حتى تموتوا، أو الإعادة وإرجاعكم إلى ملتهم التي هي عبادة الأصنام ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي

إن عدتم إلى ملتهم بعد أن خلصتم منها لن تفوزوا بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنكم وإن عدتم إليها بالإكراه، لكنه بعد ذلك تستحسنون ما هُم عليه، واستحسان الكفر كفرٌ بواحٌ مانع عن الفلاح، أما في الدنيا فلذهاب أعماركم في الكهف وورود الخزي عليكم خزياً تاريخياً يوجب ذكركم بالسوء ما دامت الدنيا باقية. وأما في الآخرة فلموتكم على الكفر وابتلائكم بالنار فلا مآل لكم إلا العارُ والنارُ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ
فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ
كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ
كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا
وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا
﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ
مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ
ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي وكما نجيناهم من الملك القاهر وآويناهم إلى الكهف وحفظناهم فيه من المؤذيات، وأنمناهم المدَّة الطويلة وبعثناهم لتزداد بصيرتهم وقوة إيمانهم بربهم ﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ الناس وأطلعناهم عليهم ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي ليعلم أهل المدينة الذين اطلعوا عليهم ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ لأن استنكار البعث إنما هو استنكار لأمرٍ بعيد حسب العادة. وتلك الأحوالُ الواردة على أولئك الأصحاب الفارين بدينهم من قدرتهم على معارضة الملك، وخلاصهم منه، وفرارهم إلى الكهف، وصيانتهم من أتباع الملك وسترهم عنهم، وصيانتهم في ذلك الكهف، وإنامتهم تلك المدة الطويلة بلا عروض فساد في أجسادهم، ولا غلبة السباع والحشرات عليهم. كل ذلك أمر بعيد في مجاري العادة ومستنكر الوقوع، لا سيما إنامتهم تلك المدة

وصيانتهم من العوارض. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي أعثرنا الناس وأطلعناهم عليهم وكشفنا لهم بعض أحوالهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي أمر دينهم ومآل حالهم عند البعث والنشور. فمنهم من يقول المعاد روحاني فقط ولا تعاد الأجساد معها، فيكون عالم الآخرة كعالم الرؤيا في النوم فبعض الناس في راحة وبعضهم في عذاب وبعضهم يقول: المعاد روحاني وجسماني معاً.

ولما علموا بأحوال أصحاب الكهف وأنهم انتبهوا بعد النوم في المدة الطويلة بلا خَلل وملل علموا أن البعث في الآخرة يكون بالأرواح والأجساد، وأن عالمها عالمٌ جسماني وروحاني عينيّ خارجيّ أو يتنازعون بينهم أمر أولئك الفتية الفارين بدينهم إلى الجبال والكهوف فهل سترهم الله وحفظهم من ذلك الملك الظالم وماذا جرى عليهم في الكهف هل ماتوا هناك وتفتتوا وتمزقت أجسادهم أو حفظهم الله تعالى بوجه من الوجوه التي أراد أن يلطف معهم بها؟ فلما أعثرناهم على أحوالهم علموا أن تلك الواقعة كانت واقعية، وأنهم دخلوا الكهف وكفاهم ربهم بكفايته ووقاهم بوقايته وحفظ أجسادهم في منامهم الطويل، ثم بعثهم على الصحة الإعتيادية حتى يتبينوا أن وعد الله بالبعث والنشور والساعة حق لا ريب فيه، وأن الله على كل شيء قدير أو يتنازعون فيهم بعد الإطلاع على أحوالهم وموتهم ثانية فقالت طائفة: نبني عليهم بنياناً يسكنه الناس فيصير المحل قرية عامرة على تلك الذكريات الحسنة. وقال آخرون: لا بل نتخذ عليه مسجداً ليسكن فيه من أرادَ السكون فيه ويعبد ربه كما قال تعالى ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾ وقوله ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة وهي إما قول الله تعالى رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين فيهم في زمانهم أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ.

حكي أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم (دقيانوس) اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك، وكان نصرانياً موحداً، فقص عليه القصص. فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم. ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل: لما انتهوا

إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا، فدخل فعمى عليهم المدخل، فبنوا ثم مسجداً على حسب غلبتهم على أمرهم وتنفيذ ما أرادوه من بناء المسجد، لأن معنى غلبتهم على أمرهم أنهم إذا أرادوا أمراً لم يتعسر عليهم ولم يحل بينهم وبينه أحدٌ. كما يقال في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ مصدراً بسين الاستقبال دليل على أنه قول الخائضين في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من اليهود والنصارى ومن له شأن في ذلك الموضوع ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم كانوا ثلاثة رجال ويربعهم كلبهم بانضمامه إليهم، والقائل بهذا من اليهود. وقيل: هو قول رئيس من نصارى نجران وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والقائل بهذا من النصارى أو قول العاقب منهم وكان نسطورياً ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ منصوب على المصدرية، أي ويرمون بالخبر رمياً بالغيب وهذه الجملة استعارة للتكلم بكلام لم يطلع عليه المتكلم لخفائه وعدم كشفه للحقيقة فيه، وأصله هو الرمي بالحجارة التي لا تنفذ ولا تصيب غرضاً ومرمى لعدم معرفة راميها بالهدف، أو بكيفية الرمي المصيب وحاصله أن القائلين لم يكن لهم مستندٌ في قولهم وتعقيب القولين بذلك يدل على أنه لا أصل لهما ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا قول المسلمين على استناد إخبار الرسول ﷺ لهم من جبريل عليه السلام، فيكون هو القول الحق ويزيده قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بإسناد العلم إلى القيل بعد رفض قول الفرقتين السابقتين ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي ولا تجادل في شأن الفتية وعددهم أولئك الناس الجاهلين بالحقيقة المتكلمين رجماً بالغيب إلا جدالاً بسيطاً بدون اهتمام به، فإنهم مصرون على مزاعمهم وظنونهم، والظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد، فإن فيما علمت من أحوالهم لكفاية.

وقوله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نهي تأديب من الله لرسوله عليه السلام عن ترك الاستثناء في ما يقول أنه يفعله في المستقبل. أي لا تقل ذلك الكلام إلا مقيداً بقولك ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مثلاً لأن تركه كان السبب في تأخر الوحي عنك عندما سألتك قريش بإيعاز اليهود عن الروح، وأصحاب الكهف وذي القرنين. فقلت ائتوني غداً فأخبركم وما استثنيتَ، ولو قلت إن شاء الله لأتاك

الوحي مستعجلاً. فقوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من النهي أي أنت منهي عن ذلك القول كل وقتٍ إلا وقت تقييده بقولك إن شاء الله.

وأما إذا كان استثناء من قوله ﴿فَاعِلٌ﴾ باعتبار ظرفه أي ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإن أردت مقارنة المشيئة لفعله أي إني فاعل ذلك غداً إلا إذا قارنت مشيئة الله لذلك الفعل فيكون المعنى باطلاً، إذ كيف لا يفعله إذا اقترنت به مشيئة. وأن أردت معارضة المشيئة له ومنعها عنه، أي إني فاعل ذلك غداً إلا أن عارضت ومنعت مشيئته تعالى ذلك فالمعنى صحيح لكنه لا مجال للنهي عن التكلم بكلام كذلك.

وقوله تعالى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي واذكر مشيئة ربك ﴿وَقُلْ﴾ إن شاء الله بعد صدور ذلك الكلام عنك إذا نسيت التقييد به معه، ولو بعد زمان وذلك لرعاية الأدب وملاحظة أن حدوث الحوادث موقوف على مشيئة الله تعالى وإرادته لها. وأما بالنسبة إلى كونها قيداً معتبراً في العقود والحلول والأقارير والأحلاف فالجمهور على أنه يشترط فيه شيئان: الأول نيته قبل انتهاء الكلام. والثاني اتصاله به عرفاً. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من جواز تأخيره عنه، ولو زماناً طويلاً، فالجمهور على خلافه، إذ لو جاء ذلك لم يتقرر شيء مما مر إلى أن يموت أصحابها لجواز إتيانهم به بعده إلى الممات. وقل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمداً ﷺ أن يتكلم بكلام فيه رجاء لإعلاء شأنه أكثر ولزيادة علمه أوفر بأن يقول ﷺ عسى أن يهدين ربي ويوفقني لشيء يكون أقرب وأظهر فائدة للأمة المحمدية من نبأ أصحاب الكهف، فإنه لا يزيد على بيان إخلاص فتيةٍ في دينهم وتوحيد الله سبحانه وفرارهم بدينهم إلى الكهف. والله سبحانه وتعالى يوحي إليك الشرائع والأحكام والإستعداد للجهاد في نشر الإسلام، ويزودك بالإطلاع على حوادث كانت أو ستكون في مستقبل الأيام، فليس مستوى رسالتك العامة الخالدة الوقوف مع الجواب عن عدة أسئلة لا قيمة لها بالنسبة إلى ما أنت عليه من المهام.

ثم استأنف الباري لبيان مدة لبثهم أحياء نائمين في الكهف لأنها هي النقطة الوحيدة الخارقة للعادة في القصة فقال ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ وهذه الآية جملة مستأنفة مبينة للإجمال في قوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ يعني إن مدة الضرب على آذانهم هذه. قالوا

ووجه العدول عن العبارة المعتادة وهي ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر وأظهر. . الإشارة إلى أن المدة بحساب السنة الشمسية ثلاثمائة سنة وباعتبار السنة القمرية ثلاثمائة وتسع.

والإعتراض على ذلك بأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمس وستون يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الرصد الإيلخاني، والسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة، فيكون التفاوت بينهما عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة ودقيقة واحدة. وإذا كان هذا تفاوت سنة كان تفاوت مائة سنةٍ ألف يومٍ وسبعة وثمانين يوماً وثلاث عشرة ساعة وأربع دقائق، وهي ثلاث سنين وأربعة وعشرون يوماً وإحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة. فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة تسع سنين وثلاثة وسبعين يوماً وتسع ساعات وثمانياً وأربعين دقيقة. أي وإذا اعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا أربعة وعشرين يوماً وإحدى عشرة ساعة واحدى وعشرين دقيقة. مدفوع بأن: الخلل في حساب الرصد لا في حساب الصمد. أو أن الكلام مبني على المسامحة بتلك الدقائق والساعات والأيام، ومثل ذلك جار متعارف بين الأنام. وقال بعض: بأن التفاوت نشأ من اختلاف قول المتنازعين في أمرهم، فمنهم من قال: مدة لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة، ومنهم من قال ثلاثمائة وتسع سنين أي ازدادوا تسعاً على قول الأولين.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ ولذلك أخبر عنهم بقوله ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ الآية ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له العلم بما غاب فيها وخفي من الأعيان والأعراض وحدوثها وبقائها فلا تخفى عليه خافية ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ صيغة من صيغتي التعجب، أي ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله لا يقدرُ أحدٌ أن يُحيط بإحاطة سمعه تعالى بالمسموعات واستيعاب بصره للمبصرات، صورتها الأمر ومعناها الخبر، والضمير المجرور عائد إلى الله تعالى، ومحله الرفع على الفاعلية، والباء مزيدة، وأصلها أبصر وأسمع من باب الأفعال، أي كان ذا بصر وسمع، ثم تحول إلى صورة الأمر بمعنى الإنشاء فأبرز الضمير المستتر لعدم قابلية الصيغة له ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله تعالى ولي يتولى أمورهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ أي في تنفيذ قضائه أحداً فهو المشرع وهو المنفذ في الكائنات.

ثم لما كان الوافي بجواب سؤال السائلين هو القرآن الكريم الذي أظهر ما في الغيب من القصص وجاء عليه بنص، وتبين عظمته وإخباره بالمغيبات بحيث اندهشت منه عقول العقلاء.. رغب الله تعالى حبيبه في تلاوته وملازمته والاعتماد على ما فيه بصفة أن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال مخاطباً حبيبه الكريم:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن
دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن
ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ
كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي اعتمد على مولاك الذي اصطفاك وأنزل عليك كتابه ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ واحفظه واعمل به وبلغه المكلفين من عباده، فإن تلاوته عبادة، والعمل به سعادة، وتبليغه إلى عباده أجر ومثوبة وزيادة ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها غيره ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي ملتجأ تلتجىء إليه للصيانة عن شره، كما لا مترجى غيره لنيل خيره ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي واحبس نفسك وثبتها وقررها في المساجد والمعابد وفي السفر والحضر مع المسلمين الذين يدعون ربهم لطلب خيره والهرب عن شره، ولا يدعون غيره. أو يعبدون ربهم بالغداة والعشي كناية عن استيعاب الأوقات، أو عبارة عن طرفي النهار، ويشمل الدعاء والعبادة فيهما الصلوات المفروضة، فإنّ صلاة الصبح غدائية والصلوات الأخرى عشائية. ويريدون وجهه حال عن فاعل الجمع المذكور المشكور، أي حال كونهم يريدون بطاعتهم رضاء ذاته واستجلابَ هِباته والاستنارة

بتجلياته ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نهي العين عن التجاوز إلى الغين، والمراد نهى عينِ الأعيان أعني الرسول ﷺ أي لا تتجاوز يا حبيبي عنهم إلى النظر إلى من لا يهمهم إلاّ شهوات بُطونهم وفروجهم حال كونك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وأمِنَ مكرنا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وتركَ طريقَ هُداه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ مصدر سماعي لفرط وهو تجاوز الحد أي وكان أمره تجاوزاً عن أمر الله وإسرافاً في المال والحال وضياعاً للحال والمآل.

والآية نزلت في عُيينة بن حصن الفزاري وأتباعه، أتى النبي ﷺ قبل أن يُسلم وعنده جماعة من الفقراء، منهم سلمان، وعليه شملة صوف قد عرق فيها، وبيده خوص يشقه وينسجه. فقال عُيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادات مُضرَ وأشرافها إن أسْلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاءِ، فَنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً. وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان في حُنين من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي ﷺ منها مائة بعير، وكذا أعطى الأقرع بن حابس وأعطى العباس ابن مرداس أربعين بعيراً. وقيل: نزلت في أصحاب الصُّفَّة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لا يخرجون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت قال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم**».

﴿وَقُلِ﴾ لهُ ولمن معه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ أي من القرآن الحق نازل من ربكم، أو الأمر الحق ما يكون من جهة الله لا ما يأتي من الهوى واتباع الشهوات النفسية، ولا تطرد أحداً من عباد الله المسلمين لا فقيراً ولا أميراً لا صغيراً ولا كبيراً ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ فإن إيمانه ينفع نفسه ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ فإن كفره يضر نفسه ولا تبال بأحد الجانبين إلا بقدر ما يخصك في الدين، إلا أنه قرر الله سبحانه وتعالى جزاء وفاقاً للفريقين كما قال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي هيأنا لهم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ أي دخانها ولهيبها الشبيه للفسطاط أي الخيمة يعني أنهم يعذبون في نار أحاط بها اللهيب والدخان كالخيمة المحيطة بمن فيها ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش بالزبانية ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي دردي الزيت وخلطه ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ من فرط حرارته عند أخذه لشربه وقربه منها ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المهلُ ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي شيئاً يرتفق به ويستراح به هذا جزاء الفريق الثاني.

وأما جزاء الفريق الأول فهو ما أفاده بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ خبر إن، والموصول لعمومه قائم مقام العائد، أي أجرهم وأجرهم هو المبين بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي يتحلون فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي ﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخُضرة تزيل الحزن كالماءِ والوجه الحسن وعندهم الأنهار الجارية والحورُ العينُ التي تجري فيها الصفاء كاللآلي العارية، وتلك الثياب الخضر ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ الرقيق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الغليظ منها في النساج حال كونهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكةٍ بمعنى السرير حتى يسروا بنظرهم إلى حورهم متقابلين ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ثوابهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ مرتفقاتهم.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي واذكر للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي حتى يتأكدوا على مثوبتهم الحسنى، أو للكافرين الذي لا يؤمنون بالله لعلهم يتذكرون ويتعظون فيتوجهون إلى الله ويتوبون إليه، فاذكر لهم للغرض المذكور مثلاً وأبدل عن المثل ﴿رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطة بهما مطبقة بجانبيهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي وجعلنا وسطهما زرعاً لإضافة الأقوات إلى الفواكه ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ولما كانت كلتا مفرداً لفظاً ومثنى معنى جاز الإخبار عنه بالمفرد كما هنا. وإرجاع ضمير المثنى إليه فيما بعد. أي أعطت ثمارها وبلغت مبلغ الإستفادة منها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولم تنقص من الثمر شيئاً من النقص ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي وفجرنا فيما بين كلتي الجنتين نهراً ليدوم شربهما، وتزيد نضارتهما، وتحلو ثمارهما ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ أي لذلك الأحد ﴿ثَمَرٌ﴾ من أنواع المال والخيرات ﴿فَقَالَ﴾ هذا ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾

المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ورجالاً. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في هذه الحالة من البطر والإستغناء ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بنسبة ماله إلى نفسه وإهماله لجانب قدسه ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة والثروة ﴿أَبَدًا﴾ طول حياتي وأعيش عليها متنعماً إلى أن أموت فأنمحى مثل معز يرعى في المرعى فيموت بلا عود حياة ولا سؤال وجواب ولا حساب وكتاب ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ المشهورة وهي عالم المعاد وحساب العباد ﴿قَآئِمَةً﴾ ثابتة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّى﴾ فرضاً جدلياً ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي من هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾ أنقلب وأتحول إليه كما أن لي في هذه الدنيا ما تراه من الجنان الخارجة عن الحسبان.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أيضاً: عجباً منك وحسرةً وأسفاً عليك ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق أبيك الأعلى آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مخلوقة في الأصلاب والأرحام ثم أخرجك من بطن أمك حياً حياة مستقرة سليماً ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ لا امرأة أو رجلاً من الرجال البارزين المعتدلين المتمولين وكان الواجب عليك أن تشكره.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله لكن أنا، وقرأ به أبي بن كعب. فنقلت حركة همزة أنا إلى ما قبلها وحذفت الهمزةُ ثم الحركةُ، ثم أدغمت النون في النون. وأنا مبتدأ أول وهو ضمير الشأن ومبتدأ ثان، والله مبتدأ ثالث، وربي خبره، والجملة خبر ضمير الشأن، وهي غنية عن الرابط لأن الجملة بعدها تفسيرها والجملة بكمالها خبر أنا، والرابط للكل ضمير المتكلم المضاف إليه. ويقرأ لكن بفتح النون بلا ألف، والمعنى ولكنني بريء عن اعتقادك الفاسد، واعتبر الشأن والواقع أن الله تعالى هو ربي لا غيره ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حَضٌّ للتنديم على ما فرط منه أي لماذا تركت أن تقول ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الأمر ما شاءه الله، أو ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَا قُوَّةَ﴾ على تحصيل أي خير أو تذليل أي شر ﴿إِلَّآ﴾ بسبب تأثير ﴿ٱللَّهِ﴾ ثم استأنف لمعارضته في بطره ودعوى كبريائه عليه وقال ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ مصدر بمعنى المحسوب المقدر من العذاب النازل ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كحر محرق أو بردٍ ممزق ﴿فَتُصْبِحَ﴾ جنتك ﴿صَعِيدًا﴾ أي أرضاً ﴿زَلَقًا﴾ لا نبات فيها ولا تثبت بها قدم ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في أعمال الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي فلن تستطيع الوصول إليه حتى تطلبه. وقوله تعالى ﴿إِن تَرَنِ﴾ شرط وقوله ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ إلى آخره جوابه، أي إن ترني أفقر منك وأقل مالاً وولداً وتطغى عليّ فأنا أتوقعُ من الله على سنته الثابتة لدفع الطُّغاة البغاة أن يبدل ما عندي وما عندك فيرزقني لإيماني بهِ جنةً خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك به نعمته بالنقمة والعذاب. وترى إما من أفعال البصر وفاعله مستتر والياءُ مفعوله وأنا تأكيد له، وأقل حال منه، أو من أفعال اليقين فأقل مفعول ثان ومالاً وولداً تمييز على الوجهين. وقوله تعالى ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي وبعد أن جرى ما جرى بينهما من الحوار وافترقا على ما بينهما من الشجار أحيطَ بثمر الرجل الطاغي المتكبر الكافر وأهلك أمواله المعهودة من الجنتين وما فيهما. وهو مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه أي إستدارته من جميع جوانبه كيلا يفر ويُبادَ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي صار يقلبهما أو مضت عليه ليلة ونزلت على الجنتين ما نزل من البلية فأصبح الرجل يقلبهما. ومعنى تقليبها أن يبدي بطن كل منهما ثم يحول يديه حتى يظهر ظهرهما أي فأصبح متندماً على ما أنفق فيها أي أنفقه في عرصة جنتيه حتى ظهرت عليه جنتان، ولذلك أفرد الضمير ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ المصنوعة لجمع الثمار، أو على العروش المصنوعة لبسط أغصان الكروم. أو المراد بالعروش العروق فإن العرش جاء بمعنى قوام الأمر كما في القاموس لأنها أعمدة الأشجار وأغصانها. ويقول متحسراً ومتندماً من حيث لا ينفعه الندم: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ قال بعض المفسرين كأنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن وعلم أنه أتى به من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك اللّهُ بستانه.

واستشكلت الآية بأن ظاهر قول الرجل أنه كان كافراً ملحداً لأنه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة. وأجيب عنه بجوابين:

الأول: أنه كان مشركاً، ولما كان المشرك ضعيف العقل ونحيف العقيدة فكلما اضطرب حاله اضطرب مقاله، وربما ينفي وجود الله، والعياذ بالله، فضلاً عن الاعتراف بشريكه المزعوم، وفي نتيجة دمار بستانه رجع إلى عقله ووجدانه، وآمن بربه ورفض الإشراك ولكنه لم يُقبل منه، لأنه لم يكن عن صفاء ضميره بل من أثر هلاك ملكه وتدميره.

والجواب الثاني: أنه يتبين من الآية الثانية أنه كان له اعتراف بالله ولكنه لما طغى وبغى وتكبر على صاحبه واعتمد على نفسه فكأنه جعل نفسه مؤثراً وخالقاً لأعماله، ولذلك قال ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منه منقلباً، فاعتبر لهذا مشركاً.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ولم تكن جماعة من الأعوان تقدر على نصره إما بدفع الهلاك قبل وقوعه، أو برد المهلك بعينه أو بإقامة جنتيه وإعادتهما كما كانتا، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ أي ممتنعاً عن حدوث ما حدث وطرأ عليه. ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي هنالك علم وتبين له أن النصرة لله الحق وحده لا يتولاها أحد غيره ﴿هُوَ﴾ أي الباري تعالى ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي خير من كل ما يتصور أنه مثيب نافع ثواباً وعاقبةً لأحبائه. والعقب بضم الأول وسكون الثاني العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ المثل إما بمعنى الشبيه أو الصفة العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل، أي واذكر لهم ما يشبهها في الزهرة والنضارة وسرعة الزوال. أو اذكر لهم صفتها العجيبة الغريبة. وقوله ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي هي كماء أنزلناه من السماء ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فنبت به نبات الأرض فاشتبك وخالط بعضه بعضاً ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ أي فصار ذلك النبات الملتف بعد بهجته ونضارته ﴿هَشِيمٗا﴾ أي يابساً متفتتاً ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ وتفرقه تجيء به وتذهب به حيث شاءت. وظاهر الآية الشريفة أن المُشبه هو شبيه الحياة الدنيا، والمشبه به الماء نفسه، وليس كذلك بل المشبه والمشبه به كلاهما هيئة منتزعة، الأولى من نمو الإنسان وتصاعده وتطوره من الصِبا إلى المراهقة فالبلوغ فالرجولة المعتمدة مع الترقي من الجهل إلى العلم على اختلاف مراتبه، ومن شخصيته الواحدة إلى النمو من الزواج وحصول النسل والجاه والمال والحال ثم الوقوف فالذبول فالبؤس والإفتقار والضعف إلى المرض فالموت. والثانية من نبت النبات فازدياده في الأقطار والإكثار من الفروع إلى حال التكامل، فإخراج الأوراد أو الثمار ثم الوقوف عن النمو، ثم طرو الضعف واليبس والإنكسار إلى الانقلاع والتطير بالرياح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ وتأثيره في الإبداء والإفناء والإعادة على حد سواء.

ثم استأنف لبيان شأن منشأ افتخار الناس من محسنات الحياة فقال: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وعلى المال تبنى أسباب الجاه والرفعة والمنعة والشأن عند الناس والزواج الموجب للتناسل والبنين والبنات. ولكن الزينة النافعة هي التي توجب سعادة الإنسان سعادة خالدة وهي الحاصلة من الإيمان والأعمال السليمة، وهي التي تبقى ثمارها ونتائجها لأصحابها كما قال تعالى ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أي في الآخرة ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ حيث ينال بها صاحبها كُلَّ خير ينتظره ويؤمله ويبقى له ذلك الخير إلى الأبد.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي اذكر حال الناس يوم نسير الجبال، أو أن الباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال، أي يوم نقلع الجبال من قواعدها في الأرض ونسيرها في الجو ثم نسقطها فتصير كثيباً مهيلاً. وظرفيته باعتبار امتداد ما يأتي بعده من أيام الجزاء اللامتناهية من الجنة ونعيمها ولقاء الباري تعالى ورحمته ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ بعد قلع الجبال مستوية ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي الناس الموجودين فوقها المتنعمين بأنواع خيراتها المستعجلة الفانية، أي جمعناهم في صعيد واحد

للحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم تترك منهم أحداً ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي مُصطفين. روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى ينادي يومَ القيامة: يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين. أَحضِروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسؤولون مُحاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب**». وفي الحديث: «**يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم البصر**». وقيل: تقام كل أمة وزمرة صفا ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ونقول للكافرين المنكرين للبعث منهم: لقد جئتمونا مجردين عن كل ناصر ينصركم وحجة تحتجون بها، وملجأ تلتجئون إليه، كما خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وهذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام أي بل زعمتم أن لا عود ولا حساب ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب وهذا أوان إدراك ما كنتم تنكرونه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ كلهم ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ عند إطلاعهم على ما فيه من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وضبطها بدون إفراط وتفريط فيه ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ أي ما اكتسبوه في الدنيا من العقائد والأعمال ﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً في الكتاب مفصلاً مشروحاً زمانه ومكانه وكميته وكيفيته وكل ما اكتنف به من الأدلة والشواهد. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بكتابة ما لم يكتسبه أو بكتم ما اكتسبه، واعتبار الظلم مع أن الله سبحانه وتعالى هو السيد المطلق المتصرف المالك لكل شيء ولا ينسب إليه الظلم أبداً، أنه لو فرضنا أنه محاسب لعباده محاسبة اعتيادية من حاكم لغيره لم نجد في كتاب أهل الحساب شيئاً غير مكسوب ولا مطلوباً غير مكتوب حتى يقال أنه ظلم فلاناً بالزيادة على ما عمل أو إهمال ما فعل، وكيف لا وهُو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين؟

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا

﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي واذكر زمان قولنا للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تحية وإكرام ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد لأنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ هذه الجملة نص على أنه كان من الجن وأن سبب فسقه وخروجه عن أمر ربه كونه من الجن وعنصره ساعده في معصية ربه لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون..

وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل كقولهم سرق فقطعت يده أي لأجل سرقته وكقولهم سَها فسجد أي لأجل سهوه. وأما وجه دخوله في الملائكة فقد قالوا: إن الله أمر الملائكة بقتال الجن فقاتلوهم ووقع في الأسر وبقي فيهم وصار من المتعبدين لكنه بقي فيه بذر الشقاق إلى أن أظهره في ذلك الوقت. وقيل: إنه كان جنياً مجتهداً في العبادة غاية الإجتهاد، وبسبب دوام طاعته أمره الله أن يدخل في صفوف الملائكة فدخل وصار مقدمهم ومعلمهم وأشدهم اعتصاماً بالطاعة، وكان يعتقد أنه ليس في الأرض والسماء من هو أخلص منه في العبادة، وبقي على هذه الكبرياء إلى أن جرى عليه ما جرى والعلم عند الله. وما أمرنا بالكشف عن حقيقته لكنه المنصوص أنه كان من الجن ففسق عن أمر به، وهذا دليل واضح على أنه لم يكن من عنصر الملائكة ويدل على ذلك أيضاً أن له ذرية، ومعلوم أن الملائكة لا ذرية لهم ولا يحصلون من جهة التناسل بل من جهة الأمر الإبداعي.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ والهمزة للإنكار والتعجب لأن من خرج عن أمر ربه بعيد عن أن يكرم ويطاع في أوامره لا سيما فيما يكون سبباً للابتعاد عن طاعة الله تعالى، والحال ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾؟ أي والحال أنهم لكم عدو فيجتمع فيه وفي ذريته مانعان عن اتخاذهم أولياء. الأول خروجهم عن أمر ربه والثاني عداوتهم لأولاد آدم من جهة أن سبب طرده عن رحمته تعالى امتناعه عن السجود له ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس الشيطان من حيث كونه بدلاً عن الله عندهم في الولاية والعبادة. ثم بين دناءة رتبتهم وقلة قيمتهم فقال تعالى ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي إبليس وذريته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كناس محترمين وكجمع مكرمين مدعوين للنظر في

آثار إدارة ملك وملاحظة معداته المناسبة لسلطنته ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وما أشهدت بعضاً منهم عند خلق بعض منهم على وجه الإعتزاز والإعتبار ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ وهذه الفقرة تشم منها رائحة التعليل للجملتين السابقتين يعني أنهم ذواتٌ شأنهم الإضلال والإخلال والإفساد، وما كنت متخذاً لأمثال أولئك الفاسدين عضداً وعوناً في الخلق. وهذا الكلام إرخاء للعنان ومماشاة مع أهل الكفر والعصيان، وإلا فأولئك الجمع أي إبليس وذريته أحقر موجود في عالم الوجود، فكيف يهتم بهم الخالق الواجب الوجود؟ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي واذكر حال الكفار المشركين يوم يقوم الله تعالى لهم نادوا شركائي الذين زعمتموهم شركاء لي وشفعاء لكم يوم القيامة ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لإغاثتهم والشفاعة لهم عن الدخول في النار ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي بين الفريقين من المشركين والشركاء المزعومين ﴿مَّوْبِقًا﴾ أي مهلكاً يشتركون فيه وهو عذاب جهنم. وهذا إذا كان الشركاء عبارة عن إبليس وذريته الذين اتخذهم الكفار أولياء من دون الله. وأما إذا كانوا من أهل الخير والطاعة كعزير وعيسى ابن مريم المتخذين آلهة وشركاء لله والعياذ بالله فالموبق هو العداوة، ومعنى الآية الكريمة: وجعلنا بين الفريقين عداوة يعادي بعضهم بعضاً. ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ والرؤية بصرية ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي وعلموا أنهم مخالطوها وداخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي مكاناً ينصرفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ أي لإرشادهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي كل مثل وأمر مهم يستفيد منه المسترشد، ومن زائدة فهو كما يقال سيف خطيب يأخذه ولا يستعمله. أو من كل مثل على أن يكون للتبعيض أي ذكرنا لهم في هذا القرآن شيئاً من كل باب ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي وكان بحسب جبلته أكثر الحيوانات جدلاً ونزاعاً، فذكرت لهم ما يقطع جدال بعض ويقل جدال بعض ولا ينفع بعضاً أي بعض ولكننا نذكر ما أردنا أن نذكره إلزاماً للحجة عليه.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟
لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ
ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ استئناف لتوبيخ أولئك المشركين الذين مرت أباطيلهم. فيقول سبحانه وتعالى وما الذي منع أولئك الناس ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ بربهم الواحد الأحد ورسوله المبعوث رحمة للعالمين وبالكتاب المنزل عليه لبيان الشرائع والأحكام ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ويستغفروا ربهم أي دليل الهداية ووسيلة الوصول إلى أولى المنافع وأجل المكارم وهو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ بالتوبة عما حدث منهم من العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استثناء من أعم الموانع أي ما منعهم شيء إلا أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين بالإهلاك والإبادة أو يأتيهم العذاب ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين. أي أنواعاً وقرىء بكسر ففتح أي عياناً ومقابلة كما جاءهم يوم بدر ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي وما نرسلهم مخولين بقلب السماوات والأرض وللإتيان بالمقترحات ذات الطول والعرض، وليست وظيفتهم إلا التبليغ والتبشير والإنذار لأهل الإعتبار وكان حق الناس أن لا ينسوا هذه النعمة العظيمة ويشكروها بالقبول مع أنه يمارس الناس غير الحق ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بالشيء الباطل الذي لا حق لهم فيه وذلك لا لغرض سليم بل ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ويزيلوه به ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ المبشرات والمنذرات ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ به من العقاب والعذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي سخرية واستهزاء. فقد تبين أنهم هم الظالمون وكل ما يأتي عليهم فهو جزاء لظلمهم على أنفسهم بل هم أظلم الناس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ المنزلة مع جبريل الأمين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ليفهم مغزاها وأنكرها وكفر بها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي نفسه من الكفر والمعاصي. ثم استأنف لبيان سبب ذلك وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان بمعنى الغطاء أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحجبهم عن وصول نفحات الحق إليها مانعةٍ لهم مِنْ أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعلنا في آذانهم ثقلاً مانعاً عن استماعه ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا﴾ جزاء وجواب

﴿أَبَدًا﴾ أي ما داموا في الدنيا مكلفين والسر في ذلك السبب أنهم أبوا وأنكروا وعاندوا وكفروا واستمروا على ذلك وأصروا ومن سنة الله تعالى أن يجزي المتمردين بإبعادهم عن الرحمة أبد الآبدين ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ للناس المذنبين بالذنوب الموجبة للعذاب العاجل بالعفو تارة وبتأجيل العذاب أخرى ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ على عباده بحكم لا يعلمها إلا هو ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ لاقتضاء أعمالهم لذلك ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ مقرر هو يوم بدر أو يوم آخر ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي منجىً منه وليس ذلك سنتنا اليوم بل هي سنتنا الثابتة مر الأعصار والأزمان ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بلاد عاد وثمود وقوم لوط وبلاد مَنْ قبلهم ومن بعدهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي أهلكنا العباد وأبدْنا بلادهم ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم قبل كل أحد بالكفر والامتناع عن استماع الحق، ثم ظلموا الناس بسفك الدماء، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، وسلب الجاه والحال، وما عذبناهم في تلك الأيام بادىءَ بدْءٍ، بل أنذرناهم وأخبرناهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ ثم بَعدَ مجيء الموعد المؤخر المقرر أتاهم العذابُ المدبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو ابن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام على الصحيح. فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وجماعة من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: إن (نُوفاً البكّاليّ) يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل. فقال: كذب عدو الله. ثم ذكر حديثاً طويلاً فيه الإخبار عن رسول الله ﷺ بما هو نصٌّ في أنه موسى بني إسرائيل. وزعم أهل الكتاب ومن تبعهم أنه ليس موسى المشهور وإنما هو موسى

بن مَيشا ابنُ يوسف ابن يعقوب عليه السلام، وقيل موسى ابن افرائيم ابن يوسف. ومنشأ إنكارهم شيئان: الأول إنكار أن يتعلم نبيهم ورسولهم وهو من أولي العزم من غيره. والثاني أن موسى بعد خروجه من مصر دخل هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته. والقصة تقتضي خروجه من التيه لأنها لم تكن عندما كان في مصر. وتقتضي القصة غيبته عن قومه أياماً ولو وقعت لعلمها كثير من بني إسرائيل الذين كانوا معه، ولو علمت لنقلت لتضمنها أمراً غريباً تتوفر الدواعي على نقله، فحيث لم يكن لم تكن. والجواب أن أخذ الفاضلِ من المفضول والأعلم من العالِم كان ولا يزال يكون وليس بشيء عجيب، ولا سيما أن ما اختص بمعرفته الخضر ليس على أصول الشريعة الظاهرة، وإنما هو شيء ممّا خصه الله تعالى به لحكمته، وإن كان موسى أفضل منه رتبة وأعلم منه من جهات أخرى. وأن القصة يجوز أنها كانت في مصر بعد إهلاك فرعون وأتباعه الأقباط. وعلى تقدير وقوعها بعد الخروج من مصر يجوز أنها كانت في أيام التيه وكانت له غيبة أياماً على وجه خفي على بني إسرائيل أو على وجه كان خارقاً للعادة، أو أنه غاب عنهم وظنوا أنه ذهب إلى الميقات لمناجاة ربه على عادته المقدرة المعلومة بينهم. وعلى كل حال فإنكارهم لشيء وقع بنص ظاهرٍ من الكتاب ليس في محله ولا قيمة له فإنهم ينكرون دين الإسلام من أساسه وينكرون كثيراً من الوقائع المقررة في دين الإسلام فلتكن هذه القصة منها.

وقوله ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ صلة القول التبليغي، وفتاه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان ابن أخت موسى وكان يلازمه ويخدمه ويتعلم منه ولذا أضيف إليه. والعرب كانت تقول للخادم (فتى) لأن الخدمة غالباً في زمان الفتوة. وعليه يقول ﷺ: «**ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي**» وقوله ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ مقول القول أي أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي بحر فارس والروم، وهو محل قناة السويس اليوم وملتقى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي أسير زماناً طويلاً. والحقب بلغة قريش ثمانون سنة، وقيل سنة واحدة، ويجمع على أحقاب كعنق وأعناق. روي أن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترد عن ردى. فقال: إن

كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه. قال: أعلمُ منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني. فذهبا يمشيان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي نسي موسى عليه السلام أن يطلبه ويعرف حاله ونسي يوشع أن يذكر له ما رأى في حياته ووقوعه في البحر. وهذا قولٌ بأن يوشع شاهد حياته. وفيه خبر صحيح ففي حديث رواه الشيخان وغيرهما: «أن الله تعالى قال لموسى: خذ نوناً ميتاً فهو حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ ذلك فجعله في مكتل. فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوتُ قال: ما كَلفتَ كثيراً. فبينما هما في ظل صخرة إذا اضطرب الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظُه حتى إذا اسْتيقظ نَسي أن يخبره». وفي حديث رواه مسلم وغيره: «أن الله تعالى قال له آية ذلك أن تزود حوتاً مالحاً فهو حيث تفقده. ففعل حتى إذا انتهيا إلى الصخرة انطلق موسى يطلب ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة فاضطرب ودخل البحر. فقال فتاه: إذا جاء نبي الله تعالى حدثته فأنساه الشيطان» وقوله ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي مسلكاً كالسرب وهو النفق. فقد صح من حديث الشيخين والترمذي والنسائي وغيرهم «أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق» والمراد به البناء المقوس كالقنطرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي جاوزا المكان الذي فيه المقصد من مجمع البحرين ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي آتنا الطعام الذي يؤكل أول النهار، والمراد به الحوت على ما ينبىء عنه ظاهر الجواب. لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً وإعياءً وافراً. ﴿قَالَ﴾ أي فتاه في جواب موسى عليه السلام ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ كلام فيه تهويل وتعجيب ومعناه: سبحان الله الذي يُنسي الإنسانَ نفسه ويُعميه عما يشاهده فأخبرني ماذا طرأ عليَّ إذْ وَصلنا إلى الصخرة واسترحنا ورأيت بعيني ما رأيته من دخوله البحر مع أني نسيتُ أن أذكر قصته لك مع تأكيدك علي ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ بضم الهاء على خلاف العادة لأن ذلك النسيان أيضاً كان على خلافها أي وما أغفلني عن بيان حاله إلا الشيطان فإنه أشغلني وملأ قلبي ببعض أمور تافهةٍ فتركت بيانه لذلك. وقوله ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل اشتمال عن الهاء. أي ما أنساني ذكره لك إلا الشيطان ﴿وَ﴾ حاله أنه ﴿ٱتَّخَذَ

سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ مفعول ثاني لقوله اتخذ أي جعل سبيل دخوله وسيره في البحر أمراً متعجباً منه. ويجوز أن يكون حالاً أو منصوباً بفعل مضمر أي وأعجب عجباً فيكون الإتخاذ على غير معنى التصيير.

فلما قال له فتاه ما قال جواباً له ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لي من أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ هو الأمر المقصود الذي كنا نطلبه من حيث أن الله جعله علامة على لقاء المطلوب ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾ أي حال كونهما يقصانه قصصاً، أي يتبعانه اتباعاً ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ قال في أضواء البيان: هذا العبد المذكور في هذه الآية هو الخضر عليه السلام بإجماع العلماء ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك والخضر لقبه، ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ لأنه جلس على فروة[1] بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراً فذلك من كلام النبي ﷺ. وفي المراد بالرحمة في الآية أقوال وفي روح المعاني: والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت الرحمة على ذلك في مواضع من القرآن. وهذا قول من يقول بنبوته عليه السلام وفيه أقوال ثلاثة: فالجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول، وقيل هو رسول، وقيل هو ولي، وعليه القشيري وجماعة. والمنصور ما عليه الجمهور وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين. قلت: ومن الشواهد المستفادة من الآيات الدالة على رتبته العليا من النبوة أو الرسالة لهجة كلامه في جواب سيدنا موسى عليه السلام، فإن من أنصف ولم يأخذه العناد علم أن ذلك النوع من الكلام والإلقاء إلى شخص رسول من أولي العزم كموسى عليه السلام لا يخرج عادة إلا من شخص يعلو على مقابله أو يساويه. انظر إلى قوله تعالى حكاية عن العبد ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟ وإلى قوله في جوابه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.

وأما طول حياته كما هو المشهور بين المسلمين فهو أيضاً مجال أقوال ومحل جدال كثير، ففي تفسير روح المعاني: ذهب جمهور العلماء إلى أنه حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عند الصوفية قدست أسرارهم قاله النووي، ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال.

---

(١) هي قطعة من الأرض.

وقال ابن الصلاح: هو حي اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك واستدلوا عليه حياته بأدلة:

منها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي ـ رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال: بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجل معلق بأستار الكعبة يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قلت: يا عبد الله أعد الكلام. قال: أسمعته؟ قلت: نعم قال: والذي نفس الخضر بيده (وكان هو الخضر) لا يقولهن عبدٌ دبْرَ الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر.

ومنها ما نقله الثعلبي عن ابن عباس قال: قال علي ـ كرم الله وجهه ـ: إن رسول الله ﷺ لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع، فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسِلوا محمداً، فإنه طاهر طهر فوقع في قلبي شيء من ذلك، وقلت: ويلك من أنت! فإن النبي ﷺ بهذا أمرنا وهذه سنته؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: اغسلوا محمداً فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون حَسَدَ محمداً أن يدخل قبره مغسولاً. فقلت: جزاك الله خيراً قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت؟ قال: أنا الخضر حضرت جنازة محمد ﷺ.

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر قال: لما توفي رسول الله ﷺ واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح، فتخطى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى الصحابة فقال: إن في الله تعالى عزاء عن كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا وإليه تعالى فارغبوا، ونظره سبحانه إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: هذا الخضر عليه السلام.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس، ويحجان في كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من قابل.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أيضاً والعقيلي والدارقطني في الأفراد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يلتقي الخضر وإلياس كل عام في موسم فيحلق كل**

واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هذه الكلمات: ـ بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ـ».

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال: بينما عمر بن الخطاب يصلي على جنازة إذا بهاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله تعالى فانتظره حتى لحق بالصف الأول فكبر عمر وكبر الناس معه، فقال الهاتف: إن تعذبه فكثيراً عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. فنظر عمر وأصحابه إلى الرجل فلما دفن الميت وسوى عليه التراب قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً. فقال عمر: هذا والله الذي حدثنا عن النبي ﷺ، وهذا الإستدلال مبني على أنه عني بالمحدث عنه الخضر عليه السلام إلى غير ذلك.

وحكايات الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذ منه في سائر الأعصار أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. نعم أجمع المحدثون القائلون بحياته عليه السلام على أنه ليس له رواية عن النبي ﷺ كما صرح به العراقي في تخريج أحاديث الأحياء، وهذا خلاف ما عند الصوفية فقد ادعى الشيخ علاء الدين استفادة الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة. وذكر السهروردي في السر المكتوم أن الخضر عليه السلام حدثنا بثلاثمائة حديث سمعه من النبي ﷺ شفاهاً.

وفي روح المعاني: قال ابن قتيبة في المعارف أنه ابن ملكان بن فالغ بن عابد ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال، بيد أن صنيع النووي ـ عليه الرحمة ـ في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بليا بن ملكا وهو الذي عليه الجمهور والله تعالى أعلم. والمعروف أن الخضر لقبه كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء.

وفي روح المعاني أيضاً: وروى أيضاً أنه لما سلم عليه (أي لما رجعا إلى الصخرة وقد وجداه هناك) عرفه أنه موسى، فرفع رأسه فاستوى جالساً، وقال: ـ وعليك السلام ـ يا نبي بني إسرائيل؟ فقال موسى: وما أدراك بي ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي ودلك عليّ. ثم قال: يا موسى أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك؟ قال موسى: إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك.

وذهب جمع إلى أنه ليس بحي اليوم، ولهم أدلة استدلوا بها على مماته:

منها أنه قال النبي ﷺ قبل وفاته بقليل: «**ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية**». وفي رواية: «**لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد**».

ومنها أنه لو كان حياً في زمان الرسول لزاره واتبعه وجاهد معه لأن الله أخذ الميثاق من النبيين على ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فلو بقي حياً إلى آخر الزمان لكان له الخلود وهو باطل بظاهر الآية إلى غير ذلك من الأدلة وإن كان أقواها ما ذكرناه.

ويجاب على الدليل الأول بأجوبة: منها: أن تلك العبارة الشريفة كناية عن انقراض العصر وفناء جمهرة الناس الذين يعتمد عليهم في تسيير الأمور.

الثاني: أنه وإن جرى على ظاهره من عموم السلب لكنه ما من عام إلا وقد خص منه بعض وذلك معلوم عند من تتبع الأدلة العامة، فليكن مخصوصاً بغير الخضر وأمثاله من الشواذ الذين بقوا بعد مائة سنة من تاريخ قوله ﷺ.

الثالث: أنه لو بقي على عمومه بلا تخصيص جاز أن يقال إن الخضر لم يدخل في مضمون الحديث الشريف لجواز كونه على البحر لا على ظهر الأرض إذ ذاك.

وعن الدليل الثاني بأن الملازمة الواقعة في دليله ممنوعة، كيف وسيد التابعين أويس القرني رضي الله عنه كان موجوداً في ذلك الوقت، ولم ير الرسول، ولم يزره إلى وفاته ثم إنه يجب تخصيص تلك الملازمة بمن لم يكن مشغولاً بعمل آخر مشروع لجواز أن يكون الخضر مشغولاً بتوفية واجبات مقررة عليه، واستمر في الوفاء بها فكيف تسعه الزيارة أو الجهاد معه ﷺ؟ ولو سلمنا الملازمة فلم لا يقال: إنه زاره مرة أو مراراً ولم يعلم به الصحابة ولم يخبر الرسول عن زيارته لأنه لا يجب عليه ﷺ أن يخبر الناس بكل ما جرى عنده وبكل من زاره؟ ألا ترون أنه ﷺ أخبر حذيفة ابن اليمان بوقائع مهمة تقع في المستقبل ولم يخبر بها غيره ولم ينشرها حذيفة أيضاً كما لا يخفى على من تتبع شروح البخاري الشريف في كتاب الفتن؟

وأما الجواب عن الدليل الثالث فهو أن تلك الآية الشريفة تدل على عدم

الخلود لأحد ومن ادعى حياته لم يدع خلوده، وإنما غاية أمره أنه ادعى حياته وطول عمره مدة مديدة بعيدة عن العادة المستمرة. وبعد الشيء عن العادة لا يدل على استحالته، فإنا نعتقد أن سيدنا عيسى ﷺ لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إلى السماء وأسكنه حيث شاء ويبقى إلى وقت نزوله في آخر الزمان كما نطق به ما رواه مسلم في صحيحه: «**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم. . .**» الحديث ولا حاجة إلى أن نستدل بطول عمر الجن أو أي شخص آخر مدة كثيرة وذلك معروف عند أهل العلم. وأما الاستدلال على وفاة الخضر بقوله ﷺ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**» وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم فأين كان الخضر؟ فاستدلال عليه مقال، لأن المراد لا تعبد بعد بقوم لهم ظهور في الأعيان، ونظام في الزمان، وشهرة بين بني الإنسان وإلا فقد كان على تقدير هلاك العصابة نساء كثيرات وشيوخ كثيرون وأناس مسلمون في غير تلك البقعة، فكيف يدل على انتفاء المسلم وأهل العبادة في العالم؟ والحق أنا إذا نظرنا إلى اتفاق الطرفين على وجود ذلك العبد وحياته في ذلك الوقت فليس هناك دليل قاطع على موته في وقت خاص إلا استمرار العادة على موت الناس في نحو مائة سنة أو أزيد، والعادة لا توجب القطع بموته، بل والاستصحاب دليل على حياته، ولا سيما الروايات الكثيرة التي تؤيد بعضها بعضاً على أنه حي مرزوق موفق للوفاء بالواجبات التي ألقيت عليه، وأن اجتماع كثير من الصلحاء على أنه حي مما يغلب على الذهن حياته إلى وقته المقرر المقدر، ولا تغتر بمن تأخذه العصبية الخالية عن كل إنصاف والداعية إلى الحكم بموته مع أن أدلة الطرفين لا يوجب القطع في الموضوع، لا بالسلب ولا بالإيجاب، وليس شيء منهما من الأمور الاعتقادية المهمة المقصودة في الدين فإن كان ميتاً فإلى رحمة الله، وإن كان حياً فهو في أداء ما في ذمته من أوامر الله. ومن آمن بأنه كان حياً ومأموراً بخرق سفينة المساكين العاملين في البحر لمصلحة ما، وبقتل الصبي المعصوم لحكمة في علم الله، وبإقامة جدار اليتيمين بلا أجرة ولا بدلٍ يصل إليه في وقت الحاجة إلى لقمة طعام أو شربة ماء، وتيقن أن هذه الأمور تحققت في الواقع على رعاية أمر الله علم أن وجود رجل بهذه الصفة من نوادر الزمان والأيام وأن بقاءه زماناً طويلاً ليس بأعجب من حدوث هذه الأمور في الأذهان والأفهام.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ إستئناف لبيان ما جرى بينهما بعد الالتقاء. فيقول قال موسى للخضر عليه السلام بعد التفاهم والتعارف: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي هل تأذن وتجيز لي أن أتبعك وأصاحبك في السفر والحضر والمقام والمجلس وأعيش معك عيشة التلميذ مع الأستاذ المعلم له ﴿عَلَىٰٓ﴾ شرط ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وتبذل تعليمك إياي فيما يمكن أن أتعلمه ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من العلوم اللدنية القابلة للتجاوز إلى الغير، وذلك لأجل ﴿رُشْدًا﴾ وإصابتي لخير صالح لي في ديني ودنياي وفي معاشي ومعادي؟

فإن قيل كيف يتعلم موسى عليه السلام وهو صاحب التوراة ومن أولي العزم ومن الرسل البارزين على صفحات الأيام من رجل غاية أمره أنه نبي لم يرسل أو رسول لم تتبين رسالته ومقامه وأنه أعلم من موسى؟ قلنا: يختص برحمته من يشاء وفوق كل ذي علم عليم، وعلوم الله متوفرة لا تحصيها ضابطة، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً. ويجوز أن يختص الخضر بعلوم لدنية ممتازة عما أوتي الخضر. وهذا الفاروق تجده كثيراً بين المعاصرين من علماء الزمان، فكم من عالم متفرد بعلم أو علوم ليس منها عند غيره كثيره ولا قليله؟

﴿قَالَ﴾ الخضر في جوابه ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أتى بحرف التأكيد ولن النافية البليغة ونفي الإستطاعة لأن الصبر على المشاق ومعرفة أسرار ما يختلج في قلب الطالب موقوف على طاقة قوية واستطاعة مهمة فإذا انتفت الطاقة انتفى ما يبنى عليها من الصبر، فنفي الصبر كنفي رفع المتاع من صاحب يد ضعيفة، ونفي إستطاعته كنفيه ممن لا يد له، وسر ذلك أن أعمال الخضر كانت مخالفة ومباينة للشريعة السماوية الإعتيادية الجارية بين الأنام وموسى أرسل بتلك الشريعة، فاستطاعة صبر موسى عليها كاستطاعة من لا يد له على حمل المتاع حيث لا علم له بمبادىء هذه الأعمال وأسرارها، ولذلك عقبه بقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟ إيذاناً بأنه يتولى أموراً خارجة عن نظام شريعة موسى، وصاحبها لا يتمالك الصبر على ما يخالفها.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أراه معك بلا اعتراض ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ أي شيئاً مما تأمرني بعمله. أو إطاعة أمر يصدر منك عليّ في أي شيء أردته. وذكر المشيئة إن كان للتبرك فبها ونعمت، وإن كان للتعليق فهو من غاية التوفيق حيث يسد باب الكذب عليه في وعده بإطاعته له. ﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ يا موسى ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ أي مما تشاهده من أعمالي فضلاً عن المناقشة معي ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾ أي حتى أبدي لك بياناً على ما تعلق به العيان.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٍ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا نُّكۡرًا ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي الركنان في الموضوع. وهما المعلم والمتعلم ولم يضم إليهما يوشع لأنه بعد لم يرفَّع. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول أي أجرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ أي ركبا في السفينة المعهودة بين الناس في الإناقة وحسن الصنعة لم يمر في ذلك الوقت سفينة أحسن منها. ويروى أنها كانت ذاهبة إلى (أيلةَ) فلما دخلاها لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواحها بالقدوم، فـ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾؟ أي لغرض أن تغرقهم ولا يصلح ذلك لك حيث إنك من أهل التقوى، أو حتى يغرق أهلها ولو لم ترد ذلك فإنه أيضاً مصيبة تحدث هناك وعلى كلتا الحالتين ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾ أي داهياً منكراً ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾﴾؟ وهو تذكير لما ألقاه إليه أول الأمر ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ إعتذار بنسيان الوصية أي لا تؤاخذني بنسياني للوصية التي وصيتها بي فإن أول الناس أول ناسٍ. أو لا تؤاخذني بفعل اعتراض نسيت الوعد بتركه ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي﴾ أي ولا تحملني ﴿مِنۡ أَمۡرِي﴾ وهو اتباعك مع السمت والسكوت ﴿عُسۡرًا﴾ أي صعوبة وهو إنجاز الفراق بما لا يطاق ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة وانطلقا وهما يمشيان على الساحل، كما في الصحيح. وفي رواية مرا بقرية ﴿حَتَّىٰٓ

﴿إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ يلعب مع الغلمان واسمه كان روي جيسور وكان أحسنهم ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ وفي طريقة القتل روايات أقربها أنه أخذه وضرب رأسه بالجدار فمات. ﴿قَالَ﴾ موسى لما رأى ما رأى منه مستنكراً لعمله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب لم يبلغ زمان الكلفة وقوله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قصاص نفس عليها وكان القصاص على الصغار في تلك الشريعة، وقد نقل البيهقي في كتاب المعرفة: أنه كان في شرعنا ـ أيضاً ـ قبل الهجرة، ثم نسخ. ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾؟ أي جدَّ منكر.

الجزء السادس عشر

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ وزيادة لك في هذه المرة لزيادة المكافحة والمصارحة له بالعجز عن صحبته. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي بلغت إلى الغاية القصوى في الأسباب التي تعذر بسببها في مفارقتي حيث خالفتك مراراً ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ الجمهور على أنها بلدة أنطاكية ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ وكانوا لئاماً ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ غاية في اللؤم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يسقط من قدمه واختلال بنائه. والإرادة مجاز مرسل عن القرب منه ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر بيده ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تتقوى به على المعاش لا سيما في هذه البلدة البعيدة عن الكرامة والانتعاش ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ من تلك الأعمال الصادرة مني الموافقة لدستورنا والمخالفة لما أنت عليه من الشريعة السماوية.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم

مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ شروع في بيان تأويل الأعمال التي باشرها وتسببت في استنكار موسى عليه السلام لها فقال ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ أي التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ﴾ ملكاً ﴿لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ويتعيشون بما يحصل من أجرة حمل الركاب وأمتعتهم في الذهاب والإياب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب بالخرق، ولم أرد إغراق أهلها كما زعمت لأني كنتُ عالماً بأن الملك الظالم يمر عليها قريباً ويتركها لوجود العيب فيها ويصلحها أصحابها قبل دخولها في الأمواج والأماكن التي يحصل منها خطر دخول الماء فيها وغرقها ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي كل سفينة حسنة غير معيبة وبرؤية العيب فيها خَلَصَت مِن الغَصْب. ولما كان العيبُ من الأمور الغير المحمودة نسب إرادته إلى نفسهِ لصيانة جانب قدسه، وإن كان العيب والكمال كلاهما كمالاً بالنسبة إلى أنه آثار شخصه، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ وهذا العمل وإن كان بظاهر الحال مقبوحاً فهو بالنسبة إلى المآل ممدوح لأن منِ اغتصّ بالتمر وكان مضطراً في كشف الأمر استسهله بشربة من الخمر، فالفاسد صالح للخلاص مِن الأفسد، وهذا عينُ الحق والرشد ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ أي أبوه وأمه على سبيل التغليب كالقمرين والعُمرين ﴿مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي فخفنا خوفاً شديداً أن يحمل هذا الولد السيىء الأخلاق في كبره أبويه اللذين يُسخران لأمره طغياناً عن الحدود، ومجاوزَة عن شريعة المَعبود، وكفراً بالله الواجب الوجود.

ونسبة الخوف إليه تعالى لمجاورة أهل العرف إذ لا خوف يجري على من هو مُسلَّط على كل أمر، أو معنى الخشية العلم أي فعلمنا أنه على تقدير بقائه في بغيه وارتقائه أن يغشيهما ما ذكرناه، وخلقه مع علمه بحاله من أسرار القدر وإلا فيردُ مثلُ ذلك على خلق الكفار من الجن والبشر ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي ذينك الأبوين ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الولد الطاغي المنفور عنه ﴿زَكَاةً﴾ أي طهارةً في

القلب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وشفقة للأبوين. والتفضيل عائد إلى اعتبار أصل الرحمة ووجودها غريزةً في كل ولد. ونسبةُ الإرادة إلى نفسه مع جانب قدسه لأن المأمور المختص يعتبر نفسه من عداد الآمر، ولما كان المتعلق من المحسنات علقها بها وأسندها إلى فاعلها ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المُشرِف على السقوط الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ مات أبوهما وهما دون البلوغ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي أبت من عزّ التضييف ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي مال مدفون من ذهب أو فضة، كما أخرجه البخاري في تاريخه. والكنز مصدر بمعنى المكنوز. ولو سقطَ الجدارُ على قاعدته لظهر ذلك الكنز واستولى عليه غيرهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ مستحقا لأن يتولاه ربُّه ويحفظ ما يرتبط به من أموره وضياعه وظاهر الآية هو الأب الذي ولدهما. وروي أنه كان الأب السابع والله واسع الرحمة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على نظارة أعدى أعدائك حيث أراد بك النمو والإرتقاء على مدارج الإصطفاء ﴿أَن يَبْلُغَآ﴾ أي اليتيمان ﴿أَشُدَّهُمَا﴾ أي سن الرشد والقوة في العقل ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ بأيديهما مع الصيانة بعد ملاحظة الأوراق الموجودة في صندوق الوالد الصالح ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له لقوله أراد ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي عن رأيي واجتهادي ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي لم تستطع وهو من باب الإستفعال مضارع استطاع بهمزة الوصل، وأصله استطاع، وقد تحذف التاء تخفيفاً، وحذفها هنا إشارة إلى أن وقت صحبتنا ضيق يناسب الحذف والإختصار.

فإن قلت: هب أن سيدنا موسى عليه السلام قبل ذلك التأويلَ من صاحبه الخضر لأن الله سبحانه وتعالى ذكرَ له أنه عبد من عباده وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، ولكن كيف يمكن لنا أن نقبل الأعمال المخالفة لظاهر الشريعة، معَ أن الشرائع كلها اتفقت على وجوب صيانة الدين والنفس والعرض والعقل والمال؟ وأنا إذا قبلنا فتح مثل ذلك الباب على الناس لم يبق احترام للدين وأصوله. وقد صرح القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ قدس سره ـ بأن جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله ورسوله ولا يعملون إلا بظاهرهما. وقال سيد الطائفة الجنيد نور الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثرَ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا العلم لأن عِلمنا مُقيد بالكتاب والسنة. وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ـ قدس سره ـ في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل

حراماً ولا يحرم حلالاً، ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن. وقال أيضاً في المكتوب السادس والثلاثين من المجلّد الأول أيضاً: للشريعة ثلاثة أجزاء: علمٌ، وعملٌ وإخلاص. فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوقَ جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلبٌ وراء الشريعة، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك. وقال رحمه الله في المكتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير: فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصرٌ في طريق الشريعة التي دعا إليها رسولُ الله ﷺ وصارت مأموراً بها في آية ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ تدل على ذلك أيضاً، وكل طريقٍ سوى هذا الطريق ضلالٌ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة. انتهى كلامه.

والذي ينبغي أن يعلم أن كلام العارفين المحققين وإن دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة لكنه يدل أيضاً على أن في الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبية ولذا تراهم يقولون: علم الحقيقة هو العلم اللدنيّ وعلم المكاشفة وعلم الموهبة وعلم الأسرار والعلم المكنون وعلم الوراثة إلا أن هذا لا يدل على المخالفة فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة فهي بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها. ومع هذا لا تغير تلك الكشوف والعلوم الغيبية حكماً شرعياً ولا تقيد مطلقاً، ولا تطلق مقيداً فاحفظ هذا فالحفظ مبارك وحبذا.

قلت في الجواب: إن ما قلتم هو الحق والصواب ولا يفتح لأي إنسان ذلك الباب وكلما وجدنا شيئاً مخالفاً للكتاب والسنة وإجماع الأمة ولم تشمله أصول الأقيسة الجلية والاستدلال أنكرناه ورددناه على صاحبه، ألا ترى أن سيدنا موسى عليه السلام لما رأى ما فعله الخضر عليه السلام مخالفاً للشريعة التي نزلت عليه أنكره ورده عليه مع أنه كان من المناسب أن يصبر عليه ويسكت لأن الله هو الذي دله عليه وأرشده إليه ولكنه مع ذلك لما غلبته حرارة الشريعة والغيرة على الدين ما صبر بل

رد وأنكر نعم بعدَ أن بين له الخضر عليه السلام أسباب أعماله وأنه ما فعله عن أمره بل كان بأمر وارد من الله الواحد سكت عليه وفارقه، فظهر أن لله تعالى سنتين: سنة شرعية، وسنة عرشية. أما السنة الشرعية فهي في شريعته المنزلة على رسله الكرام من آدم إلى الخاتم ﷺ وكلما رأى صاحب الشرع ما خالفه أنكره وحوله إلى دار القضاء ليطبق عليه الحكم فالجزاء. وأما السنة العرشية فهي تنفيذ ما أراده بقدرته وله مأمورون على تطبيقها من الملائكة والجن والسباع والحشرات والرياح والسيول والزلازل والطوفان والأمراض والآفات. . . وما يعلم جنود ربك إلا هو. فكما أنه لا مجال لإنكار ما يحكم به في الأرض والسماوات من الكسوف والخسوف وتدمير البلاد بالبركان والزلازل، وإهلاك العباد بالطوفان والسيول والأمراض الفتاكة والحروب المدمرة وقتل النساء والأطفال والرجال والغلاء والقحط وسائر البلايا الخارجة من الأرض أو النازلة من السماء، ولا ينكر عليه إرسال الملائكة بالويل على قوم وإرسال عزرائيل لقبض أرواح آباء وأمهات وترك الأطفال في ويلات، كذلك لا ينكر عليه في إرسال عبد من عباده أخذ بتعليمه وإرشاده لخرق سفينة أو إهلاك واحد من الصغار، أو إقامة جدار للدار، مع أن إقامة الجدار إحسان لا ينكر وخرق السفينة مع دفع الأفسد بالفاسد وهو الأصل المعتبر غير أن قتل الصغير فيه تعجيب لأهل التفكير. وعلى كل فنحن نؤمن بأن الخضر عليه السلام كان ولياً مطيعاً لربه في تنفيذ الأحكام أو رسولاً برسالة خاصة كما للملائكة ونفذ ما أمر به الملك العلام والشرع أنكر عليه كما جرى لموسى عليه السلام وينكر على غيره ما يخالف ظاهر الإسلام. والله هو الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ كان السؤال على وجه الإمتحان والسائلون في المشهور قريش بتلقين اليهود. وقيل: اليهود أنفسهم. واختلف في شخص ذي القرنين على أقوال أشهرها وأقربها أنه: أسكندر ابن فيليبيس بن مهريم

ابن هرمس اليوناني. وكان سرير ملكه مقدونياً، وهي اليوم مقاطعة في اليونان. وهو الذي غلب على (دارا) مَلِكِ الفرس وتزوج ابنته، وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه وأظهر كرماً وشجاعة وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة وثلاثين سنة، وقد تولى الملك بعد أبيه، وقد كان تلميذاً لأرسطو، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالاً ذوي شجاعة ووجاهة وأبهة وجمال من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه أن لا فضل في قتلهم وأن قتل الرؤساء تؤجج النار في قلوب الأمة ولا تخمد، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلاً منهم ملك أبيه، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائماً ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوباً فمشى على تلك السياسة. وبنى الأسكندرية بمصر وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة، واستولى على الغرب والشرق، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل إلى بلاده والمشهور أنه مات في العراق، قيل في قلعة مركز ناحية كولعنبر (خورمال)، وقيل: في قصبة الإسكندرية غربي بغداد الآن. ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها. هذا رأي.

وهناك رأي آخر قاله أبو الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بـ«الآثار الباقية من القرون الخالية» أنه من حميَر واسمه أبو كرب ابن أفريقش، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها، فسميت القارة كلها باسم (إفريقيا) هذا ملخص ما قاله العلماء.

وإنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس، أو لأنه كان على رأسه من شعره ضفيرتان، أو لأنه كان على تاج رأسه مادتان عاليتان من الجواهر تشبهان القرنين.

﴿قُلْ﴾ في جواب السائلين عن ذي القرنين ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أي قرآناً نازلاً من الله سبحانه وتعالى. ثم شرع في تلاوة الذكر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلنا له قدرة وقوة من حيث التدبير والرأي، وكثرة الجنود والآلات الحربية، وتنظيم الجيش، وتوفير المعيشة، وتقوية المعنويات، والتدريج في الحركات... ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ علماً وعملاً وصنعة ومالاً ومعدات وأفراداً وآراء ﴿سَبَبًا﴾ أي طريقاً يوصله إليه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يوصله إلى مقصوده، ولم يهمل ما آتيناه من جيشه وجنوده وغير ذلك، فتحرك نحو اليمين واستولى على البلاد والعباد

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يقدر أحد على مجاوزته لكونه بحراً محيطاً مائجاً ليس فيه المعمورة الأرضية القريبة حتى يصل إليها الجيش بسهولة ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ظن أن الشمس تغرب في مادة ذات حمأة وهي الطين الأسود وذلك لأن البحر كان واسعاً لا يرى منتهاه والشمس عند غروبها فيه يتكدر محل غروبها كأنه ماء أسود، أو لأن قرص الشمس منعت عن رؤية ما تغرب فيه فيرى أسود مظلماً ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند تلك العين أي المادة المائية على الساحل ﴿قَوْمًا﴾ ألبستهم من جلود السباع وأطعمتهم ما يلفظه البحر من الأسماك ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والقول مفسر بالإلقاء في القلب بالتفكير السليم أو بالإلهام إن كان صالحاً عابداً لله، أي فهمناه أن القوم قوم فاسدون، وقد باشروا أموراً يستحقون عليها العذاب لمخالفتهم لما ألقى إليهم من النصائح المشروعة، فأمرك الآن أحد شيئين: إما أن تعذبهم بلا مهلة لاستحقاقهم السابق الثابت، وإما أن تتخذ فيهم حسناً أي وجهاً ذا حسن، وهو دعوتهم إلى التوبة عن الإفساد والرجوع إلى الحق والرشاد ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين بَعْدَ أن أفهم ذلك لأولئك القوم ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي ولم يتوجه إلى الحق ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً فظيعاً لائقاً بالكافرين ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ على موجب دعوتي ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي فله المثوبة الحسنى جزاءً له ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ﴾ ما دام حياً ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً مُيَسَّراً غير شاق عليه. فمن عصى وخالفه نال العقاب أو فرَّ من ذلك المكان ومن أطاعه فاز بالخيرات.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ

رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع منه الشمس أولاً من معمورة الأرض بالنسبة إلى أهل المغرب ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي لباساً. يعني أنهم كانوا بعيدين عن التمدن، وعمل النسيج والحياكة فألبستهم إما من جلود السباع وكانت قليلة نادرة، أو كانت حرارة من الشمس تأتيهم كالفقراء في أوقات البرد يتدفأون بها من البرودة، ومعلوم أن ذلك كان في وقت الحاجة إلى اللباس من وقت الخريف والشتاء، أو لم تكن لهم أبنية يسكنون فيها كما قيل وهو في غاية البعد، لأن تلك البلاد كانت قابلة لحفر السراديب ورفع الأبنية بها إلا أهل الجزر البحرية فإنهم ما كانوا يبنون بها لكثرة الأمواج والجزر والمدّ الذي تتسبب في هدم الأبنية.

وجعل العبارة كناية عن فقر حالهم وقلة أموالهم أولى وأنسب لأن نظير العبارة دائر في زماننا أيضاً بالنسبة إلى بعض الناس، فيقال: فراشهم الأرض ولحافهم السماء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أمر ذي القرنين في بلوغه أقطار الأرض ذلك ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والمعدات والأرزاق ﴿خُبْرًا﴾ أي علماً ولا يعلم به غيرنا لكثرته وخروجه عن الإحصاء المعتاد لغالب العباد.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً متوجهاً نحو الشمال ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي بين الجبلين الآتي أحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب المتقاربين وبينهما فتحة يعبر منها العابرون من الجنوب إلى الشمال وبالعكس. وكان وراءهما من الناحية الشمالية الباردة جداً قوم متوحشون كما قال تعالى ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي وجد ذو القرنين بوسيلة الإستعلامات العسكرية وراء السدين قوماً في غاية الوحشية والغباوة لا يكادون يفقهون قولاً يقال لهم لأجل التفاهم، أو لبعدهم من الناس الآخرين وعدم احتكاكهم بهم، أو لشرارة

طبعهم فإنهم كانوا بحيث يتحاشى الناس عن الوصول إليهم للخوف من صولتهم وقساوتهم وهجماتهم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال الذين من دونهم، أي القوم الذين تقرب بلادهم من بلادهم وهم الصينيون الساكنون في القرب من فتحة الجبلين الذين كانوا يتأذون من صولاتهم من وراء الجبلين عليهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ أي إن القوم الذين اشتهروا باسم يأجوج إذا عُرِبَ عنوانهم، وهم قبيلتان من أولاد يافث ابن نوح عليه السلام، ويعرفون بالمغول في تعداد أسماء الأمم في الأرض ويسكنون في الشمال الشرقي من قارة آسيا ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل وأخذ الأموال والأرزاق والتعرض للأعراض. قيل: أنهم كانوا يخرجون عندما انكشفت الثلوج والحواجز أمامهم إلى البلاد المجاورة الجنوبية فيغيرون عليهم ويقتلونهم ويأخذون ما لديهم كالوحوش الضارية الواصلة إلى المواشي الضعيفة ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي خراجاً وجُعْلاً من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؟.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين في جوابهم: ﴿مَا مَكَّنِّى﴾ بتشديد الكاف وإدغام نون اللام في نون الوقاية من باب التفعيل، وقرىء مكّنني بالفك ﴿فِيهِ رَبِّى﴾ أي جعلني مكيناً قادراً عليه ﴿خَيْرٌ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه لي من الخراج، فإن صاحب شرف التاج يضع عن الأمة الخراج ولا يجعل عليهم ما يوجب الإحراج ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ وعمل يدوي نتقوى به على المقصود ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وحجاباً منيعاً يسد عنهم طريق الوصول إليكم بسهولة، فإني آمر الصُّناع يُذيبونَ الحديد ويصبونه في القالب كاللبنات وأبني به السدَّ فـ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي قِطَع الحديد المصبوبة فأتوه بِهِ بَعد الصنع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ أي عُمالهُ البناؤون ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي جعلوا ما بين الجبلين مملوء من المواد الحديدية بحيث ساوى السد الجبلين يمنة ويسرة في العلو، وبعد إكمال هذه العملية وضع المنافخ على المواد الحديدية بالطرق العلمية ﴿قَالَ﴾ للعمال: ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ بالمنافخ في زبر الحديد الموضوعة بين الجبلين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ قال ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ أيها المتولون أمر النحاس قطراً أي نحاساً مذاباً ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي نحاساً مذاباً فصار السد جبلاً حديدياً نافذاً في جانبي الجبلين مساوياً لهما في الإرتفاع غالباً عليهما في الملاسة والإمتناع من تنفيذ وسائل الصعود والإرتفاع ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ أي فما استطاع يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا عليه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي فتح منافذ فيه للصعود عليه

أو للخروج منه كالباب إلى الناحية الجنوبية مما يلي الصين. فخلصوا من إفسادهم بتوفيق الله ذا القرنين على صنعِ السد في البين.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين بعد ذلك: ﴿هَٰذَا﴾ السد وبناؤه ﴿رَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أفاضها عليّ لنيل لسانِ الصدق في الآخرين والمثوبة الحسنى يوم الدين، وعلى الصينيين الساكنين في تلك الأصقاع لحفظهم من شر المفسدين ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي وقت وعده بعبور المفسدين من ذلك الطريق ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ﴾ ولم يزل ﴿وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ثابتاً واقعاً لا محالة.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ أي صيرنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ أي بعضاً من قوم يأجوج ومأجوج يومئذ ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يدخل في بعض وراء السد في بلادهم لسدّ طريق الخروج عليهم ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي وسيأتي ويقرب وقت النفخ في الصور لخراب العالم ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي فنجمعهم عند ذلك جمعاً للحساب على ما فعلوا بالأمم المجاورة وعلى ما ارتكبوا من فظائع الأعمال من القتال والهتك والدمار في البلاد والعباد ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي وأظهرناها لهم بلا خفاء واشتباه ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي في حجاب ساتر عن رؤية آياتي التي ينظر إليها فيسترشد بها ويؤخذ بها طريق الإيمان والأعمال الصالحة والإخلاص ﴿وَكَانُوا۟﴾ مع وجود الغطاء على عيونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي ليس عندهم استطاعة استماع لآياتي البينات.

وإذا ذكرنا الآية التي فيها بحث يأجوج ومأجوج فلا بأس أن ننقل لكم عبارة المفسر طنطاوي الجوهري للإطلاع على بعض المفاهيم. قال في هذا الموضوع: لقد كتب كاتب هندي حوالي سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين ١٨٩٩ ميلادية في مجلة (الهلال) يسأل علماء مصر والشام: أين يأجوج ومأجوج؟ وهل هم موجودون؟ وإذا كانوا موجودين فأين هم؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب في الأرض وهل قول الله تعالى يتغير؟ وإذا كان قول الله حقاً وصدقاً فأين هؤلاء؟ وقد كرر هذا الموضوع مجلة الهلال ثلاث مرات فلم يجب أحدٌ. وقد كنت إذ ذاك في أول خدمتي في المدارس المصرية بصفة مدرس، وكان لي إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته في اللطيفة الأولى كما ذكرته لك فكتبت ما يأتي وأرسلته إلى مجلة الهلال، وهذا أول موضوع كتبته ونشر في

الجرائد فأحمد الله أنني وفقت أن أسير في تفسير القرآن اليوم سنة ألف وتسعمائة وأربع وعشرين (١٩٢٤) وإني أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره في الجرائد بأمد طويل فهاكه:

فكتبت المقالة الثامنة التي كتبتها في كتابي نظام العالم والأمم: يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقال في سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧] الآية فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحاً عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به، ولنحضره في خمسة مباحث: المبحث الأول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج. المبحث الثاني في إفسادهم في الأرض، ويستلزم ذكر تاريخهم. المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج، وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك. المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين. المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق.

المبحث الأول:

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح، مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم. وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له (تُرك) وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج، وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد التركستان كما في «فاكهة الخلفاء» وابن مسكويه في «تهذيب الأخلاق» وفي رسائل إخوان الصفا فقد ذكروا أن هؤلاء هم قوم يأجوج ومأجوج.

المبحث الثاني في الكلام على إفسادهم في الأرض:

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمة كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً؟

فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ. فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى، وذهبت إلى أوروبا في قديم العهد فمنهم أمة (السيت) و(السمرياق) و(المسجيت) و(الهون). وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء؟ وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن كما تقدم في بعض الأحاديث أيضاً. ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة، إذ ظهر منهم رجل يسمى (تموجين) لقب نفسه (جنكيزخان) وقال مؤرخو الأفرنج أن معناه بلغة المغول (مَلِكَ العالم)[1]. ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذا أعدَّ نفسه فاتحاً لكل العالم، وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة، فإنه بَعْدَ أنْ جمَعَ أمة التتار تحت حكمه أخضع الصينَ الشمالية أولاً. ثم ذهب إلى بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها. وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً، وسقطت الدولة الخوارزمية بعد حرب دامت عشر سنين. وقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في التاريخ. فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية فَقَتَلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعاً. ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع (جنكيز خان) التي لا تحصى عداً أربعة وعشرون قتيلاً، وأحرقوا المدينة، وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلاً عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما، وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب، وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة (مرو) فكانوا مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً! هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم. راجع دائرة المعارف، وابن خلدون، وفاكهة الخلفاء.

---

(١) قلت: بل معناه مثير الحرب، لأن الكلمة مركبة من (حنگ) و(أنگيز) والأولى بمعنى الحرب، والثانية المثير.

وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فقد أخضعوا بلاد الهند ومات (جنكيز خان) بعد قفوله من غزوها. ولما ملك بعده ابنهُ (آقطاى) أغار ابن أخيه المدعو (باتو) على الروس سنة سبعمائة واثنتين وعشرين هجرية ودمروا (بولونيا) وبلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات (آقطاى) فقام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية، ثم مات جالوك، وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاى) و(هولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح فاتجه الأول إلى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وكان الخليفة إذا ذاك (المستعصم بالله) فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات، وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهراً! وهو أمر معلوم مشهور، وطرحوا كتب العلم في دجلة فجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم! وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم ما لديه من الكنوز التي لا تحصى، وقد ورثها من أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان، وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد! وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

ولما استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة (كيلاى) بالصين والمغول، وملك جافاتاى أخو (آقطاى) تركستان، وملكت ذرية (باطوخان) البلاد التي على شواطىء نهر (فلجاى) (أولكا) وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمناً طويلاً، وانضمت بلاد الفرس إلى (هولاكو) الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام.

المبحث الثالث قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾

أي فتحت جهتهم على أحد تفسيرين. ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التاريخ. وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله ﷺ: «**اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يَسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا**» أي الترك، ومع ملاحظة ما ذكرناه في التاريخ لم يسلب الأمة الإسلامية

ملكها إلا هؤلاء. وقد ورد أيضاً في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان. فهذه إشارة إلى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم إذ لم يتجاوز الشام إلى مصر ولا إلى إفريقيا. وقد ورد أيضاً أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا البيت المقدس، ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقاً وغرباً، ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلها من معجزة ظاهرة.

ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث «**يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب، أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان، يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق، يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها**» وقد حمله بعض العلماء قديماً على جنكيزخان المذكور. وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل (جنكيزخان) والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم، وأغار على أطراف بلاده. فاغتاظ جنكيزخان وكتب إليه كتاباً يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما نصه: «كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي و مالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم؟ أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة؟ أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم؟ وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم. . أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم اتركوا الترك ما تركوكم؟ وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهد أوصى به ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه؟ ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها، وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها، وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام، وتقوم سوق الفتن، ويظهر من الشر ما بطن، ويروج بحر البلاء ويموج، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج، وسينصر الله المظلوم، والانتقام من الظالم أمر معلوم، ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته، وآثار عدله في بريته، فإن به الحول والقوة، ومنه النصرة مرجوة، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب. . .» انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان.

وانظر كيف كان صريحاً بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان، وهذا

مصداق ما رواه البخاري بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت زينب ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «**نعم إذا كثر الخبث**» ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ في القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخر وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا. ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم، ولما صار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم. وهذه من أجل المعجزات!

ثم إنه كان بين مملكة خوارزم وبلاد جنكيزخان مملكة تسمى (أنذار) كأنها حد فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح. وكان إذا ذاك في (نيسابور) عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما. فَسُئِلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله! فقالا: «وأنتم تَعُدون هذا الثلم فتحاً؟ وتتصورون هذا الفساد صلحاً؟ وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج! ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين، ولتعلمن نبأهُ بعدَ حين» فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه، ونص في فحواه، ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره. وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه، وظهر التتر وأفنوا المسلمين، وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوروبا.

المبحث الرابع:

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ الحدب ما ارتفع من الأرض، وينسلون أي يسرعون في النزول من الأكام والتلال المرتفعة، وهذه الحالة منطبقة تماماً على قوم جنكيزخان المتقدمين، فإنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا.

المبحث الخامس:

قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة. ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ①﴾؟ وقوله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى. ومع ذلك فقد مضى نيف وثلاثمائة وألف سنة. فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ فكلاهما إقتراب، ورب قائل يقول: أين الإقتراب في الموضوعين؟ قلنا: معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الإحصاء وما بقي من عمر الأرض قدره يسير جداً بالنسبة لذلك، ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بُعداً ويعده الله الباقي الدائم قُرباً. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ⑥ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ فآلاف السنين لا تنافي القرب مهما امتدت وطالت بالنسبة إلى الزمن كله، إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين. ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**» وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمناً ويعبدون الله عز وجل، وهذا ما عنّ لي، وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندي في حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر. انتهى.

ثم كتب بعد صحيفتين. ما نصه: فائدة: ومن العجب أن الأخبار التي ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة قسمين: قسم الجنوب، وقسم الشمال، فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد، وقسم الشمال متهمون في وطنيتهم وصدقها. وجاء في الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين، وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى (الجنكيزخانية) فلما قرأت هذا الاسم في أخبار البرق العامة عجبت كل العجب، وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقاً لا يزالون يحافظون على تاريخم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم بدليل أنهم سموا فرقة باسم (جنكيزخان) الذي شتت شمل المسلمين قديماً وشمل أكثر الأمم هو وذريته. وقد جاء في الأخبار اليوم (أي ٧ يونيه سنة ١٩٢٨) أن الوطنيين في الصين دخلوا (بكين) العاصمة أفلا ترى أن العالم الذي

نعيش فيه سينقلب انقلاباً تاماً؟ الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة وقد ارتقت. أفلا يقال أنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقاً للآية؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقاً إذ قال: «ويل لأوروبا من الصين» وسماه (الخطر الأصفر) أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية؟ الله أعلم بالمستقبل. فإذا صح هذا كان الخروج الأول خروجاً جزئياً لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم، لأن قطب الدين أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم، ولذلك قتل رسلهم التي أرسلوها، فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم. ويكون قوله ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**» إلخ راجعاً للخروج الأول. أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلباً كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة، فإذا خرجوا أهلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديماً قبل التاريخ، وكونوا أمماً في أوروبا ثم خرجوا ثانياً لإبادة ملك العرب، والآن يخرجون لقلب وجه الأرض ويكون قوله ﷺ: «**إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم**» راجع للخروج السابق. أما الثاني فلا ندري ما الله فاعل بالناس والله يعلم وأنتم لا تعلمون. فجدير بالأمم الإسلامية أن يفكروا في مستقبلهم فإنهم اليوم بين أوروبا الظالمة والشرق الأقصى.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الإستفهام إنكاري، وحَسَّنَ موقعه وقوعه بعد بيان إحاطة علمه بما يسأل عنه ويجاب من الأمور الغيبية الماضية والإستقبالية. وشمول قدرته لكل ممكن من الممكنات التي تعلقت إرادته بوصول الناس إليها علماً وعملاً. أي أبعد ثبوت وجود واجب كذلك ظنّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من أهل

الكتاب والمشركين إصابتهم ونجاحهم في ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ من الملائكة والأنبياء وغيرهم ﴿مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ وأنصاراً لهم على مطالبهم السيئة ومآربهم الخبيثة ومع ذلك يتركون ولا يعاقبون؟! كلا ثم كلا ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين وأمثالهم ﴿نُزُلٗا﴾ كشيء يحضرُ ويعد لتمتع الواردين. ﴿قُلۡ﴾ يا حبيبي: ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ منصوب على التمييز، وجاء به جمعاً مع أن الأصل في التمييز الإفراد للدلالة صراحةً على تنوع أعمالهم، أي ننبئكم بالذين هم أخسر الناس من حيث العمل وجزاؤه ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ضاع سعيهم ولم ينتج لهم خيراً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿هم يحسبون﴾ أي يظنون ﴿أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ أي أنهم يعملون ما يعملون على الوجه اللائق الموافق لنيل السعادة الإنسانية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي بالآيات البينات الدالة على وجوده ووحدته وسائر صفاته ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي البعث والحشر والحساب والميزان، ونتيجة ذلك من الجزاء هناك ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وسَقطت عن درجة الإعتبار بالمعيار لكفرهم بالله الواحد القهار ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ أي فلا نهتم بهم ولا نعتبر لأعمالهم قيمة تنفعهم يومَ الحاجة إليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر والشأن ذلك وهو خفي يفسره قوله ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي مَهزوءاً بها.

ولما ذكر أحوال الكافرين ومآلهم بين على عادته في كتابه أحوال المقابلين لهم وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ أي الجنات المشتملة على البساتين نزلاً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ أي لا يطلبون ﴿عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ مصدر كالصغر والكبر أي لا يطلبون عنها تحولاً إذ لا يتصورون أن يحصل لهم شيء أعز وألذ من ذلك فيطمئنون بها والحمد لله.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ أمرٌ ناشيء من فيضان تجليات عِلمهِ وتعلقات قدرته بالممكنات، يعني قل للناس يا حبيبي ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ وجنس المياه السيالة ﴿مِدَادٗا لِّـ﴾ تحرير ﴿كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي كلماته الدالة على تعلقات علمه وإرادته وقدرته وتنفيذها لما يريده تعالى ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ وانتهى ماؤه ويبس مع كثرته

وفيضانه ووفرته ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ وتنتهي ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ أي بمثل ذلك البحر أو أضعافه ﴿مَدَدًا﴾ عوناً وزيادة عليه، وذلك لأن البحر وأضعافه من الممكنات متناهية وكلماته تعالى الحاكية عما جرى ويجري اللازمة لذاته تعالى من الأزل إلى الأبد غير متناهية، فلا تتساوى كلماته وما خلقه من مقدوراته من البحر أو أضعافه، قال بعض العلماء على وجه اللطيفة: لا تكفي كل قطرة منه لتحرير ما جرى عليها من الأحوال فضلاً عن تحرير غيرها.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي بعد بيان شأن الكلمات: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ولا أجمع بين البشرية والإحاطة بكلمات الله تعالى وبيان كل ما تسألونني عنه لولا أن يمن الله عليّ بالبيان، ولا يلزم من ذلك أن لا أكون رسولاً فإنه خصني رحمة وفضلاً بالوحي و﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا يتجاوزه إلى جواز الإشراك به تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ لقاء ممتازاً بالعز والكرامة ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة فليعمل عملاً صالحاً مناسباً للقائه حسب وعده ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ لا إشراكاً جلياً كعبادة الأصنام ولا خفياً كما يكون في عبادة اللئام رياءً وسمعة موجبة للآثام، فإنه تعالى لا يقبل إلا عبادة المخلصين جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين.

ومما يجب أن يعلم أن التوحيد الخالص لله تعالى يتم بتوحيده في وجوب الوجود، أي أنه لا واجب سواه وغيره من الممكنات المستوي وجودها وعدمها، وفي الخالقية أي أنه لا خالق سواه، وفي المعبودية أي أنه لا معبود بحق سواه، فمن آمن بوحدته تعالى فيها فهو الموحدُ، وليس من الإشراك له تعالى مباشرة الأسباب التي قررها الباري تعالى كالإستفادة من الأستاذ المفيد، والإستمداد من المرشد الرشيد، وطلب العون من الناس فيما يحتاج فيه إلى التعاون. وأما من جعل الرياء شركاء خفياً فمراده إذا كان عمله لغير الله تعالى، كأن يعملَ له ويطلب الثواب منه، وإلا فالمجاهد الذي يعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونيل الغنيمة معاً فهنو مؤمن موحد غير مشرك، ولكنه ينقص من أجره بقدر نية نيلها فقط فاغتنم ذلك فإنه الحق الحقيق بالقبول.

سورة مريم

مكية، وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ
نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا
فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
(٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً
وَعَشِيًّا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ (١)﴾ روي في معنى هذه العبارة أقوال منها أنها اسم لله تعالى، ومنها أنها اسم للقرآن، ومنها أنها اسم للسورة، ومنها أن تلك الأحرف للإشارة إلى معان متمايزة. وفوض بعضٌ علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب. وهذا القول هو الذي أعتقده، فإن القرآن الكريم بيان للناس، وليس كل كلام منه بياناً لكل إنسان. فالظاهر أن هذه الأحرف التي افتتحت بها السور العديدة رموز

بين الله وبين رسوله ﷺ، وكان المقصود منها معلوماً عنده ﷺ. وإعرابها مبني على المقصود منها فإذا كانت اسماً للقرآن أو السورة جاز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا القرآن أو هذه السورة مشتملة على ذكر رحمة ربك عبده زكريا. ويحتوي على بيان كرم الباري سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عبده زكريا ﵇. ففي العبارة إضافات متتالية لاختصاصات متعالية، أي أن هذه السورة مشتملة على بيان الرحمة الواسعة الفائضة من الخالق العظيم الشأن الذي رباك ورقى بك مدارج العلو، وأوصلك مقام النبوة والرسالة العامة، وهو الرب الذي تعرفه بإفاضة هذه النعمة الجليلة عليك رحم الإنسان الذي اتصف برتبة عبوديته له وهو زكريا ﵇. فقوله ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل أو عطف بيان للعبد وقوله ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ظرف لرحمة ربك، أي رحمه إذ ناداه بصفة أنه رباه وأنعم عليه بتربية جَميلة وتَعْلِيَةٍ جَليلَةٍ، فأوصَلَه من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة والفتوة، ومن الجهل إلى العلم المعتاد بالأمور العامة، ومنها إلى العلم بأسرار الباري في خليقته، ومنها إلى إفاضة العلم بشريعته بأن جَعَلَه رسولاً من رسل بني إسرائيل، وكان نداؤه له ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ مستوراً من الناس ومن أسماعهم، أي أنه كان في معبده الخاص وعند اعتزاله عن الناس لعبادة ربّه، فناداه بوصف الربوبية و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف العظم الذي هو عماد الجسد والهيكل الخاص ضعفاً ينذرُ بالموت والفناء ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز من نسبة الإشتعال إلى الرأس ومحول عن الفاعل أي اشتعل شيب الرأس، ومعناه أن شعر الرأس أبيض كلُّه وصفا البياض من الشيب، فصار كلمعةٍ ذات بريقٍ ولمعانٍ، وأنا إذ أناديك أُناديك على رغبة في الإجابة وثقة بسعة رحمتك العامة للناس والخاصة بالنسبة إليّ إذ ﴿لَمْ أَكُنۢ﴾ في سالف الزمان إلى الآن ﴿بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم أكن في دعائي إياك خائباً في وقتٍ من الأوقات سواء دعوتُك لدفع آفة من الآفات أو جلب كرم وهبة من الهبات، ﴿و﴾ دُعائي هذا مقرون بخوف البلاء فـ﴿إني خفت الموالي﴾ أي الرؤساءَ ﴿مِن وَرَآءِى﴾، والمراد بنو أعمامِي المتوجهين إلى الدنيا الذين لا يُراعون قواعد الشريعة فأخاف فوات تراث النبوة والرسالة فينا ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد من حين شبابها إلى شيبها.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي ولداً من صلبي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ والجملة صفة لقوله ولياً وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو

الصحبة أو الموافقة في الدين ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. والمراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة والرسالة والقيام بأمر الدين وتوجيه الأمة إلى رب العالمين، على نهج قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]. وليس المراد إرث المال والملك لأن آل يعقوب من عهده إلى عهد زكريا عليه السلام ما كان يعلم عددهم وأحوالهم إلا الله فلا ينال أيّ واحد منهم من متملكات آل يعقوب إلا قرصة وهي بالفرصة. فليس في الآية منافاة مع قوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**» لأن الحديث الشريف في الملك والمال، ودعوة زكريا عليه السلام في النبوة والإجلال والدين، ولما كانت النبوة موهوبة والإرث كالموهوب لأنه ليس تملكاً اختيارياً ناسبه التعبير عن وصولها إلى النبي بالتوريث وقيل أراد بالأول النبوة وبالثاني الملك والرئاسة. ويؤيد ذلك ما روي أن بني ماثان كانوا رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا عليه السلام رئيس الأحبار يومئذ، فأراد أن يرث ولده الحبورة ويرث من بني ماثان ملكهم أيضاً، فتكون الوراثة مختلفة في المتعاطفين. ويؤيد ذلك قوله ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي مرضياً عندك قولاً وفعلاً، فإن الملوك قلما يرضى عنهم، فأجابه ربه واستجاب نداء عبده ودعاءه وقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ وكان القول بواسطة الملك جبريل عليه السلام، والغلام الولد الذكر، وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد له وتشريف له عليه السلام من حيث أنه تعالى وضع له الاسم المشعر ببقائه وحياته حياة مباركة طيبة، ولذلك قال: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي شريكاً وعديلاً له في هذا الاسم، فلما علم باستجابة ربه له وعلم أن امرأته عجوز وهو كذلك استأنف و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ عقيماً ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حال مؤكدة لاستبعاد حدوث الولد له. والعتي: مصدر بمعنى اليبس والقحول في المفاصل. وأصله عتوو كقعود قلبنا الواو المتطرفة المضموم ما قبلها ياء، فقلبنا الواو الواقعة قبلها ياء لقاعدة الاجتماع، وأدغمنا الياء في الياء، وكسرنا ما قبلها وما يليها للمناسبة واللين في اللسان فصار عِتياً. أي قد بلغتُ أنا من أجل كبر السن يبساً وقحولاً، أو حالة لا سبيلَ إلى إصلاحها.

وإنما قال عليه السلام ذلك مع سبق دعائه وقوة يقينه بقدرة الله تعالى إستعظاماً لا إستبعاداً لأنه شهد وجود الولادة بدون السبب الاعتيادي وذلك مما لا بأس به ولو من الأنبياء والرسل عليهم السلام. وقد يقال: إنه سأل بذلك بعد تيقنه بحصول المقصود

لإظهار قدرة واجب الوجود بين أهل الإيمان والجحود ليزداد الذين آمنوا إيماناً وليتنبه الجاحدون عسى أن يتوبوا إلى ربهم.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ والمعنى قال الله تعالى كذلك قالَ ربكَ، وقال هو عليّ هين أي سهلٌ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي وما كُنتَ مَوجوداً بل كنت معدوماً. فالخلق وإن كان على سبيل تسلسل الأسباب الإعتيادية لكن خلق كل سبب منها كان مربوطاً بإبداع وإيجاد آني، حتى لو فرضنا أنّ الأسباب اللاحقة مرتبة على وجود الأسباب السابقة التي هي من المعدات للواحق لكن السبب الأول ليس له سبب إلا تعلق إرادة الفاعل المختار والأمر إليه بالاعتبار. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أي علامة على علوق الولد، فإن البشارة كانت مطلقة ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامته حدوث حالة غير اعتيادية لك وهي عبارة عن عجزك عن التكلم والتعبير مدة ثلاث ليال متساوية، أو حال كونك سوياً في الخلق سليماً في البدن يعني أنك تقدر على التكلم مع نفسك. وقراءة أسفار التوراة «وليس فيك عجز عن مرض مع أن الله جعلك بحيث لا تقدر على التكلم مع الناس» وهذه خارقة للعادة ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي فلما فاجأه ما قدر له ربه من العلامة وعرض عليه تلك الحالة أشار إلى قومه أن سبحوا ربكم وأتوا بواجبات عباداتكم بكرة وعشياً بدون انتظار حضوري معكم. والتسبيح جاء بمعنى التصلية أي صلوا صلاتكم المشروعة في دينكم، أو المراد سبحوا الله واحمدوه واذكروه بكرة وعشياً. وإنما ذكر التسبيح لمناسبة المقام فإنه مقام التعجب من قدرة الباري تعالى في خلق الولد من عجوزين عاجزين يابسين كما يتعجب من انعقاد الثمرات على أغصان شجرة يابسة.

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ وقلنا للولد لما ولد وتربى وبلغ مجال الفهم والتمييز: يا يحيى خذ الكتاب المستطاب المعهود بينكم وهو التوراة لقراءته وفهمه وحفظه ونشره وترويجه بين الناس بقوة بدون ضعف وفتور، وبجد بدونِ توانٍ وكسل وقُصور ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ أي العقل المستقيم أو الحكمة في الأمور كلها في ما يتداول بينهم، أي فهم الأحكام والقضاء بين الناس، أو الحكم الإلهي بإعطاء النبوة والرسالة على منهج الرسل السابقين من آبائه وأعمامه الكرام حال كونه ﴿صَبِيًّا﴾ قيل: إنه كان في السنة السابعة من عمره. ولم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا يحيى

وعيسى عليه السلام ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي وآتيناه من لدنا عطفاً ورحمة بالناس لا سيما الضعفاء بالجهل وقلة ذات اليد ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي طهارة في النفس فيكون كالعلة للوصف السابق، لأن الشفقة تنبت من القلب الطاهر، أو زكاة وصدقة منه للناس أي أثريناه فأخذ يتصدق على المستحقين. أو براً وإحساناً لوالديه. والكل معروف من أهل المعروف ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ موصوفاً بالتقوى بأركانها وهي التقوى عن الكفر والجحود، والتقوى عن المعاصي، والتقوى عن الإنهماك في الدنيا ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ مُحْسِناً إليهما بمعنى الكلمة ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا﴾ متعالياً على الناس ﴿عَصِيًّا﴾ أي مخالفاً أمر مولاه أو مستبداً برأيه عاصياً على الناس فيأخذ بآرائهم كلما ظهر له إصابتها. ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ من الله نازل عليه ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من مس الشيطان ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ من وحشة النفس من مفارقة الخلان ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾ قاصداً لقاء ربه المنان من العذاب وأهوال النيران، أو من النقصان في الحساب والميزان.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ
مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ
بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا
زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ
كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا
مَّقۡضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ
جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن
تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ
عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ
إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي ﷺ والمراد بالكتاب القرآن الكريم أو السورة المباركة، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها للمناسبة الملحوظة، أي واذكر للناس النبأ العظيم العجيب المتعلق بمريم رضي الله عنها من حيث ولادة سيدنا عيسى منها بلا علاقة أب وقوله ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ ظرفٌ للنبأ المقدر المستفاد، أي

واذكرْ نبأ مريم إذ انتبذت واعتزلت من أهلها مكاناً شرقياً من بيت المَقْدِسِ، أو انتبذت من دارها مكاناً شرقياً لتغتسل من الحيض محتجبةً بحائط أو الستر المقدر كما يفيده قوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي لأداء حاجتها في أدب واحتجاب ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي روحاً من عندنا أي مَلَكاً من عندنا تَحْيا بالوَحْي الذي معهُ قلوبُ العباد وهو جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي فتصوَّرَ لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ في الخلق كامل الأعضاء حَسَناً وجيهاً نبيهاً، ولما تمثل لها ورأته انزعجت و﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ حيث ظهرتَ في مظهر لا يناسبُ أهل العفة والإيمان فإني امرأة مُحتجبة ومعتزلة في محل مستور عن الأعين لقضاء واجبي بالأدب والكرامة ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ شرطٌ وجوابه مقدر يدل عليه ما تقدمه وهو فابتعد عنيّ. أي إن كنت من أهل التقوى والصيانة فاتركني واذهب من حيث جئتَ.

ولما علِم انزعاجها هدأها و﴿قَالَ﴾ لتطمينها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ لا المعتدي على أدبك، وأُرسِلْتُ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي لأكونَ سبباً في إعطاء ولدٍ طاهر من الذنوب أصلاً وفصلاً. فلما سمعتْ كلامه ﴿قَالَتْ﴾ مستنكرة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بالوجه الحلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ زانية وما مَسَّني أحَدٌ بالوجه الحرام. قال جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلتُ لكِ من إعطاء ولدٍ لك ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي وهو عليّ هينٌ سَهلٌ يسير وقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعليل لحكم محذوف أي ونهب لك ذلك الغلامَ لنجعل ذلك الوَهْبَ آيةً وبرهاناً للناس المُنْصفين على قدرتنا الباهرة، ليعتقدوا أنا كما قدرنا على خلق أبي البشر بلا أب ولا أم نقدر على خلق إنسان من أعيان النوع بلا أب ﴿وَ﴾ لنجعله ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي وسيلة انتشار رحمة منا، وهي الاهتداء بهديه والاسترشاد بإرشاده، أو رحمة منا للعباد المبتلين بالأمراض والأعراض حيث تجلَّينا بقدرتنا عليه، فتبعث الحياة في أجساد مصورة بصورة الطيور بنفخ مبارك منه، وتحيي الأمواتَ المدفونين في القبور بإيقاظ منه وتبرىء الأكمه والأبرص بمساسٍ من راحته ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ لنا أزلاً. وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فيه إيجاز الحذف أي فَاطمأنّت بكلامِهِ، ونَفخ جبريل في جيبها فدخلت النفخة في جوفها فحملته أي الولدَ الموعودَ وَسِنها إذ ذاك خمس عشرة سنة في أرجح الأقوال، ومدةُ حملها به تسعة أشهر كما في سائر النساء، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ للإتصال العرفي المعتاد وقيل حملته في ساعة النفخ وصور فيها

ووضعته في ساعة بعدها حين زالت الشمس من يومها ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي مكاناً بعيداً من أهلها استحياءً منها.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي ألجأها وجع البطن المعهود عند الولادة إلى جذع النخلة، وهي ما بين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة، وذلك لتسند إليها عند الولادة. والتعريف إما للجنس أي جذع أية نخلة للغاية المذكورة، أو نخلة معهودة هناك لكبرها وسترها لها وصلاحيتها للاستناد أيضاً. ﴿قَالَتۡ﴾ عند ذلك حياء وانفعالاً نفسياً منها ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ الوقت العسير ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي شيئاً تافهاً ﴿مَّنسِيّٗا﴾ لا يخطر ببال أحد فينسى من حقارته. ومِتّ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف، أو مات يميت كجاء يجيء وقرىء بضمها من مات يموت كصان يصون. ونسيا بفتح النون وكسرها الشيء التافه الذي لا يعتد به، وشأنه أنه ينسى كخرقة الطمث، وهما لغتان سيان. وقال بعض: الأفصح الفتح، وبعضٌ الكسرُ. وقال بعض اللغويين بكسر النون اسم لما ينسى وبفتحها مصدر نسي ينسي من الرابع. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي فولدَت الولدَ وهو عيسى عليه السلام لدلالة المخاض عليه وناداها من تحت ثيابها ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي أن لا تحزني، وكلمة أن مُفسرة للفعل، أي لا تحزني من هذا الحادث بل افرحي واشكري ربك على نعمة ولادة هذا المولود المسعود ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي ولداً رفيع الشأن عند الله وعند الناس، وكون المنادي عيسى عليه السلام معجزة تليق بمقام حزنها لتطمئن.

وروي أن المنادي جبريل و﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي من جانب مكان أخفض من مكانها بعيداً منها و(السريّ) جدول الماء والكل محتمل. وأعتقد أن الأول أولى وزاد المُنادي في أسباب اطمئنانها وقال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ أي هُزيها وحركيها إلى جانبك، فإذا هززتِ بها تساقِط عليك رُطباً أي تُسْقِط عليكِ رُطَباً مَجْنياً بلا تكدر بغبار لأن فيها مَسكَةً وقواماً. وفي هذا الطلب إعجاز من جهات:

الأولى: أن الطلب من صبي لم يشرب اللبان بعد.

الثانية: أن النفساء المريضة النحيفة اللطيفة غير قادرة على هزّ العود الصلب لتهتز بحيث يسري اهتزازه إلى الأغصان.

الثالثة: أن الوقت لم يكن وقت الثمر كما روي عن بعض.

الرابعة: أنها أثمرت فوراً ووقع الرطب على الأرض القريبة منها بدون تأثر بتراب الأرض. وكل ذلك حتى تطمئن نفساً بأنها متبركة قدساً.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي كلي من الرطب الحار المعتدل المناسب للنفساء، واشربي من الماء الزلال ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفساً وارْفَضي عنها ما أحْزَنَها فكأنكِ بالوادي القُدسي لا في البيت المعتاد الشخصي. ومعنى الفعل أصْلاً وتبردي عيناً، فإن ماءَ القلب إذا فار فرَحاً يفور بارداً، وإذا شرد ووصل إلى العين بردها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ وتكلم معك حول الموضوع ﴿فَقُولِيٓ﴾ له بالإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي نذرت له صمتاً وسكوتاً. وإلا فالصوم حرام في وقت الحيض. ولا يقتضي السكوت أيضاً حتى يفيدها، اللهم إلا أن يكون ذلك جائزاً كذلك في تلك الشريعة. وإذا كان قولها ذلك بالكلام فالمعنى نذرت السكوت بعد هذا الكلام. وإنما أفادها ذلك حتى يكون الولد الرضيع هو الذي يتكلم ويدوي صوت المعجزة في كهوف الأدمغة الجوفاء، فيجفو من جفا ويصفو من صفا.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي فلما اطمأنت نفساً بجانب قُدْسها وأن المولود من مواليد كُنْ فيكون، جَاءت قومها حاملة له بعزة نفس وقوّة أنْسٍ، راجيةً من ربها العزيز القدير أجراً غير ممنون. فلما رأوها وفي حضنها ولدٌ بدون سابِقة زواج وأفراحٍ وابتهاج ظنوا بها من سوء المزاج و﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا

﴿فَرِيًّا﴾ أي فعلتِ شيئاً فرياً أو جئت بشيء فريّ. وفرياً معناه عظيماً أو عجيباً، وأصله من فري الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، ونصبه على أنه مفعول به. وقيل: مفعول مطلق، أي جئت مجيئاً عجيباً. وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب كأن ذلك الشيء مجهول غير معتاد ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ هذا النداء مستأنف لتأكيد التوبيخ. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً. وقيل: رجُلٌ صالح مشهور في بني إسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى عليه السلام، والمراد بالأخت المشابه والمماثل في التقوى، أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الصالح المشهور، أو هارون أخو موسى، ما كان أبوكِ امرأً صاحبَ سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانت أمكِ بغياً أي زانية. والأصلُ إذا كانَ زكياً فالغالبُ أن الفرع يكون كذلك، فمِنْ أين لكِ هذا الولدُ؟

﴿فَأَشَارَتۡ﴾ مريمُ ﴿إِلَيۡهِۖ﴾ أي إلى الولد أن كلموه، فغضبوا عليها و﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾؟! والمراد بالمهد حجر الأم، فأنطق اللَّهُ عيسى عليه السلام معجزةً قاهرة باهرة إذا كان نبياً منذ الولادة، أو إرهاصاً. و﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الكتاب المختص بي وهو الإنجيل. وقيل: الإنجيل والتوراة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ رفيع الشأن مخبراً من عنده ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ صاحِبَ بركة وخيرٍ لنفسي بعبوديتي لله وإخلاصي ومحبتي له ولغيري بإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من مائدة الرحمة أين ما كانت في الأرض أو في السماء ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ وفاءً بحق العبودية ومعراجاً لروحي ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وفاء بحق المستحقين وابتهاجاً لنفوسهم ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجعلني برّاً محسناً بوالدتي بخدمتها في حضرتها والدعاء لها في غيبتها ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا﴾ متكبراً على غيري ﴿شَقِيّٗا﴾ ذا شقاوة وعصيانٍ لربي ولا ذا إتعاب وتعذيب لغيري ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ سلامٌ من مس الشيطانِ في أول أمري، ومن النقص في الإيمان في آخر أمري، ومن سوء الحساب ونقص الميزان في وقت البعث وأحوال الحشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المولود المسعود المبارك وذلك الشخص الموصوف بتلك الصفات الحميدة ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ شخصية شريفة مِن والدةٍ عفيفة ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ وأقول هذا قول الحق الحي القيوم ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي يشكون ويتنازعونَ. فيقولُ اليهودُ: هو ساحر. ويقول النصارى: هو ابن الله. تعالى اللَّهُ عن كل ذلك عُلُواً

كبيراً! ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ ما صح وما استقام في إدراك المدركين وعقل العاقلين بالنسبة إلى واجب الوجود المستغني عن كل موجود ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ في عالم الإمكان والحدوث والشهود، فإنّ الواجب الوجود المطلق بريء مما هو يناسب الممكنات المستفيدة للوجود الموقت من إرادة الباري وقدرة ذات الحق ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ فننزهه تنزيهاً وجيهاً من هذه العلائق الغير المعقولة، فإنّ الافتقار إلى الولد إنما للتعاون مع الغير ودوام السلسلة في السير، والباري سبحانه غني مطلق في إيجاد كل موجود من كل عونٍ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ وأراد وجوده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ أي لصورته العلمية ﴿كُن﴾ أي كُنْ ذا عين أعيانيٍّ ﴿فَيَكُونُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ معطوف على قول عيسى ﷺ إني عبد الله أي إني عبد الله وإن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا ما صرح به الواحدي وقرره. وكلام مستأنف مبني على حذف الأمر المشتق من القول خطاباً لسيد المرسلين ﷺ. أي وقل يا رسولي بعد حكاية قصة عيسى ﷺ للناس: إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴿هَٰذَا﴾ الذي قررناه من وحدانية الله تعالى واستغنائه عن النسل ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سَلَكَه الهُداةُ من الأنبياء والمرسلين وكلُّ ذي عقل سليم، وضلّ عنه كلّ ذي قلب سقيم. ونسأله تعالى أن يسلك بنا مسالك الأنبياء والمرسلين، ويوصلنا إلى لقائه ورضاه يوم الدين.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي فاختلف اليهود والنصارى بينهم في شأن عيسى ﷺ، فقال اليهود: هو ساحر مُرتابٌ. وقال النصارى: بل رسول من الله إلى أولي الألباب. أو فاختلفت فرق النصارى فيما بينهم؛ فقالت النسطورية: إنه ابن الله، واليعقوبية: إنه هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء. وقال الملكانية. هو عبد الله ونبيه ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي من شهودهم وحضورهم في يوم عظيم مهول للحساب والجزاء ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي أسمع بالذين كفروا. وأبصر بهم صيغة التعجب تفيد أن أسماعهم تدرك كلَّ صوتٍ ضعيف رقيق وأبصارَهم تُبصر كل شيء

دقيق في ذلك اليوم فيدركون ما حاق بهم من الويلات والعذاب بعدما كانوا في الدنيا صُمّاً وعمياً لا يسمعون الخطاب من الرسل الكرام ولا يبصرونَ أي شيء يزجرهم عن سيىء الآداب ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عن طريق الحق المستبين ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا رسولي النذير ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ بعذاب يوم الحسرة الذي يتحسر الناس فيه ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فُرِغَ مِن الحساب والميزان وأخذَ كلٌّ من الفريقين طريقه إلى النار أو الجنة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن ذلك ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأنهم يأتيهم ذلك اليوم فينتبهون من النوم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى أحد منهم إلاّ ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا فنعلم ما يستحقونه ويلقون جزاءهم.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ﴾ عطف على أنذرهم أي على ﴿وَاذْكُرْ﴾ السابق. أي واذكرْ في القرآن أو في هذه السورة إبراهيم ﷺ. وقصته العجيبة العظيمة ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق لم يكذب قط مع أهله وأولاده وعترته وعشيرته في أمور دينه ودنياه و﴿نَبِيًّا﴾ استنبأه الله تعالى حين كانت الديار خالية عن دِثار التوحيد وشعارِ الإسلام، وغلب الجهلُ والتقليد على الأنام، وطغَتِ المادة على الهُمام. والصديق من صيغ المبالغة. والنبي من النبوة بمعنى الرفعة، أو من النبأ بمعنى الخبر لأن النبي رفيع المقام ومخبر عن الملك العلام. ومعنى الكلام أنه كان جامعاً بين الصدق الوافي والنبوة وتقديم الصدق للدلالة على أن الله لا يأمر سحاب الكرم أن

يُمْطِرَ النبوة على أهل الدناءة من الأمم، وإنما يأمره بالإمطار على أصحاب الهمم، والهمة لا تتحقق إلا حيث يكون الصدق والصبر والقوة على تحمل أذى الأمم. واذكر حاله وأدبه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وناداه نداء أدب واستحياء: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ شيئاً من المسموعات ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئاً من المبصرات في ذاته ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أو شيئاً من الإغناء.

وانظر إلى بلاغة قوله تعالى حكاية عن خليله حيث قال ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل له إنك جاهل بحقيقة الشريعة الإلهية وهي لا ترضى إلاّ بالتوحيد، بل أفاده أنه جاءه من العلم من الله ما لم يأته وتَرجى منه الإتباع وقال ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيماً يصل السالك عليه إلى ربه وينالُ منه كلَّ خير لديه. ثم بين له أنّ عبادة الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يوسوس في قلب الإنسان أن يبتعد عن إطاعة قدسه ويتقرب من هواه ونفسه، ويبعد الأحجار والأخشاب التي ليس لها روح ولا فتوح فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فهو مستعص على من خَلَقَه ورزَقَه وشملته نعمتهُ، والمطيع للعاصي عاصٍ، ثم ترقّى من هذا الطور إلى مقام الخوف عليه فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ﴾ أي عذاب من الله المنان الذي اختص بالرحمانية، وأعاذنا الله وإياكم من عذابه، فإنّ الرحمانَ إذا عَذّبَ أوجع ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي قريناً في العذاب سَوْطٌ عليه وسَوطٌ عليك، فلا يَبْقى أيُّ وسيلةٍ لديك.

وبعد هذه المحاورة اللطيفة استنكر أبوه كلامه وانقلب عليه ولامَهُ و﴿قَالَ﴾ مستنكراً: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ المختصة لي بالرعاية ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ أي والله لئن لم تنته عن هذا النوع من الكلام وتدعونا إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام لأرجمنك بالحجارة، وهذا الرجم أفظع عذابٍ حيثُ فيه القتل والتحقير والتعذيب والتلطخ بالدماء. ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي واتركني واحذرني زماناً كثيراً حتى أهدأ يَسيراً، ومع ذلك التهديد والوعيد وأمْرِهِ بالتغيب عنه إلى زمان بعيد كالمه وسالمه وقال لأبيه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾ ومع الجفاء الذي لديك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ﴾ أي أترجى وأدعوه تعالى أن يغفر لك بأن يوفقك للإسلام فيجب ما قبله من الآثام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي إن ربي كان بليغاً في البرّ بي وحفياً مغنياً بإكرامي والإحسان إليّ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي أتباعد عنكَ وعن قومك ﴿وَ﴾ أعتزل ﴿مَا تَدْعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأهاجر بديني إلى محل غير محلكم ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ وأعبُدُه وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ خائباً ضائع السَّعي ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلمَا اعتزلهم ومعبودهم وأصرَّ على مقصوده وخالف مقصودهم ورموه في النار وصانه ربُّه عن احتراق جسده، وحفظه بعونه ومدده، وبَعَّدَه نمرودُ من البلاد العراقية، وهاجرَ إلى أرض كنعان من مملكة الأردن أقررناه وأثبتناه وجزيناه وأكرمناه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَ﴾ من إسحاق ﴿يعقوب وكلاً﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ أي لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والموهوب النبوة والرسالة والاحترام والجلالة والصيانة عن التحقير والملالة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي وجعلنا لهم مكانة ومحبة في قلوب الناس حتى يذكروهم جيلاً بعد جيل بلسان ناطق بمدحهم والثناء عليهم بوجه صدق موافق للواقع حال كونه علياً في المقال ينطق بما يرضى به ذو الجلال.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قدم على بيان حال إسماعيل لربطه بسيدنا يعقوب عليه السلام أي واذكر في القرآن أو في هذه السورة أحوال موسى ابن عمران من ذرية يعقوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله في أخذ رسالته وتبليغها وتحمل الأذى عليها ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي أكرمه الله بالرسالة بعد أن أكرمه بالنبوة يستفاد من الآية الكريمة أن النبوة والرسالة وإن كانتا موهوبتين ولكن الله سبحانه له في إفاضتهما على عباده رعاية التدرج على الوجه المناسب لحكمته أي وكان رسولاً حال كونه نبياً فالذوق السليم يستفيد أن نبوته تقدمت على الرسالة فإن النبوة صفة صفاء شخص قدسي والرسالة تزيد على ذلك بتخويل تربية من عداه من الجن والإنس ولكنه قدم في الربط الرسالة على النبوة رعاية للفواصل.

وأخذ يذكر مبدأ أحواله والشروع في استكماله ويقول ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي من الجانب الأيمن من جبل الطور عندما توجه موسى إلى الجبل، فإن الجهة ما عدا العلو والسفل إعتبارية فالمتوجه إلى القبلة في بلادنا يقع الشمال في يمينه والجنوب في يساره ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ أي وقربناه من المحل الذي كالمناه فيه حال كونه مناجياً مَعنا كرامة ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي لموسى ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ أي وهباً ناشئاً من رحمتنا ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ عطف بيان ﴿نَبِيّٗا﴾ معه يعاضده ويشدّ أزره إجابة لطلبه ذلك بقوله ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ بن إبراهيم لأنه الجانب الأيمن الأكبر سناً ومقدماً على إسحاق ولادة وينبوعاً لعين رسالة محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني القيداري الإسماعيلي فهو رئيس برأسه ورأس سلسلة ممتازة من قدسه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ بالصبر على الذبح في قضية الرؤيا المشهورة، وبما وعد به الناس، فقد روي: أنه وعد رجلاً أن يقيم له بمكان فغاب عنه حولاً فلما جاءه قال له: أما بَرِحْتَ مِن مكانك؟ فقال: لا والله ما كنتُ لأخلف مَوْعدي. وثباتُهُ هناك كان على الوجه المعتاد من دوامه في تلك المنطقة وليس المراد الوقوف على محل معين بما لا يوافق الواقع ﴿وَكَانَ رَسُولٗا﴾ إلى الساكنين في أم القرى وما حولها على شريعة إبراهيم عليه السلام وصحفه المنزلة من الله العلام، إذ لا يشترط في الرسول أن تكون له شريعة مستقلة كما حقق في محله. وكان مع جمعه للصدق الذي هو من مهمات الأخلاق الحسنة وللنبوة والرسالة حائزاً للجد والسعي فيه ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ قبل الناس ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ وملازمتها في أوقاتها ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ للمستحقين، ويجمع بذلك بين تصفية النفس بصلته مع ربه وتطهيرها من حب المادة بإعطائها لمن فرضت له ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامته في طاعته وعبادته وتبليغ رسالته ومرضياً أصله مرضوو بواوين لأنه من الرضوان فقلبت الواو الأخيرة ياء فصار مرضوي فقلبت واوه ياء على الأصل المقرر، وأدغمت الأولى في الثانية وكسر ما قبلها للمناسبة.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ هو نبي قبل نوح بألف سنة. وهو أول من نظر في النجوم والحساب، وأول من خطّ بالقلم وخاط الثياب، وكانوا قبل يلبسون الجلود، وأول مرسل بعد شيث، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، كما أرسل على شيث خمسين، وعلى آدم عشرة، وعلى إبراهيم عشرة، وبها كملت الصحف المائة، وبعدها الكتب الأربعة: التوراة التي احتوت أحكام الشرع

المعمول به في بني إسرائيل، وزبور داود كان إرشاداً ومواعظ وأذكاراً، وإنجيل عيسى، والقرآن المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وهو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى. وفسره كثير من الناس بالسماء لكن الروايات تختلف في تعيين تلك السماء أهي الرابعة أو السادسة أو السابعة؟ وفي رواية عن الحسن أنه الجنة، ولا شيء أعلى منها سوى العرش.

وعن النابغة الجعدي أنه لما أنشدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الشعر الذي آخره:

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وسناؤنا وإنا لنرجُو فوق ذلك مظهراً

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ له: «**إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟**» قال: إلى الجنة يا رسول الله. قال: «**أجَلْ إن شاء الله تعالى**» وأكثر القائلين برفعه حسّاً قائلون بأنه حي حيث رفع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون في السورة الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بنعمه الدينية والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا مع نوح، وهم من عدا إدريس لسبقه عنه ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ أي ساجدين لله وباكين من خشيتِهِ. وسجداً بضم السين وفتح الجيم المشددة جمع ساجد، وبكيّاً أصله بُكُويٌ صار إياه بالإعلال. وهو جَمْعُ باكٍ كشهود وشاهدٍ.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾.

قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الخلف بسكون العين الأولاد سواء الجمع فيه والآحاد، وبالفتح البدل ولداً كان أو غيره. والمشهور أنه بالسكون: العقب السيىء، وبالفتح: ضده. أي فجاء بعدهم عقب سُوءٍ ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي

تركوها، أو أقاموها مع إخلال بشروطها وأركانها، أو ما كانوا يصلونها بالجماعة ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي توغلوا في ما اقتضاه هواهُمْ من المعاصي عَلَى اختلافِ أنواعِها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وهو نَهرٌ في أسفل جهنم فيه من المستقذرات ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمِعت. وقيل: الغيّ الضلال. والمراد أنهم لا يجدون في القيامة طريق الجنة ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ أي لا ينقصون من جزائهم شيئاً من الجزاء. أو لا ينقصون شيئاً من النقص وشيئاً على الأول مفعول به، وعلى الثاني مفعول مطلق. وقوله ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها اشتمال الكل على الجزء، على أنها عَلَم لإحدى الجنات الثمان ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي متلبسة بالغيب عنهم. أي وعدهم عندما كانوا في الدنيا وكانت غائبة عنهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ لمن وعد له بها، فإن الواعد هو الله ووعده حق لا خلف فيه.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي فُضولَ الكلام، وهو ما لا طائل تحته ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ الظاهر أن الإستثناء منقطع لأن السلام من غير صنف اللغو. ويجوز أن يكون استثناء متصلاً على اعتبار تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي إلا لغواً على تقدير كون السلام لغواً، وليس كذلك. أو على أن المراد بالسلام الدعاء. وما دام أهلُ الجنة في غِنى من هذا الدعاء كان داخلاً في اللغو ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد بهذه الجملة استمرار نعيمهم إذ لا وجود لليل والنهار في الجنة، وإنما هناك حالة واحدة من النور والضياء كما في وقت الأسحار في الدنيا. ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ تلك إشارة إلى جنات عدن السابقة، فإن كانت عبارة عن قسم ممتاز من الجنان الثمانية فالمراد بمن كان تقياً المتصفون بالتقوى الكامل أي التقوى عن الكفر وعن الكبائر من المعاصي وعن الإنهماك في الدنيا، وإن كانت عبارة عن جنات يقيمُ فيها أهل الجنة من أي قسم من الثمانية فالمراد به من كان تقياً عن الكفر بالمعنى المقابل للإيمان، أي من آمن بالله ورسوله، ولو كانت له المعاصي لكنها إما توجب العذاب الموقت قبل الدخول في الجنة، أو يشملها العفو فيدخل في منزله المخصوص به منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبريل عليه السلام؛ فقد روي أنه احتبس عنه ﷺ أياماً حين سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلما نزل قال له ﷺ: لم احتبستَ عني حتى ضاق صدري واشتقتُ إليك؟ فقال: ﴿وَمَا

نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي يعود إلى الله الزمان الذي بين أيدينا من المستقبل وما خلفنا من الماضي وما بين ذلك المذكور من زمان الحال. أي فلا نتنزل في زمان دون زمان إلا بأمره سبحانه وتعالى ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي ناسياً أحَدَ أنبيائه ورسله فضلاً عنك وأنت المبعوث رحمةً للعالمين، ولكن الحكمة اقتضت ذلك وكيف يكون ربك نسياً وهو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ من الموجودات ولو بمقدار الذرة، وكل ذلك مرتبط به وبعلمه وإرادته وقدرته حدوثاً وبقاء ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ مُخلصاً له ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ فإنه هو الذي يستحق أن يعبد ويسجد له ويصبر على مشاق تكاليفه وليس أحد شريكاً له في الذات والصفات والأفعال والأسماء المختصة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ أي عديلاً في الاسم؟ كلاّ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها نزلت في العاص بن وائل. وعن عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل وقيل في أبي بن خلف.. أي ويقول أحد أولئك مستنكراً للبعث ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ وتمزقت وصرت رفاتاً ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من مقر أجزائي ﴿حَيًّا﴾ ذا حياة مستقرة مع الحس والشعور والعقل؟! فيرد الباري على كفره الجاري ويقول ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المستنكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وأخرجناه من العدم إلى الوجود ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل الحالة التي هو فيها ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فحيث خلقناه في حالته السابقة المنافية للوجود والشهود فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفاً بالوجود في وقت، على ما اختاره بعض أهل السنة، أو بجميع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض، على ما اختاره بعض آخر منهم أيضاً.. أولى وأظهر. فما له لا يذكر تلك الحالة فيقع فيما يقع فيه من النكير؟!

وبعد نقل ذلك الاستنكار من أهل الاستكبار يقسم الباري بالاختيار بذاته المقدسة وهو رب المخاطب المختار ويقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنجمعهن أولئك القائلين بما قالوا ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي قرناءهم من الإنس والجن الذين كانوا يغرونهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حال كونهم باركين على الركب، وهو جمع جاث وأصله جثوو فأعل مثل إعلال عتوو ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي جماعة منهم تشايعت وتظاهرت وتعاونت على الباطل ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي عُتوّاً ونُبُوّاً وارتفاعاً عن الطاعة ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي ثم لنحن أعلم بالمراتب المُرتبة للكافرين الذين هم أولى وأحق بجهنم دخولاً، فندخلهم فيها الأول فالأول.

ثم التفت الباري تعالى وخاطب الناس عموماً وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ أي وما منكم من أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي داخل جهنم كما ذهب إليه جمع كثيرٌ من سلف المفسرين وأهل السنة ويؤيد بما رواه أبو سمية عن الرسول ﷺ سماعاً منه قال قال ﷺ: «**لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم** عليه السلام**، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا**» وذكر الرازي في تفسيره لهذا الدخول فوائد فراجعه ﴿كَانَ﴾ ذلك الدخول لكل فرد من الناس ﴿عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أمراً واجباً منه تعالى بمقتضى إرادته وحكمته فالواجب بمعنى الثابت لا بمعنى المرفوض منه أو عليه، إذ لا إيجاب منه ولا وجوب عليه كما حقق في موضعه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ ربهم وابتعدوا عن الكفر بالله وبرسله وكتبه ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ونترك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بربهم في جهنم جاثين على الركبِ ذائقين عذابهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ هذه الآية إلى آخرها حكاية لما قاله

المشركون عند سماع الآيات البينات الناعية عليهم بسوء أعمالهم ومآلهم. أي وإذا تتلى عليهم الآيات الواضحات الموضحات للحقائق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مستفهمين عنهم ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي مكاناً ومنزلاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مكاناً ومجتمعاً وهم في غباوة وجهالة وضلالة وقساوة، ولا يدرون بما جرى على الأمم الطاغية العاتية ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أهل قرن ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ من هؤلاء المشركين في زمانك؟ فـ﴿قُلْ﴾ لهم في جواب مقالهم ذلك: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ بِطُولِ العمر وهناءِ العيش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي إما العذاب في الدنيا ﴿وَإِمَّا﴾ حلول ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ التي هي مآلهم الأخير للعذاب الوفير ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ إذا جاء وقت الإستبصار لهم ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منهم ومن المؤمنين ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئة وأنصاراً.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ في الدنيا إلى طريق السعادة. وهذه الجملة معطوفة على الشرطية الواقعة مقولاً للقول أي وقل: من كان في الضلالة فليمدد له الرحمٰن مداً فيها، وقل: يزيدُ اللَّه الذين اهتدوا هُدًى لإغاظة أولئك الذين كانوا في الضلالة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ المختصة بأهل الهدى ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ومرجعاً وعاقبة وهي العاقبة الخالدة.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا
﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ
عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا
ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا
يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث.

أخرج البخاري ومسلم والطبراني وابنُ حبان وغيرهم عن خباب بن الأرت

قال: كنت رجلاً قيْناً، وكان لي على العاص بن الوائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تُبْعَثَ. قال: فإني إذا مِت ثم بُعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولد فأعطيكَ! فأنزل الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾. . . الآية والهمزة للتعجب من حال أولئك الكافرين أي أنظرتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمِنَ بها كلُّ من اطلع عليها ﴿وَقَالَ﴾ مستهزئاً بها مصدراً كلامه باليمين الفاجرة قائلاً: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ وكيف تجاسر على هذه اليمين الفاجرة ﴿أَطَّلَعَ﴾ عَلَى ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ الذي استأثر الله تعالى بعلمه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؟ أي أم أعطاهُ الله تعالى عهداً وموثقاً وقال له إن ذلك كائِنٌ لا محالة ﴿كَلَّا﴾ زجرٌ عن التكلم بالكلام السابق المؤكد باليمين ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنظهِرُ ما يقولهُ ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ بدَلَ ما يدّعيه مِنْ قبلِ نفسْه وهواه من إيتاء المال والولد، أي نطول له من العذاب ما يَستحقه ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي نَسْلُبُ منه ذلك ونأخذه أخذ الوارث التركة من مورثِهِ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ ليس معه ماله ولا ولدهُ اللذان كانا معه في الدنيا.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي وليس كذبهم مختصاً بما سبق وليس القائل بالكلمات الفاسدة شخصاً واحداً بل هم كثيرون لهم أكاذيب ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ مزعومة ﴿لِّيَكُونُوا۟﴾ أي تلك الآلهة ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ وعوناً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن ذلك الاتخاذ وعن إفادته شيئاً فإنهم ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة أي يُنْطِق اللّه تلك الأحجار والأشجار بإنكار ما فَعَلُوا واستنكار عبادته ويشهد من كان له نطق بذلك ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي بدل أن يكونوا عزاً وعوناً لهم يكونون من أسباب الهُونِ والحقارة والذل لهم، وإذا لم تعلم أسباب ذلك الغرور والأكاذيب الصادرة منهم فاعلم أنها إلقاء الشياطين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجَعلناهُم قُرناء لهم مُسيطرين على قلوبهم ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تغريهم إغراءً على الأكاذيب والأباطيل وتُهيجهم على المعاصي وهم يستمرون عليها، لذلك ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أن يهلكوا من قريب فإنهم لا يفرون من قدرة الله ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ الأيام والأنفاس ﴿عَدًّا﴾ محدوداً، وهذه كناية عن اقتراب أجلهم فإن من كان محتضراً لم يبقَ له إلا أنفاسٌ قليلة قابلة للعد لقلتها حتى إذا هلكوا جاءَ وقتُ مجازاتهم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي

ركباناً بعز وكرامة وراحة ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿وِرْدًا﴾ أي عطاشاً والورد مصدر ورد أي صار إلى الماء. وهنا بمعنى الوصف المفرد الواقع في معنى الجمع أي واردين ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ الضمير يرجع إلى العباد المستفاد من ذكر المتقين والمجرمين أي لا يملك أحد منهم الشفاعة لأي واحد من العصاة المجرمين إلاَّ من تحلى بفضائل وكمالاتٍ نفسية حاصلةٍ له من عبادة ربه بإخلاص واستأهل لأن يشفع لهم، وقد أذن له الرحمٰن بالشفاعة لهم كالأنبياء والمرسلين والصالحين من العباد لا سيما سيدهم صاحب المقام المحمود ﷺ فإنه فاتح أبواب الشفاعة لهم كما صرح به الصحاح. ونسأل الله أن يجعلنا من المستحقين لها بفضله ورحمته إنه قريب مجيب.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي المجرمون من العباد المذكورين بقرينة المقول: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود القائلون بأن عزيراً ابن الله، والنصارى القائلون بأن عيسى ابن الله، والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله. فرد الله عليهم على وجه الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقال ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أيها القائلون بما لا يوافق ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي بشيء منكر لا يقادر قدره والأد بالفتح مصدر أَدَّ يَئِدّ أدّاً أي جاء بشيء منكر وبالكسر اسمٌ للأمر الفاسد المُنكر العجيب ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ جملة مستأنفة لبيان عظم شأن ما افتروه يعني يقرب أن تتفطر السماوات من هيبة ذلك الإفتراء ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط الجبال على قواعدها سُقُوطاً ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا للرحمٰن ولداً ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كل من في السماوات من الملائكة والجن والإنس ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ أي إلا آتيه بصفة العبودية وفي حالِ كونه عبداً مملوكاً له

تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي والله لَقَد ضَبَطَهم وأحاط بهم وعدهم شخصاً شخصاً ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ منفرداً من كل من يعاونه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي مَودَّةً في القلوب لإيمانهم وأعمالهم الصالحة. فقد أخرج البخاي ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببتُ فلاناً فأحبوه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في الأرض. فذاك قولُ الله تعالى** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾»... الآية ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي فإنما يسرنا القرآن الكريم وجعلناه على لغتكَ العربية الفصيحة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بامتثال الأوامر والنواهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ وهو جمع ألَدّ أي قوماً شديد الخصومة مع الله ورسوله. قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيد للمشركين وسائر الكافرين الذين آذوا الرسول ﷺ بالإهلاك أسوة بالكفار السابقين، كما أن فيه وعداً وتبشيراً للرسول ﷺ بالنجاح والبقاء واللقاء ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل لك إحساس بواحد منهم ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾؟ أي صوتاً خفياً. وأصل التركيب للخفاء والغيبوبة. والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحداً ولا تسمع منهم صوتاً خفياً فضلاً عن صوت عال. والمعنى محوناهم وأسماءهم وأما أسماء الأنبياء فباقية إلى الأبد.

سورة طه

مكية، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾
تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ
يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة. وفي معناها أقوال مرَّت نظائرها في باقي الفواتح. وأعتقد أنها من الرموز الواقعة بين الله وبين حبيبه. وقوله ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ معناه ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتُهلِكَ نَفْسَكَ بمكابدة الشدائد والأذى الواردة عليكَ من مجابهتهم ومخاطبتهم، ولا لإيصالهم إلى ما يراد فإن ذلك من أفعال الخالق. وقوله: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾﴾ إستثناء منقطع يعني لكن أنزلنا عليك القرآن إرشاداً وتذكيراً لمن يخشى، أي لمن في قلبه رقة وخشية إذا سمع التذكير تذكر، وإذا صادف الوعظ والإرشاد تأثر. وقوله ﴿تَنزِيلٗا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف أي نُزل تنزيلاً. أو حالٌ من القرآن على تأويله باسم المفعول، أي حال كون القرآن منزلاً ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي ومبدأ هذا التنزيل من الله الواجب الوجود الذي خلق الأرض التي ترونها بهذه المناظر العجيبة وتعلمونها محتوية على المعادن النفيسة. وخلق السماوات السبع العُلى، وعلى جمع عالية أو مصدر بمعنى العلو، والمضاف محذوف أي ذوات العلو، ومن كان قادراً على خلق هذه المواد بتلك الصفات إذا نزل كلاماً لإرشاد الأنام على حبيبه الهمام لا بد أن يبلغه إلى غاية المرام منه ويوفق رسوله الذي نزله عليه لتبليغه ونشر الإسلام.

وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح أي هو الرحمٰن يريد من إنزال القرآن عليك أن يرحمك ويرحم الناس المتقبلين له. وقوله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ خبر بعد خبر للمبتدأ المقدر وهذه الجملة الجميلة المهمة المهيبة بدلالتها على استيلاء الرحمٰن على العرش وما تحته وأمثالها من قوله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ و﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وغيرهما فيها للمفسرين رأيان:

أحدهما: أنها مجازات مستعملة في العرف في معانيها المقصودة من استيلاء الباري ووجود قدرة البسط والقبض له، وإحاطة علمه بسائر المعلومات إلى غير ذلك فإن الله تكلم بها مع الناس العقلاء ولهم عرف معروف في المراد بها.

والثاني: أنها باقية على معانيها الحقيقية، والإيمان بها واجبٌ لكن تفويض المراد إلى خالق العباد وتجريدها عن لوازمها الموجبة للجسمية والتمكن في المكان وغيرهما، بدليل الآيات المحكمات والأخبار الناطقة بأنه تعالى لا يحويه زمان ولا مكان وليس له أجزاء واحتياج إليها، وإلا فكل عاقل يؤمن بأن العرش وما سواه حادث فهل كان الله تعالى قبل خلق العرش في مكان آخر ثم تحول عنه إلى العرش؟ وإذا هُوَ في السماء فأين كان قبل خلق السماء؟ ثم هو في سماءٍ أي قطرٍ من الأقطار؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحَدٌ، وهو غني عن العالم والعالمين. فالحق أنها مجازات لمرادات مخصوصة للقرائن العقلية المحيطة بالموضوع، وإذا لم تحمل عليها فلا بد أن يؤمن بها مع تنزيه الباري عن كل ما يناسب الممكنات الخاصة ويؤيد ذلك الآياتُ التالية لها من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

فإن الآية الأولى دليل على أن جميع محتويات السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات الكائنة فيه التي لا يعلمها إلا الله.. مختصة بالله تعالى، ومن آثار قدرته وتجليات تكوينه، وكلها كقطرة في بحر علومه اللامتناهية. وذكر ما تحت الثرى لخفائه على العيونِ الناظرة. والمراد به ما تحت الطبقة الأخيرة من طبقات الأرض يريد أن ما اختفى على الورى يَجْلُو عَلَى الله ولَوْ تحت الثرى.

والآية الثانية تدل على أن علمه تعالى محيط بكل شيء بعد بيان إحاطة قدرته به وأن الجهر بالقول والإسرار به متساويان عنده فلا يزيده الجهر به علماً ولا

الإسرارُ به يقتضي كتماً. كما يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلا يخفى عليه ما يحدث وراء الحجب والستور.

والآية الثالثة تدل على أن المنزلَ للقرآن الخالق للأكوان ذاتٌ واحد معلمٌ باسم الجلالة الله أي هو الله، ولا إلٰه إلاّهو أي لا معبود بحق سواه فإن ما سواه هو الذي سواه، ولولا هو ما كان له ذاته ولا ما تهواه، وأن له الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسامي لدلالتها على تنزيه المسمى بها من كل نقصان يتصوره الإنسان. وتلك الأسامي، وإن كانت متعددة في التعبير المعقول وتحرير المدلول، لكنها كلها ما عدا اسم الذات تدل على صفات تليق بوحدة الذات وعلى وحدته يتحقق الفرق بين الواجب والممكن الوجود.

عباراتنا شتى وحُسْنُكَ واحِدُ وكلٌّ على شيءٍ من الحسن واجِدُ

وكل من هذه الآيات تعبير عن وجوب وجوده وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وسمعه وبصره، وأنه ليس من نوع الأعيان ولا مما يحتويه الذكر والبيان فسبحانه من إلٰهٍ ينطق كل موجود بأنه واجب الوجود وأن ما سواه مخلوق وبه جاء إلى عالم الشهود وكل من أفراد تلك الموجودات مسخر لنوع من المقصود وخادم حسب إرادة الملك المعبود، فلا إلٰه غيرُه ولا معبود سواه ومن أراد الفوز بالسعادة في دنياه وأخراه فليلزم إيمانه به وكماله ثم يلتزم تقواه.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ جملة مسوقة لبيان أنباء موسى وإرساله إلى أطغى طاغ وأعصى عاص في عصره. وكان يخاف منه خوفاً شديداً، ومع ذلك فقد أطاع وذهب إليه وبلغه ما أمره به ربه، وأنت من أولئك الرسل وعليك التأسي بهم في تحمل ما ينالك من أذى الكفار المتمردين. والإستفهام

للتقرير وقيل لا إستفهام حقيقة. وهل بمعنى قد. وقيل: الإستفهام إنكاري، ومعناه: إنه لم يأتك إلى الآن نبأ موسى بهذا التفصيل المذكور هنا، والحديث بمعنى الخبر، ويصدق على القليل والكثير، ويجمع على أحاديث بغير القياس. وقال الفراء: نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث. وقال الراغب: الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظة أو منام، ويكون مصدراً بمعنى التكلم، وعليه يتعلق به الظرف أي ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ في وقت الحاجة إليها، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي أقيموا مكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه، فقبس بمعنى مقبوس وهو المراد بالشهاب القبس وبالجذوة في آية أخرى، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق. رُوي أن موسى عليه السلام استأذنَ شعيباً في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه، وقد طالت مدةُ جنايته بمصر ورجا خفاء أمره، فأذِن له وكان عليه السلام رجلاً غيوراً، فخرج بأهله ولم يصحب رفقة لئلا ترى امرأته، وكانت على أتان، وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، ومعه غنم له، وأخذَ عليه السلام على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام، فلما وافى وادِيَ طُوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولدت زوجته له ولداً في ليلة مظلمة شاتئة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح فصلد زَنْدُهُ، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسارِ الطريق من جانب الطور، فقال لأهله ما قال. ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النارَ التي آنَسَها وكانت كما قال ابن عباس في شجرة عناب خضرةٍ يانعة حتى وقف منها قريباً ينظر إليها وبينما هو كذلك إذ ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي أزِلْهما من رجليك ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب الأمر بذلك من شَرَف البقعة وقدسها. وروي أنه عليه السلام حين أُمِرَ خَلَعَهما وألقاهما وراءَ الوادي. وطوى علم لذلك الوادي، ومن نونه صرفه باعتبار المكان، ومن لم ينونه جَعَله غيرَ مُنصرف للعلمية والتأنيث باعتبار البقعة.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ويُقال لك ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ وحدي ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ أي لتذكرني بإقامتها وقوله ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي إن الساعة كائنة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ولا أقول آتيةٌ في ذلك

الوقت المعين بالذات حتى يبقى قدر الإيمان بالغيب وإتيانها المحقق ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ فيه فمن عبدني وأقام الصلاة لذكري إستحق الجزاء بالخير في جنتي، ومن خالف ذلك خولف في حقه على حسب مخالفته وابتعاده عن رحمتي ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ قيل الضميران راجعان للصلاة، وقيل: ضمير عنها راجع إلى الصلاة، وضمير بها إلى الساعة أي فلا يمنعك عن العبادة وإقامة الصلاة من لا يؤمن بالساعة وحلول يوم الجزاء ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فتهلك، فإن الغفلة عن الساعة وما فيها من الجزاء مقتض للشقاء والهلاك الأبدي أعاذنا الله عنه.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ شروعٌ في بيانِ ما كلفه به من الأمور المتعلقة بخلعة النبوة والرسالة، وتقريرٌ له بأن ما عنده لا يزيد على كونه عصاً من الخشب، وأنما يراه منه بعدُ فإنما هو من خوارق العادة التي يخلقها خالق الكائنات والنواميس المعتادة وغير المعتادة فيها حتى يطمئن قلباً في تبليغ رسالته. أي وما حقيقة تلك العصا التي أخذتها بيمينك؟ وما آثارها ومنافعها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ أي حقيقتها خشب من الأخشاب المعلومة، وأما منافعها وعوارضها فهي أني ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ أي أعتمد ﴿عَلَيْهَا﴾ وأتحاملُ في المشي والتخطي الممتاز على الحفراتِ والأنهار ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي أخبطُ بها أوراق الأشجار وأضربها لتسقط على غنمي فتأكلها ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي حاجات أخرى جمع مأرب بمعنى الحاجة، وعُوملَ في وصفه معاملة المفرد فقال أخرى كبشرى، ولم يقل أُخَر جمع أخرى، وذلك في غير الفواصل وفيها أجودُ وأحسن.

وقد روى الإمام أحمد في تعيين هذه المآرب: إنه كان لها شعبتان ومحجنٌ تحتهما، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا أراد كسره لوّاه بالشعبتين، وكان إذا وقع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند الأسفل على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان يرتفع، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها، وكان يقاتِل بها السِّباع عن غَنَمِهِ، وكان إذا شاء عليه السلام ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنائنَهُ ومخلاته وثوبه وزاداً كان معه.

ولما ذكر له تعالى ما علمه منها قال تعالى له: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لترى مِن شأنها ما ترى ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشي وتنتقل بسرعة فخاف منها موسى ﴿فَقَالَ﴾ تعالى له ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ حتى يكون عودها إليها معجزة أخرى مضافة إلى الأولى وخوف الرسل على الطبيعة الأنسية والغريزة النفسية وعدمه على العلم بالهيبة القدسية، فإنها إذا وَرَدت على النفس منعت الخوفَ، ولا تخاف إلا من جانب القدس وقوله تعالى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ والجناح: اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد. وهذه الفقرة إضافة معجزة أُخرى إلى ما علمه سابقاً توثيقاً له وتطميناً وتأميناً لنفسه من جانب قدسه. أي واضمم يدك إلى إبطك أو إلى جانبك تخرج بيضاء منيرة مُشرقة كأنها مشعلة مصباح ترى بها ما أمامكَ وذلك حاصل من غير سوء اعتراها من برص أو علّة أخرى حال كون هذه الظاهرة آيةً أخرى من الآيات التي أُوتيتها ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أي آتيناكها لنريك بعض آياتنا التي هي كُبريات الآياتِ لأن خلقَ الحياة في غصن يابسٍ مِن نَباتٍ ثم عوده إلى حالة اليبس والممات وإشعال مادة ليس فيها الضوء ذاتاً ولا ربْطٌ بما فيه ذلك معجزة أيةُ معجزة!

ولما اعْدَدتُ لك هذهِ المُعداتِ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك الأقباط ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحد في التكبر والطغيان، فإن الإنسان يمكن أن يدعي ما يصلُ إليه من العقل والعلم والإمارة والأفكار، ولكن لا يمكن أن يصل إلى الربوبية وقهر السماوات والأرض وما فيها. ثم إن الإنسان العاقل المعتدل هو الذي يعيش مع العقل بالأمان ويعامل به مع بني الإنسان كما يحب أن يعامل به في دنياه وهو المعبر عنه بأهل الوجدان، وإذا وصلَ إلى درجة التغابي عن تعذيب الناس وقتل الأبرياءِ وهتك الأعراض ونهب الأموال فقد ذهب إلى جانب اليبس والشقاء وجحد إنسانيته وكرامته الإجتماعية، وسنة الله تعالى جرت على أن إنساناً كذلك لا يفوته

القضاء المبرم الذي يأتيه ليلاً أو نهاراً سرّاً أو جهاراً، كما أن سنة الله جرت بإسماعِهِ المواعظ الزواجر لعله يرجع إلى الاعتدال.

ولما علم موسى عليه السلام بأمره تعالى وأنه مأمور بالقيام بهذا الأمر الخطير الذي يحتاج في القيام به إلى حلم وصبر وقابلية تامة دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي وسعه بحيث يسع ما يرد عليه من الأذى والكلام المؤلم من فرعون وأتباعه ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦﴾ وسهل هذا الأمر الخطير الذي لا يقدم عليه إلا أصحاب الهمم والعزائم المتينة المؤيدة منك. وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة منه تعالى كما وهبه لموسى وأسكن قلبه بحيث لم يضطرب بمواجهة فرعون ومجابهته ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ روي أنه كان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره. وذلك أنّ فرعون حمله يوماً فأخذَ خِصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر فتطير منه، فدعا بالسياف. فقالت آسيةُ بِنتُ مزاحِم امرأته، وكانت تُحِبُّ موسى عليه السلام، إنما هو صبيّ لا يفرق بين الياقوت والجمر فأحضروا لديه وأراد أن يمد يده إلى الياقوت لحسنه، فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانُه. وفي ذلك إرهاصٌ له عليه السلام حيث لم تُحرق النار يدَه، وحِكمةٌ حيث أن يده كانت آلة لإهانة فرعون بجر لحيته.

وقوله ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ جواب للطلب وبإجابته يحصل مزيد من الإطمئنان له في قبول دعواته في مهماته، ومقصوده أن تزول تلك العُقدة المانعة من سلاسة أقواله ليفهم الناس كلامه في بيان مرامه، وقد أجاب ربه بالإستجابة كما سيظهر ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ أي واجعله لي معاوناً في تحمل أعباءِ الرسالة وتبليغها. والوزير من الوزر بمعنى الحمل الثقيل، أي مساعداً يحمل معي بعض أعبائي العسيرة. وقوله ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان إذا لم يشترط التوافق في التعريف والتنكير، وإلا فبدل منه. وقوله ﴿أَخِي﴾ عطف بيان لهارون لدفع توهم إرادة شخص آخر مسمى بذلك الاسم. وقوله ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ أي اشدد به قوتي، بيان لحاجته إلى المعونة في الأمر وقوله ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ رجاء لإعطائه شرف الرسالة. وقوله تعالى ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة. وقوله ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ أي عالماً بأحوالنا وبأن ما دعوتك به من مصالحنا غايةٌ في إظهار عجزه وضعفه عن أداء ما كلف به بدونِ عون منه ومزيد رعاية وعناية إلهية، وهو كذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ إعلانٌ لاستجابة طلباتِ موسى عليه السلام ورغباتهِ والسؤل بمعنى المسؤول كالخبز بمعنى المخبوز، أي قد أعطيت كل ما طَلبته مني من: شرح الصدر، وتيسر الأمر، وإمدادك بأخيك هارون عليه السلام في حمل أعباء الرسالة، وإشراكه لك في ذلك الأمر ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ في وقتِ غير هذا الوقت، يعني أن إجابة طلبك هنا كانت منة منا عليك كما كانت لنا منة أخرى من غير طلب وهي ما تحققت ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ أي ألهمنا أمك بأمر مهم جداً عندما خافت عليك من زبانية فرعون. وتفسير الإيحاء: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي ضعي ولدك موسى في صندوق ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي ألقيه في نهر نيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي بالشاطىء وهو الجانب الخالي من الماء ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير العدو للمبالغة في عداوته. وفي سوق صيغة الأمر للبحر وهو غير فاهم بناء على تشبيهه بعاقل فاهِم مطيع للأوامر، ففي اليم إستعارة بالكناية وتوجيه الأمر إليه تخييل وفيه إشارة إلى أن اليم سيطيعني في إنجائك وإغراق عدوك، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ معطوف على قوله أوحيت إلى أمك فتكون واقعة في حيز بيان المنة المراد بها الجنس.

روي أن أمه عليه السلام حين أُوحي إليها ما أُوحي جَعَلته في تابُوتٍ، من خشب، وسدت خروقه، وفرَشَت فيه نِطْعاً، وقيرَتْه، وألْقَته في اليم، فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل. فأمر به ففتح، فإذا صبيٌّ أصْبحُ الناسِ وجْهاً، فأَحَبّه هُو وامْرأته حبّاً شديداً، وكان بحيث إذا رآه أيُّ إنسانٍ أحَبَّهُ.

وقوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ متعلق بقوله ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ على أنه عطفٌ على مقدر

أي ليتعطف عليك ولتصنعَ عَلى عيني. أي ولِيفْعل بك الصنيعة والإحسانَ في رعايتي لك وقوله ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لتصنع أي تمشي أختك إلى بيتِ فرعون ﴿فَتَقُولُ﴾ لأهله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؟ أي يضمه إلى نفسه ويخدمه بالإرضاع والحضانة والمُلاحظة. فلبى أهلُ فرعون كلامها ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ من فراقك وما يأتي عليك من العوارض ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي المتكاونِ معَ الإسرائيلي المستغيث بموسى واسمه قانون ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الناشيء من قتله أي مخافة الله وعقابه على القتل، ومخافة آل فرعون من قتله في قصاصه. ونجاته من الأول بالمغفرة حين قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي. ومن الثاني بالمُهاجرة من مِصْرَ إلى مدْين ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء لأن فتوناً مصدر كجلوس ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بيان لنجاته باعتبار المهاجرة، أي فهاجرتَ من مصر إلى مدين وبقيتَ هناك على الهناء في أهل مدين، وتزوجت ﴿ثُمَّ﴾ ألقيت إلى قلبك حبّ لقاءِ الأهل فـ﴿جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي قررته ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ وتقدير أي في الوقت الذي عينته لك ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي وإنما عاملتك بهذه المعاملة الجميلة والوجوه المناسبة لأني خَلقتكَ لِتكونَ من خواصي وأحبائي شبهه فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ إستئناف سيق لبيان المقصود من الإصطناع لنفسه جل جلاله، يعني ما دام الأمر كذلك فاذهب أنت يا موسى وأخوك هارون مع آياتي البيّنات ومعجزاتي القاهرات الباهرات مِن: العصا، واليد البيضاء، وإجابة باقي المطالب... أو مع سائر الآيات التي ستحتاجون إليها في ترويج أمركم وغلبتكم على المقصود ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي ولا تفترا ولا تهنا في ذكري ونشر توحيدي وتمجيدي ودعوة الناس إلى شريعتي. وجمع هارون مع موسى عليه السلام

في الخطاب مع غيبته للتغليب باعتبار أن نبوته ورسالته لما كانتا باقتراح سيدنا موسى فكأنه حاضر معه أبداً ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ومن سنتنا أنه كلما طغى جبار في الأرض وتجاوز الحدّ أن نكسِرَ شُهرته ونقطع نصرته ونبيدَ أسرته، لاختصاصنا بالكبرياء والتزامنا معونة الضعفاء، لكنه رجل جبار عنيد لا يقبلُ دماغُه سماعَ الكلام الشديد ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ مناسباً ولا تعنّفاه في قولكما وارفقا بِهِ في الدعاء حتى تكونَ الحجة لكما في انتقامنا منه و﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ويتأمل في حاله ومستقبله فيذعِنَ للحق ويُؤمِنَ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أن يكون كما تصفانه له فيتوجه أيضاً إلى الإيمان فإنه ينشأ من العقل والتفكر والتذكر، أو من خوف العقاب من الرب المتعالي المصيطر. وهكذا شأن العباد المدعوين إلى الإيمان إما يستعملون العقل والتذكر حتى يتبصروا، أو يخافون من الابتلاء فينقادون. وبعد ذلك يتدرجون بالمهلة حتى يصير الإيمان المشوب بالخوف إيماناً واقعياً متسرباً إلى القلب والمشاعر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ بإسناد القول إليهما يفيد أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى أخاه موسى عليه السلام فجاء إليه. وقيل سمع بإقباله فأتى إليه. وعلى كل حال فقالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ويعجل بإصدار الأمر بعقوبتنا، ولا يصبر إلى إتمام كلامنا معه في الدعوة، أو أن يطغى في مقام قدسك ويتجاوز بالقول بما لا يناسب ذات الحق أو أن يطغى ويأمر بإبادة جميع الإسرائيليين الموجودين في مصر. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ من ذلك ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالحفظ والصيانة عما يضركم أو يضر أهلكم ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامَ الطرفين ﴿وَأَرَىٰ﴾ كليهما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي خلقك، أرسلنا إليك للتفاهم معك في الإيمان بربوبيته والإذعان لحكمه بالعدل والإحسان، فإن كنت تقبل ذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأطلقهم من الأسر والسجن حتى يعودوا إلى أرض الشام، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بإبقائهم على ما كانوا عليه من الأسر والحبس والتحقير والتسخير للأعمال، ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ شاهدةٍ على رسالتنا ﴿وَالسَّلَٰمُ﴾ من العذاب والردى ﴿عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ﴾ الحق والهدى بتصديق ما ألقي إليه من الرسل فإذا أطعتَ سلِمْتَ مِن كل عذاب فـ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآياته البينات ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن قبولها.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ معناه قال فرعون بعد سماع كلامهما متكبراً عن إسناد الرب إليه: فإذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبرني من ربكما الذي أرسلكما سائلاً عن شخصيته وصفته المميزة له؟ فـ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ والخلق مصدر بمعنى الإيجاد والإبداع أي أعطى كُلَّ فرد يسمى شيئاً من الموجودات خلقه وإبداعه وإخراجه من العدم إلى الوجود، أي ربنا الله الذي هو الموجِدُ لكلّ موجود، أو هو بمعنى المخلوق وإضافته إلى الشيء للملابسة والإختصاص. أي أعطى كلّ فرد من أفراد الموجودات من الأعيان وأجزائها وأعراضها الوصف المخلوق الذي يناسبه بحسب ما خُلِق له ويَطْلُبُهُ لسانُ استعداده فأعطى الإنسانَ من حيث هو إنسان تصويره وتقويمه، ورفعَ رأسه إلى السماء وجعل رجليه إلى الأرض، ويديه إلى الجانبين وخلق أجزاءه من الرأس، والوجه، والسمع، والبصر واللسان، والحلق، والحلقوم، والصدر، وما فيه، وما دونه، ما يناسبه ويوافقه. أي خلقَ المخلوقات على أحكم وجه وأتقنه على ما أراده الباري من تخصيصه بحصةٍ زائدة عالية أو سافلة أو مناسبة ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وأرشد ذلك الموجود إذا كان من ذوي العقل المتفكر أو الحواس إلى معرفة ربه أو العلم بحاجياته وما يتطلبه، أو هداه إذا كان عاقلاً إلى الإستدلال على وجود خالقه أو على وسائل تطوره.

وأما سؤاله عنه بكلمة ما كما في سورة الشعراء فكان بعد السؤال الأول لأنه لما وصفه بتلك الأوصاف المختصة المفيدة لهويته الذهنية طلب ماهيته، أو كان بينهما لقاءات فمرة يسأل عن هذا وأخرى عن ذلك ﴿قَالَ﴾ فإذا كان ربكما موصوفاً بما قلت، وهو يستدعي أن يعبده الإنسان جيلاً بعد جيل ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾؟ التي عصت وتكبرت ولم تهتم بعبادته وإطاعته ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وهي من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى الذي ثبتَ وتحقق معلومه ﴿فِي

كِتَٰبٍ﴾ بمعنى الصفة الذاتية الكاشفة للمعلومات أزلاً وأبداً أو بمعنى اللوح المحفوظ المحتوي على كل ملحوظ و﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ ولا يخطىء أي شيء في مكانه فيعلمه علماً يقيناً ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ذلك المعلوم، فمعلومه معلومه أزلاً وأبداً ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرون فيه ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي وجعل لكم فيها سبلاً أي طرقاً تعبرون عليها لكسب المعايش والمصالح من كافة الوجوه ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ جمع شتيت أي متفرقة ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي قائلاً لكم على لسان رسوله كلوا مما تجدونه أي تحصلون عليها، وارعوا أنعامكم الإبل والبقر والغنم منها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التصرف والخلق والإبداع ومتعلقاتها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بينات وبراهين ساطعات ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأصحاب العقول على وجوب وجود ذلك الرب الذي سألتنا عنهُ. والنُّهى بضم النون المشددة وفتح الهاء جمع نهيةٍ بمعنى العقل لأنه ينهى عما لا خير فيه ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قائلاً: منها خلقناكم في ضمن خلق أبيكم آدمَ ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بجمع أجزائكم وتأليفها على الهيئة التي نُريدها ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الموجبة للإنتباه والرجوع إلى الحق مدة بقاء موسى بينهم قبل أمرنا بخروجه ببني إسرائيل كلها وهي الآيات التسع المختصة بموسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى من فرط عناده ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمانَ والطاعة لقوة عتوّه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ
مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ
مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ
(٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ
خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣)
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ
مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

﴿ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ إستئناف لكيفية مخاصمته لموسى ومعاندته معه فقال له مستنكراً ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وديارنا بسحرك المُذهِش لعقول الناس، وتحل محلنا في الإستيلاء عليها ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؟ فإنا نعلم أن لا وسيلة لك إلى ذلك إلا سحرك، وأن عندنا سحرة ماهرين في ذلك الفن ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فإن كنتَ صاحبَ صدق في المقابلة والمعارضة ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي وعداً ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي في مكان للإجتماع متساوين في الوصول إليه. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ أي أعِدُكم بالإجتماع معكم ومع سحرتكم وزمانُ وعدكم ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ الرسمية المقررة في كل سنة يتزينون فيه ويزينون أسواقهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على الزينة أي ويومُ حَشْرِ الناس واجتماعهم في وقت الضحى وارتفاع الشمس إلى ربع النهار، وعند ذلك يمكن اجتماع الناس على اختلاف أصنافهم وأفرادهم في المحل المعهود.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي انصرفَ عن المجلس، أو تولى الأمر بنفسه مهتمّاً به ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي أصحاب كيده مِن السحرة وما يحتاجون إليه ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ في الموعد المقرر، وكذلك أتى موسى عليه السلام. واجتمع السحرةُ والمتفرجون على الواقعة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ على ما هو شأن الأنبياء والمرسلين والناصحين المخلصين للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تقولوا لما يظهر على يَدَيَّ مِن المعجزات أنها سحر، أو لما يظهر منكم أنه مما يعارَضُ به آياتُ اللّهِ المخلوقةُ لتأييد رُسُله ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي فيستأصِلكُم ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائلٍ مُبيدٍ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ على الله تعالى أي إنسانٍ كانَ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ أي السحرة ﴿أَمْرَهُم﴾ أي في أمرهم الذي أريد منهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أطراف الكلام وتشاوروا ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ وبالغوا في إخفاءِ الكلام حتى لا تتسرب أسرارهم إلى موسى أو أخبار تنازعهم وتخاذلهم إلى فرعونَ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بطريق الإسرار ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وإن مخففة من المثقلة وهذان مبتدأ واللام لام الفرق وساحران خبر ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي أرض مصر بالغلبة والإستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي يدهشُ عقولَ الناس ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ مؤنث الأمثل، أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب في معيشة الدنيا وإدارة أهلها وحفظ البلاد والعباد من الأعداء. ﴿فَأَجْمِعُواْ

كَيْدَكُمْ﴾ الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر مبنياً على عمل السحر لغاية مادية وهي إخراجكم من أرضكم واستيلاؤهم عليكم ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ وأهله واجعلوه مُجْمَعاً عليه بحيثُ لا يتخلف عنه منكم أحَدٌ ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ مصطفين فإن ذلك أخوفُ للناظرين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ من طلب العلو وسعى له، أو من قد علا وغلبَ على استعمال المزيد بمعنى المجرد.

ولما أن تم الشور وعزموا على مُباشرة الأمر ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ جهازَ عملِك أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾ نحن ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غير مكترثٍ بما يعملون: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أولاً كُلَّ ما تلقُونه ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ أجْهِزَتهم السحرية ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ المُلْقاةُ في الميدان ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى تخييلا ناشئاً ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾ حيايا ﴿تَسْعَىٰ﴾ والسر أنهم موهوا تلك المواد بالزئبق فَلَمّا ضَربَتْها الشمسُ تدفأت وتحركت واهتزت في عين موسى وخيل إليه أنها حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي فأخفى موسى خوفاً منها فأوحينا إليه ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ مما توهمت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في ذلك العصر على سحرة مصر فإنهم على باطل وأنت على الحق، وإذا جاء الحق زهق الباطل وكان زهوقاً ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ أي وألق عصاك التي تهتم بها كأنه نقدٌ في يمينك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ أي تبتلع ما صنعوه ﴿وَمُوسَىٰ﴾ أي حيث كانَ وأينَ أقبل.

توهم بعضُ الناس من قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أن السحر ليس بشيء، ولا يفيد شيئاً واقعياً. ولكن ذلك توهم باطل، لأن لا شيئيته إما من حيث العمل وإما من حيث الغاية، وكلاهما موجود واقعي لأن الأسباب كيفما كانت فهي أمور واقعية كحبال السحرة وعصيهم، وتمويهها بالزئبق وغيرها مما فعلوا، والناتج كان تخييلاً لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلقاءً في خياله أنه تضره حتى خاف منها، ولذلك نهاه ربه بقوله ﴿لَا تَخَفْ﴾ فالسحر علوم وأعمال تنتج نتائج كما قال تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ غيرَ أن هذا العمل عمل مذموم شرعاً لابتنائه على تعلم مقدمات مذمومة ومزاولة أشياء غير مشروعة، فهي حيلٌ ودسائس وأمور مستنكرة تُباشر للوصول إلى غايات فاسدة غير مشروعة، ولذلك نهت عنه الشريعة السمحة فهو في بعض الصور كاغتيال إنسان بريء بأعمال منكرة بذيئة وفي بعض الصور تنتج أقبح منه أو ما هو أدون كخدْع في أخذ شيء بسيط منه. ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا أخذتم الساحِر فاقتلوه**» وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ

حَيْثُ أَتَىٰ﴾ المقصود الفلاح والظفر في مقابلة الحق كسحر السحرة في مقابل موسى عليه السلام، أو الفلاح في الآخرة فإن ثوابها لمن آمن بالله وعمل صالحاً واستقام عليه.

ولما أمرَ اللَّهُ تعالى موسى بإلقاء ما في يمينه ألقاه ولَقَفَ جميعَ ما ألقاه السحرة وعلموا أن ما بيد موسى معجزة ربانية لا عملٌ مفتعلٌ من الساحر، فأخذتهم هيبةٌ رحمانية قدسية غلبت على ما عندهم من الكبرياء النفسية ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ والملقي هُو الله بهيبته الخارقة للطاقات، والسجود سجود إيمان بعظمته في المعجزة الخارقة للنواميس الطبيعية و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ودخلوا في سلك عباد الله المؤمنين به وبرسله وبما أتى إلى البشر من سُبُلِهِ.

ولما علم فرعون بما جرى ضاقت عليه السماء والأرض إلى ما تحت الثرى حيث غلب صاحبُ الحق على باطله وطالب الآجلِ على عاجله، ولا سيما أن السحرة سخروا به ولم يستأذنوه صورةً، وهذا الأمر يخدش كيانه وينبش بنيانه فقال:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ أي قال فرعون للسحرة مهدداً لهم ومتوعداً إياهم: آمنتم لموسى قبل أن تطلبوا الإجازة مني وآذَنَ لكم في هذا الأمر الخطير؟ وهذا إخبار على سبيل الإستنكار. وقد قرأ الأكثر آآمنتم على الإستفهام الإنكاري ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهو منكم وأنتم منه، وتبين أنكم قد تآمرتم عليّ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي

اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوعها تصليباً مشدداً لا تنقطع أعضاؤكم عنها ومستمراً حتى تتمزقوا عليها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أي والله لتعلمن عند ذلك ﴿أَيُّنَا﴾ أي أنا أو موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ سيطرة وعتاباً. يريد أن موسى خوفكم على مخالفتكم بالتعذيب ولذا كنتم أطعتموه، وأنا أهددكم بالتصليب وسيظهر لكم تفاوت تعذيب كل من الجانبين لكم.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ قالوا مُجيبين لفرعون على تهديده ووعيده غير مكترثين به: لن تؤثرك ولن نختارك بالإيمان والإنقياد على ما جاءنا من الله رب العباد من البينات الواضحات أي المعجزات التي تقهر الألباب وتذعن النفس من هيبتها لِرب الأرباب ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي ولن نؤثرك على الإله الذي خلقنا من العدم إلى الوجود ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فاحكم في حقنا بما أنت حاكم به ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وما لنا رغبة في البقاء فيها ولا رهبة من عذابها ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الآخرة ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي وليغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر في مقابل من أرسله الله بالحق لإرشاد الخلق ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ في حد ذاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ ذاتاً وأدوم جزاء ثواباً أو عقاباً ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيبة هنيئة ينتفع بها ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ به عز وجل وبرسوله ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي المنازل الرفيعة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بيانٌ لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه والمرادُ أنه لما ظهر أمر موسى وغلب معنوياً على فرعون وقومه واستمر زماناً على ذلك، وأراد أن يبطش فرعون به وبأتباعه ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي ببني إسرائيل الذين اختصوا بعنوان عبوديتي صابرين على ما ابتلوا به من فرعون حتى لا يضربهم فرعون ولا يدمرهم واذهب بهم إلى أن تصل إلى البحر وإذا وصلت ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بعصاك، والأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقاً ﴿يَبَسًا﴾ أي يابساً لا ماء فيه ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أن يغرقكم البحر من أمامكم.

ولما أوحي إليه ذلك سرى بهم ليلاً ولما اطلع الناس على ذلك ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي تبعهم ومعه جنوده، وقيل اتبع متعد إلى اثنين هنا كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾. والمفعول الثاني جُنوده، والباء سيفُ خطيب أي أتبعهم فرعون جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وفي الآية الكريمة إيجاز حذف أي فنجا موسى ﵇ وقومه، ثم اقتحم فرعونُ وجنوده اليم تعقيباً لهم، فغشيهم من اليم ما غشيهم بحيث لا يعرف مقداره ولا يوصف عيارُه ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ حيث سلك بهم مسلك الكفر والضلال وذهب بهم إلى هذا البحر فغرقهم مع نفسه ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أحداً منهم إلى طريق الرشاد لا في الدنيا ولا في الآخرة. والمراد بذلك التهكم بفرعون في عقيدته الباطلة وأعماله السافلة حيث تسبب في إهلاك نفسه وإهلاك من معه.

ثم بعد إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وأتباعه حيث يسومونكم سوء العذاب يذبحونَ أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ بالنصب صفة للجانب، ليصعد موسى ﵇ ويأخذ أحكام ربه تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ الترنجبين والسلماني حيث كنتم في التيه ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وقلنا لكم على لسان موسى لا تطغوا في ما رزقناكم بالإخلال بشكره أو بغصب حصة الناس وضمها إلى حصتكم ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي سقط من علو الإيمان والشكر والإنصاف إلى درك الكفر وكفران النعمة والإعتساف ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك وسائر المعاصي ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مستقيماً عند الشرع الشريف ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي لزم الهداية والإستقامة عليه. والإهتداء الثبات على الهُدى.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟ بيانٌ لِما جرى بينه وبين الله تعالى من الكلام عند ابتداء موافاة الميقات بموجب المواعدة المذكورة يعني أن الله قرر له أن يأتي إليه في الميقات مع النقباء السبعين. والمراد من التعجيل تقدمه عليهم. أي أيَّ شيء عجل بك عن قومك فتقدمتَ عليهم؟ ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ قال عليه السلام: يا رب إن قومي أولاء الناس الموجودون المباشرون للمجيء معي وإنما تقدمت عليهم وعجلت في الوصول إلى الميقات لترضى أعمالي وسرعة امتثالي في الوصول إلى ساعة الجلال، واعتقدت أن تأخرهم عني بخطى قليلة لا يقدح في أمري بل هو الغاية في إطاعة الله. فسؤال الرب سبحانه وتعالى عن سبب العجلة وتقدمه عليهم في الوصول إلى الطور، والجواب بأنه الإستعجال في الوصول إليك وتحصيل الرضا منك، وإني أطعت أمرك في المجيء معهم إليك، وإنما أخطأت في عدم اعتبار حضورهم معي في زمان واحد، ولم أعلم أن حضورهم معي شرط في الامتثال ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ أي قد أوقعنا قومك في فتنة من بعد مجيئك إلى ميقاتنا.

وفتنتهم أنه أضلهم السامري الصائغ الزائغ في الدين؛ ذلك أنه قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عشرين ليلة: أنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين ليلة مع أيامها أربعين ليلة وليس من موسى عين ولا أثر وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم

من حلي القوم وهو حرام عليكم. فجمعوه وسلموه إليه فأذابه وصبهُ في قالب العجل، فطَلَع عجلاً جسداً له خوار. والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون. ولما سمع موسى ما أفاده ربه استرجع وتأثر، ولكنه ماذا يفعل بعد أن وقعت الواقعة؟ فبقي على الطور واستوفى الأربعين؛ ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وأخذ التوراة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد ذلك ﴿غَضْبَٰنَ﴾ على الذين أحدثوا هذا الحادث المهم ﴿أَسِفًا﴾ على دين الله وضياعه في قومه بعد كل ما تحمله من الأذى لاستخلاصهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ لا سبيل لكم إلى إنكاره وهو إعطاء التوراة وتشريع النظام في الحياة؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي أفطال عليكم زمانُ إنجاز ما وعد به؟ ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يعلم مداه ﴿مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ﴾ أي القوم المستخلفون الواقع فيهم ما وقع لموسى: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ بالثبات على الدين وإيثاره على غيره ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أي باختيارنا واستيلائنا على شؤوننا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ أي أحمالاً ثقيلة ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ الأقباط وهو ما استعرناه منهم من الحلي لرسم الزينة في العيد الرسمي، فأتانا السامري وأضلّنا بكلامه وشوش علينا حساب غيابك، وجعل عدم رجوعه من أثر شؤم تلك المواد المستعارة ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ إليه وصنع لنا أسوأ صنيعة ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي فمثل ذلك القذف الذي قذفناه إليه ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ما وصل إليه مِنا وما كان عنده، فألقاها في النار وصبها في قالب العجل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ حال كونه ﴿جَسَدًا﴾ أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً مصبوباً من ذهب لا رُوح فيه ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ إعتيادي لأنه خلق الله فيه الروح أو خوار اصطناعي بجعل منافذ فيه مصنوعة على أوضاع خاصة تدخل فيها الرياح والنفخات القوية في أوقات خاصة ﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامري ومن معه وتبعه في دجلة: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي فغفل عنه وتركه وذهب يطلبه في الطور. فأنكر عليهم الباري تعالى بقوله ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؟ أي لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد إليهم جواباً لا بنفسه مع مختار القوم ولا من المختار إلى القوم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب إليهم نفعاً.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسى إليهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي ما حصلتم على شيء إلا أن فتنتم به، فإن الحصر المستفاد من إنما

قد يكون بالنسبة إلى الفعل بالقياس إلى مقابله لا بالقيد المذكور بالقياس إلى قيد آخر كأن يراد إنما فتنتم به لا بغيره ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ المنان بالرحمة والفياض بالنعمة الثابت بالقدرة ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ لكم بالثبات على ما ترككم عليه موسى ﴿قَالُواْ﴾ لهارون رداً عليه ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ عليه أي على العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ أي مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ويرشدنا إلى ما هو خير لنا.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي
﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ
لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ
لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾
يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي ما المانع لك إذ رأيت القوم ضلوا سبيلَ الحق بعبادة العجل ولم ينظروا إلى فساد عملهم ذلك أن تتّبعنِ؟ وكلمة لا تستعمل عادة كسيفِ الخطيبِ في خطبة العبادة أي ما منعك عن اتباعي في التمسك الشديد بالنظام ومنع القوم عن الفساد ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟ لك بحسن سياستهم ورعاية شؤونهم ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أي ولا بشعرِ رأسي ولا تَلُمْني على حالي ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إني ما تعاركْتُ ولا تحاملتُ عليهم فوق المعتاد، لأني خشيت من أن تقول لي في نهاية المطاف فرقتَ بين بني إسرائيل، وجعلتهم فرقتين متقابلتين؛ فرقة مطيعة وفرقة عاصية، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تُراعِ قولي في حُسن إدارتهم والعناية بهم.

ولما اعتذر هارون من سكوته وعدم النزاع الزائد معهم وعلم أن أساس الفتنة كان من السامري، وكان رجلاً من عباد البقر وقع في مصر ودخلَ في بني إسرائيل، وامتزج معهم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي ما هو الداعي المهم الذي ساقك ودعاك إلى أن تبتدع هذه الفتنة العظيمة من عبادة العجل؟ ولم ذلك؟ ﴿قَالَ﴾ السامري مجيباً له: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ أي تفطنت لما لم يتفطنوا له واطلعت على ما لم يطلع الناس عليه وهو أني رأيت يوم خروجنا من مصر رجلاً راكباً على فرس وكنت أنظر إلى حوافره كلما وضعها على محل من الأرض ورفعها إخضر وحصل فيه نبات، فعلمت أن في ذلك سر الحياة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من أثر حافر فرس الرسول ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ على الحلي المذاب الذي سبكته في قالب العجل حتى دخلت فيه الحياة ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي زينته وحسنته إليَّ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي أن لك في الحياة نصيباً من المرض الساري إلى المجاور بحيث تقول للناس: لا مساس بيني وبينكم ولا جوار حتى لا تبتلوا بما ابتليت به، وذلك أنه ابتلى بحمى شديدة يصيح من وجعها، وإذا اقترب منه أحد أصيب بها، فتحامى الناس وتحاموه حتى مات ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل لينجزه ألبتة إضافة إلى عقوبتك في الدنيا ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي إلى العجل الذي صرت مقيماً على عبادته مع من معك ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لنذرينه ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ فأنجز ما هدد به، وأحرق العجل حتى صار رماداً، ثم أذرى ونثرَ رماده في النيل إذراء بليغاً بحيث لم تبق منه مادة وأثر.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ تمييز محول عن الفاعل أي وسع وشمل علمه كل شيء مهما كان ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ خطابٌ مع الرسول ﷺ بطريق الوعد المنجز أي مثل ذلك البيان الصادق الصريح السالم نقص عليك من أنباء ما سبق من الوقائع والحوادث التي لها علاقة بالتشريع والتوحيد ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً يذكر ويتلى بمر الأيام محتوياً على القصص المفيدة لأهل الاعتبار والاستبصار، من أقبل عليه أخذ أجراً و﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي لم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي حملاً ثقيلاً من العقوبة ﴿وَسَآءَ﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ذلك ﴿حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل منه باعتبار أنه

مبدؤه، والمراد به الجسم المصور الذي ينفخ فيه الملك المأمور به مرتين: مرة لخراب العالم ونسف الجبال وإعدام الحياة، ومرة أخرى بعدها بمدة أربعين سنة كما روي ذلك للبعث وإعادة الحياة والحشر في العرصات ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ في العيون أو في الأبدان، إذ تزرق الأبدان من مكابدة الشدائد ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتكلمون بخفض الصوت والإخفاء لشدة هول المطلع قائلين: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ من الليالي، يقللون مدة مكثهم في الدنيا لزوال الإدراك التام، أو لهول ما عندهم من الآثام، أو لقلتها بالنسبة إلى ما يرى من طول تلك الأزمان والأيام ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وحقيقة ما يتكلمون عنه ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ وأفضلهم تقريراً وبياناً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ واحداً، والمراد إلا زمناً قليلاً جداً.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ السائلونَ منكرو البعث من قُريش، وقيل: جماعة من ثقيف، وقيل: أناسٌ مِن المؤمنين، أي إنهم يسألونك عن أحوالها في اليوم الموعود، ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها سبحانه وتعالى كالرمل ثم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرقها في الجوّ، فإنْ إحداث الجبال وإعلاءها ونصبها في أماكِنها، وقلعها وتمزيقها وتفريقها إلى أجزاء ترابية ناعمة تنشرها الرياح في الجوّ كلُّ ذلك من الأمور الممكنة السهلة على صاحب القوة القاهِرَة التي لا تبقي ولا تذر ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي فيجعل الجبال المتمزقة إذا وقعت على سطح الأرض ﴿قَاعًا﴾ سهلاً مستوياً مع الأرض، أو أنه إذا مزقها ونشرها في

الجو والتحقت بالهواء بقي محلُّها قاعاً مستوياً من الأرض ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي في مقار الجبال ﴿عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ العوجُ عبارة عن عدم استقامة تدرك بالبصيرة لا بالبصر، والأمت نُتُوٌّ وارتفاع يُدْرك بالعين ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي خَفِيت لتجلي الحق بالهيبة والرهبة على أهل الموقف ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ من المصوتين ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتاً خافتاً يشبه النجوى ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي إلاّ من شافع أذن له الرحمٰن في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي رضي قوله للمشفوع له. أو لا تنفع الشفاعة أحداً من المذنبين إلا مذنباً أذن الرحمٰن في الشفاعة له ورضي قولَ الشافِع لأجلهِ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلماً تمييز محول عن الفاعل، وقيل المراد لا يحيط علمهم بذاته وصفاته ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت وانقادت خضوع العبد الذليل والأسير العاجز لذاته الحي بالذات والقيوم القائم بذاته المقيم للأرض والسماوات ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسِرَ هنالك ﴿مَنْ حَمَلَ﴾ على ذمته ﴿ظُلْمًا﴾ سواء كان على نفسه بالإشراك بربه، أو على غيره بالتعدي على دينه أو نفسه أو أهله أو ماله أو عقله وأحواله. وكل ما ضر بالغير وصدر منه فهو ظلم منه عليه إلا ما كان في وجه مشروع.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مقابل لقوله تعالى ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، أي ومن يعمل من الأعمال ما يعد من الصالحات وهي ما يترتب عليه ثواب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به من الله ورسوله وما جاء به من عند الله ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ من أحد عليه، أما من غير الله تعالى فلأنه لا مجال فيه لأحد هناك وليس المقام مقام الاستعلاء والتعدي، وأما من الله تعالى فلأنه لا يُنسَبُ إليه ظلم ولا يعمل إلا ما يستحقه العبد بمقتضى وعده، وذلك معنى قول المفسرين للظلم بمنع ثواب المستحق بموجبِ الوعد بأن لا يثاب ويُحبط عمله ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ وكسراً له بمنع بعضٍ من ثوابه. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فلا يخاف أنْ يظلم فيزداد في سيئاته، ولا أن يهضم حقه فينقص من حسناته.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ عطف على قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾ أي ومثل إنزال الآيات البينات في شأن الساعة والبعث والحشر ومخاوف الناس ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغتهم ولهجتهم مفهوماً واضحاً ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي غيرنا وجوه الوعيد من الوعيد على الكفر إلى الوعيد على ما دونه من

المعاصي والسيئات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والمعاصي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي عظة واعتباراً مؤدياً إلى التقوى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي فتبارك وتعالى الواجبُ الوجودِ المصيطرُ على العالم أن يكون في إنزاله للكتاب وإرساله للرسول شيء غير محتوٍ على الحكم والمصالح، ذلك لأنه الملك الحق الثابت ذاته بذاته، وذاتٌ شأنهُ ذلك لا يصدر منه إلا ما فيه الحكم والمصالح بالنسبة إلى برياته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي وإذ تنبهت على عظمة ذاته وحكم آياته وحسن تصرفه في برياته فاعلم أن الوحي المنزل عليك صدر بوجه حق متقنٍ حتى تسمعه وتفهمه وتعيه وتبلغه للمكلفين، وذلك مقدر من الله ومقرر، فلا تعجل بقراءة كلمات القرآن من قبل أن يقضى ويتم من جانب جبريل الأمين وحيه إليك، تمهل وتريث حتى تأتيك الجملة بتمامها فتقرأها وراء قراءته، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ لأنه كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام القرآن يتبعه عند التلفظ بكل حرف وكل كلمه مخافة أن يصعد الملك من حيث نزل ويفوت عليه حفظ الكلمات من الآيات الكريمة، فنُبّه على ذلك وأمر بالتريث والتمهل، ﴿وَقُل﴾ في نفسك عند نزول القرآن، أو بلسانك في سائر الأزمان ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ بألفاظ القرآن ومبانيه، وفهماً بمعاني القرآن ومغانيه[1]. أو زدني علماً بما ينفعني علمه في عالم الوجود إلى وقت الحضور ولقائك في اليوم الموعود، فإن لله سبحانه كلمات ومعلومات وكل ذلك مما يمكن أن يلقى إلى رسله في البريات، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

(١) مغاني: جمع مغنى بمعنى المنزل والمراد الهدف.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ لما نبه الله سبحانه وتعالى حبيبه على التمهل والتؤدة في أخذ القرآن من جبريل عليه السلام وأن العزم والقوة على الضبط في الأمور متصورة في كل حال ذكره بما جرى من أبي البشر وأن الإنسان بطبيعته مستعجل قليل الصبر والعزم فينبغي لمن يأتي بعده أن يجعل ذلك الوضع الذي جرى عليه درساً ثابتاً لرعاية أموره، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي وصيناه وقررنا له بعض الأمور المهمة من قبل الحادثة من جملتها عدم قربان الشجرة ﴿فَنَسِىَ﴾ وصيتي وعهدي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي تصميماً وثباتاً قوياً على حفظ ما وصي به فوقع في مخالفة ما نهيته عنه فجرى ما جرى ووقع ما وقع. وبيان ما عهدنا إليه يندرج فيما يلي ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود التشريف والإجلال والإحترام ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ عن السجود إستكبارٌ وإستنكاراً لسجود الفاضل بزعمه للمفضول ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيته أبياً عما أمرته به وهو إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ﴾ لأنك كنتَ سبباً لما أتى عليه ﴿وَلِزَوْجِكَ﴾ لأنها من متعلقاتك النافعة لك في الحياة ومعين العدو عدو كعينه ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بحيله ودسائسه ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ وتتعب بمتاعب الدنيا، فإنك إذا بقيت في الجنة بقيت مسعوداً متنعماً ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لأن غذاءك بما تتغذى به من الثمار، ولباسك ما تتستر به من اللباس الساتر كالدراري أحسن أنواع الستار ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي لا تصيبك شمس فتتدفأ بها ولا يصيبك الظمأ والعطش.

قال الشهاب: الآية فيها سرّ بديع من أسرار المعاني، وهو الوصل الخفي وسماه الاتصاف (قطع النظير عن النظير) وهو أنه كان الظاهر أن يقال: لا تجوع فيها ولا تظمأ، ولا تعرى ولا تضحى. ووجه أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها، وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، فكأنه قيل: لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس المورث حرارة الظاهر، فكأنه قيل: لا تؤلمك حرارة الباطن والظاهر. انتهى باختصار.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي فأنهى الشيطان وسوسته إليه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ من إضافة السبب أي على شجرة يكون الأكل من ثمرتها سبباً لخلود آكلها. وقوله ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي ومملوك لا يفنى يعني تلك الشجرة. أو المراد رئاسة على الحياة والمتاع بحيث لا يفنى أمدها. وسيدنا آدم خلق بشراً

مركباً من الصفات والغرائز الإنسانية، وكان قابلاً لنسيان عهد ربه فنسيه، فأكل منها وأكلتْ زوجته حواء معه كما قال تعالى ﴿فَأَكَلَا﴾ أي هو وزوجته ﴿مِنْهَا﴾ أي من الشجرة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي عوراتهما فإنهما قبل الأكل كانا مستورين بغلاف نوريٍّ كالصدف، ولم يكن لهما حاجة إلى الأكل والهضم والدفع، فلما أكلا احتاجا، فكشف اللّهُ عنهما اللباس وظهرت عوراتهما لخروج الخارج ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي فشرعا يلزقان ورقة الجنة بعوراتهما حتى لا تتبين ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود لأن كل آكل فانٍ زائلٌ، أو عن المطلوب الذي يليق بالقصد وهو البقاء في الجنة إلى اللقاء، وهذه الحادثة كانت قبل الإنباء وحدوثها، وإن كان عن نسيان، لكن النسيان لا يخلو عن النقصان لا سيما بالنسبة إلى من خاطبه ربه بالإحسان.

ولما جرى عليه ما جرى ألهمَهُ اللّهُ الإلتجاء والإنابة إليه والتوبة فالتجأ وأناب وتاب. ﴿ثُمَّ﴾ قبل الرب سبحانه وتعالى دُعاءه و﴿اجْتَبَاهُ﴾ واختاره واصطفاه للنبوة والرسالة حَسَبَ علمه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي رجع إليه بالرحمة ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي إلى الثبات على التوبة وإلى النبوة والرسالة وإلى الأبوة للأنبياء والمرسلين.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ إستئناف لبيان ما صدر منه تعالى في حق آدم وحواء لما تاب عليه واجتباه فيقول: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي إنزلا من الجنة إلى الأرض الواقعة في محل أسفل من العرش بدرجات لا تحصى. والخطاب له ولحواء واسكنوا فيها على ما هو المعتاد، وكلوا و اشربوا من رزقها وتناسلوا فيها ليكثر منكما البشر بما في علم الله حال كونكما معهم في كل جيل

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ بسبب التجاذب والتدافع بينكم فيما يجري لأن كل إنسان حائز للقوة النطقية والشهوية والغضبية، وكل يريد مستحباته ويكره مستنكراته ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ أي كتاب وشريعة منزلة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للإهتمام ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ أي كَفَرَ بِهِ وأنكره ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ والضنك الضيق، أي فإن له في الدنيا معيشة وحياة ضيقة شديدة بانحباس الصدر وقلة الصبر ومعاناة كل أمر عسير، فإن المؤمن شاكر على النعم وصابر على النقم، ومع ذلك، فهو وسيع الصدر بما ينتظره من الأجر، وأما الكافر فهو حريص وطموع في السراء للزيادة وبعيد عن الشكر والطاعة والعبادة وبائس وجزوع في الضراء وتضيق عليه الدنيا مع وسعتها ويائس عن الجزاء في الآخرة إذ لا يؤمن بها حتى ينال خيرها ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ﴾ أي من أعرض عنه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ في البصر أو في البصيرة ويؤيد الأول قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ وقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾﴾؟ أي في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابه: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ أي تركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلاً ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ أي تترك في العمى والعذاب جزاء على الحساب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء ﴿نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ بالإنهماك ولم يُؤمن بآيات ربه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي أشد من عذاب الدنيا على الإطلاق وأكثر بقاء منه.

وقوله تعالى ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ إستئناف لبيان التذكير والتفكير في أحوال الأمم الطاغية الباغية السابقة، فإن كل عاقل عالم يعلم بمطالعته أو بمجاورته أحوال من مضى وعصى وما جاء عليه من ربه جزاء له في الدنيا. أي أفلم يهد لهم ولم يبين لهم طريق الهداية ما يستفاد من مضمون قوله تعالى ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ أي من أهل القرون الخالية كقوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن اطلعوا عليه حال كونهم ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾؟ ويتقلبون في ديارهم مشاهدين لآثار عماراتهم البالية التي كانت قوية مستحكمة عالية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأولي العقول الناهية عن مباشرة أعمال تشبه أعمال أولئك الأمم العاصية. ومضمون الآية المذكورة كثرةُ المُهْلكين والمعذبين من الأمم الظالمة التي حقها أن يعتبر بها العقلاء.

ثم استأنف الباري تعالى لبيان حكمة عدم نزول العذاب على الكفار

الموجودين في عصره ﷺ بقوله ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي تقدير تأخير العذاب عنهم ﴿لَكَانَ﴾ العقاب الذي يستحقونه ﴿لِزَامٗا﴾ أي لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة وقوله ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ عطف على ﴿كَلِمَةٞ﴾ أي ولولا كلمة سبقت في تقدير التأخير وأجل مسمى معين لتقرير المصير لجرى عليهم ما يليق بهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فإذا علمت أن جزاء الأعمال لا بد منه، وأن تأخيره بحسب التقدير.. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر وسوء الأدب مع الله تعالى وعلى ما يفعلون ويقولون لك ولأتباعك، ولا تضطرب فإن كلاً من الناس ذاهب إلى يوم جزائه، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ وصل وأنت متلبس بحمده تعالى ربك الذي أوصلك إلى ما وصلته ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي صلاة الفجر ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ أي صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ أي وبعض أوقات الليل وساعاته والمراد صلاة المغرب والعشاء. وآناء أفعال جمع أنى بكسر الهمزة وفتحها مقصوراً جمع على أفعال فصار أأناي، قلبت الهمزة الثانية ألفاً والياء بعد الألف همزة، فصار آناء. ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي الصبح والمغرب وكررهما لمزيد الإعتناء بهما.

ومن المفسرين من قال: إن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة. أما دلالتها على الصلوات فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما. بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل من سنة الوتر والتهجد في الليل وسنة الإشراق والضحى في النهار. وهذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة وأما إذا حملناه على التنزيه والإجلال فالمعنى إشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات علاوة على فعل الصلوات الواجبة والمندوبة لتكون من عداد الذاكرين لله ذكراً كثيراً ولا تكون من الغافلين. وقوله ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ مربوط بقوله ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ

﴿رَبِّكَ﴾ أي وسبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي إلى الزخارف والمغريات التي متعنا بها أصنافاً منهم من الأولاد، والأموال، والمنازل، والملابس، والمطاعم، وغيرها من الرتب. . . ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلٌ من محل به أو منصوب بما يستفاد من متعنا، أي وجعلناه زهرة الحياة الدنيا. وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بمتعنا أي متعناهم بها لنختبرهم فيه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادخر لك في الدنيا من الخدمات الإسلامية ونشر الحق في ربوع العالم وفي الآخرة من اللقاء والرضاء والخلود في النعماء ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به هؤلاء ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه خالد أبدَ الآبدين ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أي من معك في بيتك أو من تبعك في دينك ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي استمر واستقم واثبت عليها في العسر واليسر، وأدِّها حَقَّ الأداء بخشوع، وإذا مر ببالك أن الاشتغال بها ربما يضرّ بأمر المعاش فلا تبال بهذا الهاجس ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وما أعطيناه لا مانع له ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿لِـ﴾ أهل ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لأن من اتقى ما يخالف أحكام مولاه راعاه بالحق وتولاه وهو يتولى الصالحين.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ حكاية لبعض الأقاويل الفارغة التي تعودوها. أي هلا يأتينا بآية أي معجزة أو بجملة منزلة واضحة من ربه تدل على صدقه في دعوى الرسالة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟ رد من جانب الباري سبحانه وتكذيب لهم بأنه أتتهم آيات القرآن الكريم التي هي أم الآيات السماوية وأس المعجزات، وتحتوي على ما كانت في الصحف الأولى، فإنكار إتيانه بما اقترحوه ذنب جديد وكذب عظيم اقترفوه. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ إستئناف لتقرير كونِ القرآن آية بينة حاويةً للمعجزة والحُكم الإلهي

مع أنهم ينكرون ويقترحون الآية البينة، وهم، وإن كانوا وما يزالون منكرين، لكنا أتينا بما تقرر من سنتنا وهو الإنذار قبلَ الإهلاك، وإرسال الرسل لقطع معذرة الكل لأنا لو أهلكناهم بعذاب مستأصل من قبل إنزال القرآن ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مع آيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي أرسلت ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار. ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ﴿كُلٌّ﴾ من الجانبين أنا وأنتم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ لمآل الأمر إلى أن يأتي وقتهُ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ له ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ أي المستوي ومن أصحاب الصراط المنحرف، وستعلمون من ضَلّ من الجانبين ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ منهما.

الجزء السابع عشر
سورة الأنبياء

مكية، وهي مائة واثنتا عشرة آية
نزلت بعد سورة إبراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن
ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾
بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ المراد بالناس فيه المشركون بدلالة ما بعده من الآيات عليه. وآثر الحساب على الساعة لأن غفلتهم منها لغفلتهم منه وخوفهم منها على الغرض لخوفهم منه، والإقترابُ محقق لأن الرسول إحدى آيات الساعة، ولأن كل آت قريب ويقترب آناً بعد آن ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عظيمة وجهالة تامة منه، لأنهم لا يؤمنون بمن يأتي به ويزعمون أن لا كتاب ولا حساب ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن الآياتِ البينات والمعجزات الدالة على أن يكون لهم سؤال وجواب. ومن صفات أولئك الناس الناسين لحقوق الله أنه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ نازل ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ جديد نزوله ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ و﴾ الحال أن ﴿هم يلعبون﴾ ويستهزئون به ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ غافلة عن أنه ذكرٌ نازل لإرشاد الناس إلى الحق وزجرهم عن الباطلِ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي الذين ظلموا أسروا النجوى أو الذين بدل من ضمير الفاعل أو ورد على أن الواو

حرف للجمع لا ضمير له قائلين ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ الرجل المدعي للرسالة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصورة والهيكل بما يدهش عقولكم ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ وتعلمون بمدلوله ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ صاحبه على مثالكم.

وكل هذه العبارات شاهِدَةٌ على أن الناس انغمروا في الغفلة والجهالة بحيث لم يعترفوا بشيء من الفضائل والكمالات العلمية والعملية المكسوبة والموهوبة، وذلك حمق وسفاهة ليس فوقها شيء. ولما قالوا ذلك دافع الله سبحانه وتعالى عن رسوله وحكى من جهة قدسه ما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مجابهتهم من أنه ﴿قَالَ﴾ أي الرسول ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أن الله تعالى يعلم كل قول ناشيء من أي قائل في السماء والأرض ويعلم سركم وجهركم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقال سراً كما يقال جهراً ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع المعلومات الخفية والجلية، وسيعاقبكم في وقته. ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ ولما كان القدح في القرآن الكريم قدحاً فيه ﷺ نقول: إنهم أضربوا عن كون الرسول ساحراً يأتي بعمل متقن وعبارات رقيقة تسيطر على الألباب إلى أنه يغمى عليه وتأتيه صور فاسدة مخلوطة من الزين والشين، وبعد انتباهه وخلاصه عنه يلقيه إلى الناس، أي بل هو مثل نائم بالليل تأتيه رُؤىً مخلوطة من المتقابلات المستحيل جمعها.

ولما كانت هذه الدرجة تقدح الكلام لا المتكلم لأن النائم والمغمى عليه ليس عليهما وزر وانتقلوا إلى أنه كاذب مُفترٍ على الله ويتعمد صنع عبارات تدل على أمور أرضية وسماوية وطبيعية وغيبية ويلقيها إلى الناس لخدعهم والغلبة على عقولهم. ولما كان المفتري قد يكون على صورة معقولة واقعية وهم لا يعترفون بأن كلامه معقول واقعي قالوا إنه شاعر ينظم الكلام بحسب المقام، ولا يهمه أن يكون صحيحاً مطابقاً للأعيان أو فاسداً يروق في البيان، وقالوا بل هو شاعر، وإذا كان صادقاً في دعوى الرسالة وكلامه كلاماً منزلاً من الله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، أو موسى من العصا واليد البيضاء وغيرهما. ولكنهم عموا عن إبصار الأعيان وغفلوا عن إدراك الحقائق فإنهم يعلمون أن السحر فن من الفنون يحصل بالتعلم بمزاولة أعمال دقيقة عن إتقان وأخذٍ عن أستاذ ماهر ولم يروه ﷺ يتغيب عن مكة لتعلم ذلك العلم، ولم يكن في مكة من يعلم ذلك ويعلمه الناس وينشره فلم يكن ساحراً ولا كلامه سحراً، كما علموا أنه ـ

عليه الصلاة والسلام ـ قد يجلس بين الناس ويأتيه الوحي بدون عُروض النوم وإرخاء الأعصاب، وعندما يتلوه على الناس فإذا هو كلام يبين حقائق ماضيةً معلومٌ إجمالها لأهل التواريخ، أو حقائق كونية أرضية أو سماوية يعجز عن فهمها الناس ما عدا العلماء الراسخين، وقد يأتي بأشياء تقع في المستقبل حسب ما ذكره، وقد يذكر ما يتعلق بجزاء الأعمال في عالم الغيب عالم الآخرة التي يؤمن بوجوده كل عاقل منصف يحسب للأعمال الحسنة والسيئة حسابها، ووجود جزائها، فإذا ليس هو براء يرى الطَّيفَ المخلوط، ولا مُغمى عليه تأتيه أشياء غير مضبوطة، وإذا أمعنوا النظر في القرآن الكريم علموا أن مهمات ما فيه هي الدعوة إلى القول بوجود خالق الأرض والسماوات ووحدته وجزاء الأعمال وإلى صلة الأرحام وصيانة النفوس والأموال والعقول والاحترام وكل ذلك مما يعترف به العاقل الذي لم يكذب ولم يفتر على الواقع.

ويبقى القول بمجيء البعث والنشور وعالم الآخرة وهذا هو الذي جاء به عيسى وموسى وسائر الأنبياء والمرسلين، فإذا كانت الشبهة من أهل الكتاب فهم مؤمنون به، وإن كانت من المشركين فليعلموا أنهم قائلون بواجب الوجود، غير أنهم يدعون وجود الشريك له. وعلى كل تقدير فالقول بوجود الواجب تعالى يوافق ويؤيد وجود عالم الآخرة ويحقق الجزاء فتبين أن ما أتى به الرسول ﷺ حق وليس كلاماً مُفترى. وأما دعوى أنه شاعر وكلامه شعر فليعلم المتنبه أنه كلام ساقط لأن الشعر موضوع على تفاعيل وموازين خاصة مباينة لعبارات القرآن الكريم، وأن الأشعار تُصاغ وتحسن بالأكاذيب والمُفْتعلات والأمور اللاغية التابعة للأهواء وكيف ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

وأما اقتراحهم أن يأتي بآية كما أتى بها الأولون فهو اقتراح جاهل أو متجاهل، وذلك: لأن المنصف يعلم أن الرسول ﷺ جاء بأعجبَ مما أتى به الأولون لأن ما أتى به الأولون كان على نسبته إلى الله وخلقه وإيجاده، ولم يكن لهم عمل فيه، وأي صنعٍ لموسى في قلب العصا حيةً وتحويل الحية إلى العصا، وأي عمل كان لعيسى في إحياء الموتى لولا إعادة الله الروح إليهم؟ وأما أعمال الرسول وأخلاقه الخارقة من صدقه في السراء والضراء وصبره على البلواء وشكره على النعماء ودوامه في الجهاد ومجاهدة النفس وطاعة القدس وحلمهِ وحكمه وحكمته وشجاعته وسخائه. . . كل ذلك أشياء تنبع من القوة الإنسانية وتعتبر من

آثاره، وهي من أفضل ما يُنسب إلى شخص يدعى الرسالة من الله. ثم معجزة الإسراء والمعراج والقرآن الكريم الحاكي عن الغيب والشهادة المتحدي لجميع الفصحاء والبلغاء إلى المعارضة مع عجز الكل عنها وما تواتر عنه من سائر الخوارق... كلها معجزات خارقة ومواهب بارقة. واليهود والنصارى يؤمنون بزعمهم بأنبياء بني إسرائيل ورسالتهم ولم يكن لغير موسى وعيسى عليهما السلام تلك المعجزات، فيلزم من قولهم إذا كانوا هم القائلين به أن لا يكونوا رسلاً، والمشركون يعترفون برسالة إسماعيل وإبراهيم ولم يتواتر منهم إحياء الأموات، وأمثال عصا موسى ويده البيضاء. والحق الحقيق بالتصديق أن الرسالة اختيار وهبي من الله الكريم لعبد من عباده متصف بكمال العقل السليم والخلق المستقيم بعثه الله لإرشاد الأنام إلى الاعتراف بالخالق ودينه ويوم الجزاء، وليست المعجزة شرطاً أساسياً للرسالة فضلاً عن نوع خاص منها، فاقتراح ما اقترحوه من العناد وقوله ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾؟ أي ما آمنتْ قبلهم من أهل قرية أهلكناها باقتراح الآياتِ لما جاءتهم أفهم يؤمنون لو جئت بها وهم أعصى منهم وأشقى. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بها للترحم عليهم إذ لو جئتهم بها ما آمنوا واستوجبوا عذابَ الإستئصال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جوابٌ لما زعموه مِن أنّ الرسُول لا بُد أن يكون ملكاً، أو إذا كان بشراً وجبَ أن يرسلَ معَ آياتٍ كُبرى ملموسة محسوسةٍ كما أرسل بها الأولون. وحاصلهُ أن دعواهم ذلك يعارضها مجيء الرسل الأولين من البشر وقد كان بعض منهم له المعجزات وبعضهم لا فيقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام وغيرهما من

القصص والمواعظ على حسب مناسبة ظروف الرسالة ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ والعلم بإرسال الرسل ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم في حد ذاتكم ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي الرسل ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ يعني وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الغذاء وقد كانوا يعتادون النوم والإنتباه، والمرض والشفاء، والبلاء والجفاء، وسائر ما يرِدُ على أمثالهم ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا أبداً ودواماً، أو ماكثين مدة كثيرة تتجاوز العادات المستمرة في الدنيا.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ يعني ولما بلغ الرسل ما أمروا به عارضهم الكافرون وآذوهم فوعدْناهم بالنصر المبين وإهلاك أعدائهم و﴿صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ ونصرناهم عليهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ أي الرسلَ ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي الكافرين المتجاوزين عن الحدود. ثم قال سبحانه وتعالى توبيخاً للكافرين المعرضين عن القرآن ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ مُوجهاً للعقلاء إلى الخير في الدارين وموجباً للسعادة الأبدية و﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي ذكركم في التاريخ العالمي بأن ذلك الكتاب منزل بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك الكتاب من الفوائد العامة وإعلاء قدركم خاصة ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فيه بيان لإهلاك المسرفين. والقصم الكسرُ بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية. يعني وكم كسرنا ومحوْنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ معمورة مغمورة بالرجال والأبطال ﴿كَانَتْ﴾ تلك القرية أي أصحابها ﴿ظَالِمَةً﴾ بسبب كفرهم بآيات الله ومعاداة الرسل ومعاندة المؤمنين ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها وتدميرها بمن فيها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؟ لن يكونوا منهم أو لم يكونوا على دأبهم ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي أهل القرية الظالمة ﴿بَأْسَنَآ﴾ وعقابنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فكم من الأوبئة نزلت عليهم فركض الناس إلى الأطراف خوفاً من الإتلاف؟ وكم من جيوش للأعداء وَرَدت عليهم ففروا وانهزموا إلى البلاد؟ وكم من القحط والغلاء أو الغارة الشعواء، أو السيول الجارفة سالت بهم وفر الباقون إلى أماكن قاصية لتحصيل المعيشة والأرزاق؟ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي فقال لهم الله تعالى بلسان الرسل أو قال لهم الملك كهاتف غيبي أو قال لسانُ حال البلاد المعمورة سابقاً لا تركضوا من المحل ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من النعم واللذائذ الموجبة للبطر ﴿و﴾ إلى ﴿مساكنكم﴾ وقصوركم المُشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما جرى عليكم ونزل بأنفسكم

وأموالكم فتجيبوا السائلين عن علم وتقولوا كل ما جرى علينا كان من نتائج أعمالنا كما قال تعالى.

﴿قَالُوٓاْ﴾ جواباً لسؤال الحال بالحال أو قالوا قبل ذلك لما يئسوا من الخلاص ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي تِلك الجملة ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في منع القيام والدوام.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ إستئنافٌ للإرشاد وتنبيه لعقلاء العباد على أن هذه الكائنات المرتبة من الأرض إلى السماوات، وما فيهما من النيرات والأمور العجيبة النفيسة من المعادن والحيوانات والنبات، مع هذهِ الحركات المتوازنة المتنسقة لا يتغير حال أيّة منطقةٍ منها على ما خلق فيها من الفصول والمواسم... أمور وحقائق ثابتة ولها آثار عجيبة، ولا يليق أن يُقال إنها ألعوبة غافل لاه لاعب. فإذا تحقق عند أهل البصيرة قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ لأن اللعب هُو الفعل الذي لا يقصد به مقصدٌ صحيح، وحاشاه أن يُخلق ذلك كذلك. وفي الوقت عينه إشارة إلى الإستدلال على وجود ذاته الواجب بآثاره النافعة الجامعة للنظام يستدل بها المقرون بالحكم والمصالح، فإن مطلق الأثر يدل على المؤثر، والأثر البديع على الوجه المتقن المُحكم الذي يُعجِبُ الناظرين من أهل الأبصار والبصائر يَدل على مؤثر عظيم جبار قادر مقتدر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما أنه إشارة إلى الإستدلال بهذا العالم البديع على أن إرسال الرسل حقّ يطلبُ مراعاته فإن هذا العالم الواسع بما فيه من الموجودات وبالأخص الإنسان المدني بالطبع المتطور الجاذِب الدافع لا يعيش بدون النظام،

والنظام إذا كان صنيعاً فكل قوم يصنعونه على ما ينفعهم ولا ينظرون إلى منافع غيرهم، فلزم أن يكون النظام إلهيّاً جامعاً يصلحُ به أمور الناس كلهم وعلى ذلك أرسل الله تعالى الرسل إلى العالم بشيراً ونذيراً وأنزل عليهم الكتاب الجامع لسعادتهم في معاشهم ومعادِهم، فيجب على كل عاقل الإنقياد له، والسعيد من التزمه وجعله منهجاً له لينال السعادة، والشقي من أنكره وجعل نفسه بحيث تعمل على ما تهواه، ولو كان أخس عادة.

ثم قال ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي لو كان الباري مريداً لاتخاذِ لهوٍ لاتخذه في عالم الغيب بحيث يخصه وما اتخذ صورة عيانية لكم تتفرجون عليه وتقضون به شهواتكم، أو لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا لأن الملك المسيطر يختص بما يريده لنفسه، لكن التالي باطل لأن اتخاذ اللهو بمعنى الأمر الذي لا يكون له عاقبة حميدة ممتنع، فكذا المقدم وهو إرادة اتخاذ اللهو، فإذاً ليس في العالم وأجزائه إلاّ الأعيان والأعراض المقرونة بالحكم الراسخة. ومنها بعث الرسل وإرشادُ الناس إلى السبلِ وتقرير المصير بالثوابِ والعقاب للكل. فليس في عالم الإمكان للهو مِن مكانٍ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو إرادة التشريع وطلب الطاعة والمعرفة من المكلفين ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو عمل اللهو واللعب الفارغ عن الخير فيه ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي فيمحقُ ذلك الحقُّ وهو خلق الكائنات لإطاعة رب الأرض والسماوات، الباطلَ الذي لم يكن فيه حكمة فيما مضى ولا فيما هو آتٍ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعني ولما دمغ الحقُّ الباطلَ فاجأنا العلم بأن الباطل ذاهبٌ عاطِل. ومن هذا البيان يظهر أن مصير الكفر إلى الفناء ومصير الكافرين إلى الدمار ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ يا قريشُ ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به من اتخاذ الشريك أو الولد، أو اتخاذ اللهو واللعب إلى الأبد.

ولا يفتقر الباري إليكم ولا إلى غيركم ولا إلى السماوات والأرض ومن فيهما ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مسخر منقاد يعمل فيهم ما يشاءُ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي ولا يتعبون من عبادته. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي في الأوقات كلها ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يأتيهم الفتور عنها.

وقوله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ حكاية لأشد

جناياتهم أعني اتخاذ آلِهَة غير الله يعني أبَلْ اتخذوا من آلهة من أجزاء الأرض من الحجارة والمعادن والجص هم ينشرون، حال كونهم هُمُ الذين يبعثون الموتى في يوم القيامة للميزان والحساب وتعيين الثواب والعقاب؟ وهذا القيد هو الذي يدور عليه التشنيع والتجهيل فإن المواد الجامدة الهامدة لا حسَّ لها ولا شُعُور حتى تكونَ لها قدرة ويتوهم منها أنها تبعث الموتى، ويقول لرد ذلك: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي لو كان فيهما آلهة بصفة الكمال المقتضية لوجوب الوجود والخالقية المقتضية للمعبودية لفسدتا، أي لم تتكون الأرض والسماوات من أساس لأنّ هذه الآثار لا يمكن إبداعُها وإحداثها من العدم إلا بذات واجب الوجود غير قابل للعجز والمنع ولو كان آلهة موصوفة بتلك الصفات وجب أن يكون من شأنها منع الغير عن آثار غير محبوبة عنده فيلزم جواز منع هذا لذاك وذاك لهذا وإمكان المنع لأي إلٰه يوجب أن لا يكون واجب الوجود فلم يكن شيء منهما إلهاً واجب الوجود فلم يحدث العالم ولم تتكون السماوات والأرض لكن التالي باطل لتكونهما مشاهدة وعياناً فالمقدم وهو تعدد الآلهة بتلك الصفة باطِلٌ، وهذا هو حقيقة معنى الآية الكريمة فتكون دليلاً قطعياً على امتناع تعدد الآلهة الموصوفة بوجوب الوجود.

وأما حملُ الآية الكريمة على معنى أنه لو كان فيهما آلهة لعارضَ كُلٌّ الآخر وتنازعا باقتضاء هذا لحركةِ التسيء المعهودِ والآخر لسكونه حتى تُمنعَ الملازمة بسندِ جواز توافقهما على شيء معين ويحتاجَ إلى إثبات الملازمة ببنائها على الغالب من التعارض بين المشركين فليس بشيء يعتمد عليه في أمثال هذا المقام المهم. نعم يجوز اعتباره على أن يكون دليلاً خطابياً لا غيرُ.

ولما ثبتت نظافة ساحة التوحيد عن توسخها باعتبار الشريك قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي أنزه غاية التنزيه الذاتَ الموجودَ المعلم باسم الجلالة الله المنعوت بربوبيته للعرش المحيط بعالم الإمكان عما يزعمون من إسناد الشريك إليه. وفي نعته برب العرش إشارة إلى استدلال آخر على وحدته بأن الله رب العرش الذي لا يصلُ العقلاءُ إلى وصفه كمال الوصف، فكيف يمكن أن يكون له شريك في ربوبيته لذلك؟ ولما انفرد الخالق المعبود بوحدة الذات ووحدة ذاته تقتضي امتيازه بصفات لا يمكن أن توجد في غيره تبين أنه الكامل المطلق، وسبحان الله الكامل المطلق أن يعمل شيئاً فاسداً خارجاً عن الحكمة ولذلك ﴿لَا

يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ على وجه النقد والاعتراض لأن أعماله مصونة عن العيب ولا يسأل عن سر خلقه لشيء وحكمته لأن آثار الذات الأزلي الأبدي لا تتناهى ولا تسعُ علم أي عالِم أسرار خلقه وخليقته ولا يستوعبها، وإنما يظهر بعض الحكم على بعض عباده إذاً شاء ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي ومن عداه من المكلفين يسألون عن لمية أعمالهم الإكتسابية وكيفيتها، لأنهم ناقصون ذاتاً بالإمكان والحدوث، وصفةً بثبوتها لذلك الموصوف، وعملاً لمقارنته للقصد المؤف. فإن أعمالهم ناشئة عن قدرة تابعة لإرادةٍ ترجح جانباً على جانب لأغراض نفسية وعوارض شخصية وتلك لا تخلو عن العيوب قطعاً.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيان بطلان كون ما اتخذوه آلهةً إلى الاستدلال على ذلك ببيان خلوها عن خصائص الألوهية، وهي ظهور آثارها الثابتة الدالة على ألوهيتها فيقول لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المتخذين من دون الله آلهةً ﴿هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ما تدعونه من اتخاذ الآلهة ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا الذي تلوته عليكم من أدلة توحيده تعالى واتصافه بالكمال المطلق ذكرٌ ودليلٌ لمن معي من أمتي، وذكر ودليل لمن قبلي من أمم الرسلِ السابقين، فأتوا أيضاً بدليل سليم يدل على اتخاذ الشركاء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ إضرابٌ عن طلب الدليل منهم على دعواهم إلى أنه لا ينبغي أن يتكلم معهم لأن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يميزونه عن الباطل، وأقلهم مغمور بينهم وأذلُّ، ولا مجال له حتى يظهر في ميدان سماع الحوار ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مستمرون على الإعراض عن الحق وسماع أدلة التوحيد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى بني إسرائيل أو غيرهم ﴿إِلَّا نُوحِىٓ

﴿إِلَيۡهِ﴾ أي إلى ذلك الرسول ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وخصوني بالعبادة ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ استئناف لبيان نوع آخر من خرافاتهم وهو أن الله الرحمٰن الرحيم ولداً فقالت بَطْنٌ مِن خزاعة: الملائكة بنات الله، واليهودُ: عزيرُ ابن الله، والنصارى المسيحُ ابن الله... ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ وتعالى عن اتخاذه للولد بأي وجهٍ لا من الملائكة ولا من الرسل ولا من غيرهم، لأن التناسل فرع الاحتياج إلى حفظ النوع وهو تعالى أزلي وأبدي وحي بذاته وقيوم لخليقته من أرضه وسماواته وغيرهما ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي مُكرمُون عند الله باختيار الملائكة للعبادة والطاعة المستمرة وعزير والمسيح بالإصطفاء والرسالة لتبليغ أوامره إلى عباده ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا يتقدمون على الله بكلام، وهذه كناية عن أنهم لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ﴾ تعالى ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لا يعصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ ويراقبهم في كافة سرهم وجهرهم ولا يجول في خاطر أي واحدٍ منهم إلا ما يرضى به تعالى ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ من المؤمنين الذين يستحقون الشفاعة لغفران الذنوب أو الإخراج من العذاب، أو لرفع الدرجات، وشفاعتهم ممنوعة عن الكافرين ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أي وهم بسبب مخافتهم المستمرة من هيبة الله وعظمته مرتعدون خائفون غاية الخوف ومضطربون غاية الإضطراب ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ أي من الملائكة وغيرهم إني إلٰه من دونه تعالى ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ كسائر المجرمين ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بإسناد ما لا يليق بهم إلى أنفسهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ يعني لم لا يستدل الكفار الملحدون حسب ما يسمعونه من كتب الحكماء السابقين واللاحقين بسيطرتنا على العالم على وحدتنا وكمالنا الذاتية والوصفية والفعلية؟ ألم

يعلموا بأنفسهم أو بحسب الإستفادة من الغير أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة في بدء الخليقة ففتقناهما وميزنا بعضهما عن بعض وجعلنا بعضها أرضاً واقعة في جو خاص ومحل معين وجعلنا بعضها سماءً أعلى منها. أو ألم يعلموا أن السماوات كانت واحدة فجعلناها سبع سماوات طباقاً؟ والأرض كانت قطعة واحدة فقسمناها إلى سبعة أقسام من الأرض القشرية والترابية وغيرها. أو ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا في ذاتيهما ملتحمتين يابستين لا يحصل منهما شيء ففتقناهما وجعلنا السماء ممطرة والأرض منبتة أي رتبنا أمورهما، وجعلنا طبقات السماوات الأثيرية بعضها فوق بعض وميزنا الأرض إلى مواد معدنية وغيرها وإلى جبال شاهقة وأراضٍ نافعةٍ واسعة وعيون نابعة وأنهار جارية ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي وخلقنا ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي كل جسم نام حساس متحرك بالإرادة كثيفة الخلقة. أو خلقنا من الماء كل نام يزيد في الأقطار فيشمل النباتات ولا يشمل الملائكة والجن مطلقاً لأنها ليست مركبات مادية كثيفة. ويقرب من هذه الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ ووجه كون الماءِ مبدأ ومادة للحيوان أو الدواب أنه أعظم مواده وكثرة إحتياجه إليه فإن الحي لا يعيش بدون رطوبة في بدنه ودمٍ في عروقه. وقال جماعة المراد بالماء النطفة سواء دخلت في الرحم كما في الحيوان الوَلُودِ أو في البيض كما في الحيوانات البائضة ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ بذلك المالك الحي القادر العليم الذي خلقَ الكائناتِ من الأرض والسماوات ورتبها بما يفيدُ البريات.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي وخلقنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جمع راسية بمعنى ثابتة أي جبالاً ثوابت مغروزة في الأرض لفوائد جليلة منها حفظ الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي تميل وتضطرب بهم في حركاتها اليومية والسنوية لأن الكرة المتحركة إذا لم تتعادل أجزاؤها لم تتناسق حركتها فلها اقتضاء سرعة من الجانب الخفيف وبطء من الجانب الثقيل. ولما تعادلت بغرز الجبال فيها على وجه مُنسق كما قرره الباري تعالى اعتدلت حركتها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فج وهو شقة يكتنفها جبلان. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فجّ. وقال بعضهم: هُو مطلق المعبر الواسع سواءٌ كان بين جَبَلين أم لا، وقوله ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل بدل من الفجاج لأنها موسعة للسابلة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الاستدلال بهذه الآثار على وحدة القادر المختار، أو لعلهم يهتدون بالسبل إلى السير إلى مقاصدهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ للأرض وأهلها ﴿مَّحْفُوظًا﴾ عن البِلى والتغير

والإنفطارِ والسقوط إلى المركز حتى يأتي زمانُ انفطارِها، أو محفوظاً عن النفوذ فيها والخروج عنها إلا بسلطان منا، أو عن الشياطين واستراق السمع. وهذا مقيد بعصر الرسالة الخاتمة ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالة على عظمة رافِعها وحافظها، أو عن كشف آياتها المودعة فيها كالكواكب والقمر والشمس ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ذاهلون غافلون لا يستدلون بها، أو معرضون عن السعي في كشفها باقتناء العلوم الفلكية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي وهو الذي خلق ستار الظلمة على نصف الكرة بمجيء وقت غروب الشمس إلى طلوعها، وخلق أنوار النهار على سطحها بطلوعها إلى وقت الغروب وخلقَ الشمس لإفادة الأنوار في سطح الأرض حتى تحصل الظلمة في السطح المقابل والقمر لخلق الأضواء إذا جاء الستارُ وقت الليل ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿فِى فَلَكٍ﴾ ومدار خاصٍ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يستمرون في السباحة.

ففلك القمر ومداره قريب من الأرض حتى يقال اليوم إنه من توابع كرة الأرض. وفلك الشمس في مدار أعلى بما لا يعلمه إلا الله والسِّباحة تشعر بأن السماء أثير صافٍ قابل للخرق والذهاب والإياب والطلوع والغروب. وما اشتهر من امتناع الخرق والإلتئام كلماتٌ لاكتها العقول المُبتلاةُ بالأوهام، وصيغة الجمع ملاحظةٌ للكل وعلامة الجمع لتنزيلهما في هذا العمل العجيب منزلة العقلاء. ثم الظاهر من الآية الكريمة هو أن كُلاً من الشمس والقمر يجري في فلكه ويتحرك في ملكه وهذا بالنسبة إلى القمر مسلم معلوم وأما بالنسبة إلى الشمس فقد قيل أنه مجاز من نسبة صفة المراقب المجاور إلى مجاوره يعني أن الأرض هي التي تتحرك ولكن الواقف عليها يعتقد أن الشمس هي المتحركة، وإلا فالشمس ثابتة في محلها كمركز لحركات دوائر المجموعة الشمسية وهي باقية في الوضع. نعم إنه قد اشتهر في العصر الأخير أن الشمس تتحرك بمجموعتها في فضاء العالم الواسع إلى ما شاء الله تعالى، وذلك عائد إلى علم العليم الخبير، وعليه اعتقادي فإن الخالق هو العالم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا

تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ نزلَ لما قال الكفار نتربص بهِ ريْبَ المَنونِ، أي أنه بَعْدَ مدة يموت ودينه يفوت ونخلص من بث فكرة التوحيد. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كائناً من كانَ الخلود والدوامَ والبقاء ما دامت الدنيا باقية، بل لكل أمة أجل ولكل أجل كتابٌ فكما أنك تموت فهم يموتون فاسألهم أفهم الخالدون دونك؟ كلاّ لا خلود لأحمد ولا لمحمود ولا لشقي ولا مسعود. وبموتِ الشخص إذا كان سائراً على الحق وناشراً للحق لا يموت دينه وديدَنُه. وهكذا كان الزمان وكذلك يكون فلا ينفع أهلَ الضلال موتُ أهل الهدى وهم بعدهم أو قبلهم يموتون ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المر على مذاق الطبع الحيواني ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ أي بالمكروه والمحبوب هل يشكرون على الثاني ويصبرون على الأول؟ ﴿فِتْنَةً﴾ أي إبتلاء، فهو مصدر مؤكد لما قبله ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا ونحن نعلم بأحوالهم عند الإبتلاء وعلينا الجزاء وإلينا المصير.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي المشركون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي محل هزء أي مهزوء به قائلاً على وجه التهكم: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بسوء ويرفض عبادتهم ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ الذي شملت رحمته كل شيء ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ فانظر إلى سوء شعورهم يهزأون بالنور ويعززون الخشب الموزور! وقوله ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نزل لبيان استعمال الكفار المستحقرين لمواعيد الرسول بالعقاب والعذاب والمستعجلين له على أساس إنكارهم له فقال خلق الإنسان أي هذا النوع بأسره من عجل أي من طبيعة غالب صفاته الغريزية الاستعجال لما يهواه، وبما أنه غالبٌ فيه فكأنه خلق منه، وإن كان العرض محتاجاً للجوهر ولا ينشأ الجوهر منه ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي سأجعلكم ممن يرون بأمّ العيون صنوف عذابي من القتل والفتك والهتك والحقارة والخسارة في الدنيا والعذاب والعقاب في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي أولئك المستعجلون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى وقت وقوع الساعة الموعود بها ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الرسول وأتباعه ﴿صَٰدِقِينَ﴾؟ في مجيئه وحلوله فأجابهم الله تعالى بما يتحقق فيه مما يدهش العقول وقال ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي شدة عذابهم وحدّة النار عليهم ﴿حِينَ﴾ يقعون فيها و﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ عند إحاطتها بجوانبهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من غيرهم حتى تبعد عنهم لعلموا شيئاً هو أشد الأشياء عليهم هولاً ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ أي الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأةً مفعول مطلق لتأتيهم على غير لفظه، أو مصدر في موضع الحال أي مباغتة لهم فتبهتهم، أي فتجعلهم في بهت ودهش وتحير ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي رد الساعة التي فاجأتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا أقلَّ وقتٍ وزمان. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من آبائك وأعمامك شرفاء كُرماءَ عند الله فصبروا على أذى الإستهتار واستهزاء الكافرين بهم فنجوا من كل مكروه ونالوا عند الله كل محبوب، ووصلوا إلى كل مطلوب مرغوب ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ أي من أولئك الرسل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من وجوه الحقارة والنذالة والبذاءة التي استعملوها مع أولئك الرُّسُل المكرمين.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ أمرٌ من الله لرسوله ﷺ أن يقولَ لهؤلاء المستهزئين: كيفَ تتجاسرون على الله وهو الحافظ لجميع العالم؟ وإلا فقولوا لي ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي من الذي يحفظكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الطرفين لكل نائبة وحادثة ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ أي بأسه الشديد بالنار أو الحديد، أو من كلّ بلاء

جديد. ولا شك أنّ المجيب المؤمن يقولُ: اللّهُ هُو الحافظ للمخلوق من بأسٍ يأتي من الخالق، وإذا كانت من لابتداءِ الظهور وجب أن يُجابَ بأن الحافظ للإنسان هو ملائكة الرحمٰن، فقد قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾. ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي أعرض عن سؤالهم عمن يحفظهم من بأس الله، فإنهم أناس مُعرضون عن ذكر ربهم، ولا يجيبون بما فيه إسناد العمل إليه أبداً.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾؟ إعراض عن وصفهم بالإعراض عن الله تعالى إلى بيان اعتمادهم على غيره تعالى من آلهة مفتعلة مصنوعة من أحجار وأخشاب، ويعتقدون أن مولاهم وناصرهم آلهة تمنعهم عن كل ضارّ من دوننا، أي من غيره تعالى ولا يسندون ذلك العمل إلى الله قطعاً. ولكنهم أخطأوا في ذلك فإنهم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ إذا أراد شخص أن يكسرهم، ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي ولا هم يصحبون ويؤيدون بناصرٍ ينصرهم ويدافع عنهم ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ إضرابٌ عن إلقاء النوع السابق من الكلام إلى وعيدهم بأنهم يستحقون أشد العذاب لأنا متعنا هؤلاء وآباءهم بالملذات والمشتهيات في سنين طويلة حتى طال عليهم العمر وبقوا منطبعين بما هم فيه ويعلمون أن العاقبة لهم ومن عداهم كزبدٍ ما له أمد.

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ فنحولها إلى ديار المسلمين بعدَ أن كانت من ديار الكافرين، وجعلنا المسلمين غالبين عليهم بحيث لم تبق لهم شأفة وشوكة ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؟ على الرسول ﷺ والمؤمنين بعد مشاهدتهم ذلك. وقيل في معنى الآية: أفلا يرون أنا نقتدر على كل تصرف في الأرض والسماوات ونأتي الأرض ننقص من مادتها الترابية ونقشرُها مِن كلِ جانب كما ننقص من كرة سائر الكواكب إلى القمر والشمس كذلك. فما دام أنّ لنا قدرةً كذلك وأردنا أن نأتي بدين الإسلام فلا شك في تحقق ما أردنا من إعزازه وإعزازِ الرسول المبعوث به أفهم الغالبون على ذلك الرسول الجليل بعد كل ذلك؟ كلاّ ثم كلاّ.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أي أنذركم من جانبه تعالى على الوحي الصادق بما تستعجلون به من الساعة وعذابها وليس الإتيان به من شأني ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولكن لا يسمع الناس المبتلون بآفة في السمع دعوة الرسول لهم إلى الحق إذا هم ينذرون، أي إذا أتاهم بالإنذار والمراد لا يسمعون كلامه

سماع إجابة، ومعَ ذلك فهم أناس ضِعاف لا يقاومون أية مصيبة تأتيهم ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي والله إن أصابهم شيء قليل من آثار عذاب الله الوارد عليهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ متحسرين متأسفين متندمين عما كانوا عليه: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسنا بإبائنا عن سماع كلام الله وكلام رسوله الأمين ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي ونضع الموازين العادلة التي توزنُ بها صحائف الأعمال ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه فلا تظلم نفس أية نفس كانت شيئاً من الظلم أيّاً كان ﴿وَإِن كَانَ﴾ الوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة كائنة من نبات خردل وهي في غاية الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي جئنا بها للحساب حتى لا تضيعَ ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ للدقائق في الأعمال، فإنه لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ تفصيلٌ لما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي والله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل وضياء يستفاد منه للخروج من ظلمات الجهل والضلال ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يريدون تقوى اللّٰهِ وطاعته ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم والحال أنه غائب عنهم لقوة الإيمان، أو يخشون ربهم في وقت الغيب عن الناس فلا يباشرون الذنوب والآثام ﴿وَهُم مِّنَ﴾ لقاء ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وهولها وما يلقونه بعدها من الحشر والحساب والميزان والنار ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون بالاستمرار. ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر

﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير البركة والخير من نفحات رحمة المتكلم به، فإن الكلام صفته ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ إلى نهاية أقطارِ الكرة ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؟ أي منكرون أنه أُنزل من الله على رسوله، أو أنه منزل ولكن ليس فيه خير وبركة. كلاّ فإنه يعلم ما فيه من البركة كلّ من في قلبه حركة، فقد سمعناه وأثار في القلوب نور الرحمٰن، وأنار القلوب بنور الإذعان والإيمان، ووجدْنا مِن قراءته علينا في بعض الأحيان فَوْحاتٍ تُعطر الصدور بالروح والريحان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي الرشد المناسب له لمقاومته أعظم عاتٍ متكبر في الزمان ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل موسى وهارون ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ على سبيل النصح والإرشاد وإرخاء العنان: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ أي ما حقيقتها؟ أهي هياكل موجودة في ذاتها؟ أم تماثيل ركبتموها من أجزاء متباينة؟ فهل تستحق أن تعبدَ؟ أو ما وجهُ عبادتكم لهذه التماثيل التي أنتم لأجل عبادتها عاكفون ومقيمون وملازمون لأداء شعار العبادة؟ ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي ما ندري حقيقتها بالذات، ولكن وجدنا آباءنا عابدين لها ونحنُ ملازمون لعبادتها تقليداً لهم، أو لا وجه مكشوفاً عندنا إلا تقليد آبائنا، ونزعم أنهم مصيبون. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ الأئمة في تلك العبادة ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح بديهي لا يحتاج إلى الدليل لأن العبادة للجمادات ضلال لا ضلال فوقه ﴿قَالُوٓا۟﴾ عندما سمعوا كلامه تعجباً من تضليله عليه السلام لهم ولآبائهم: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟ أي أجئتنا بكلام ناشىء من الجد والقصدِ أم أنه من اللاعبين الهازلين؟ فلم يريدوا بالحق ما هو المطابق للواقع؛ لأن حقية عبادة الأصنام لم يقبل الترديد عندهم ولو فرضاً، بل أرادوا أن هذا الكلام الباطل الذي جئتَ به تكلمت به عمداً وجِداً أم لهواً ولعباً ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي أعرضوا عن هذه الترديدات والإعتبارات اللاغية فإني أتيتكم بكلام حق ناشىء عن علم وعمد وقصد وبيان لنوع الإنسان منكم ومن غيركم و﴿رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وخلقهن بما فيهن وعليهن وما بينهن من العدم وأخرجهن إلى الوجود ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الكلام الحق ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في الدنيا والآخرة. ولم يكتف بذلك بل هددهم مؤكداً بالقسم، وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي لأحاولن وأسعين في كسر أصنامكم بما يمكن لي من الإستطاعة بعد أن تولوا وتستدبروا عن عبادتها إلى مراسم عيدكم الرسمي مدبرين عنها، فلما

انفض الجمع وولوا إلى عيدهم أتى إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام فجعلهم جذاذاً أي قطعاً متفرقة ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل القوم العابدين لها يرجعون إلى ذلك عند المناقشة معه عليه السلام.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ أي قالوا حين رجعوا من عيدهم، وزاروا معبدهم، ورأوا ما رأوا من كسر الأصنام غير كبيرهم ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ العمل المخزي ﴿بِآلِهَتِنَا﴾ ولما لم يسمعوا الجواب قالوا: ﴿إِنَّهُ﴾ أي المباشر لهذا العمل العظيم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعدودين من جملة الظلمة على أنفسهم بالتعريض لها لأشد العقوبات المحتملة في الدنيا، ولما فتشوا عن المباشر هنا وهناك وجدوا أُناساً ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي الآلهة بسوء ويعيبهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا﴾ أي عِلْيَةُ القَوم الذين سألوا أول مرة عن المباشر: ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ أيها الناس السامعون لذلك الفتى الذي يذكرهم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعل السامعين لكلامه يشهدون بفعله كما شهدوا بسماعهم لكلامه، أو يجدوا أناساً آخرين علموا بعمله فيشهدوا عليه، فذهبوا وفتشوا عنه حتى وجدوه، وأتوا بهِ إلى الجماعة ﴿فَقَالُوا﴾ أي المستنطقون منهم: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ العمل المُخزي ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ أي كبير الأصنام ﴿هَٰذَا﴾ الباقي على حاله ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ أي الأصنام المكسورين وقوله ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا ببيان الفاعل المباشر للعمل شرطٌ وقوله السابق ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ جزاء مقدم. وقوله فاسألوهم جملة معترضة حتى لا يرد لزوم الكذب عليه عليه السلام إن كان كلامه مبنياً على الحقيقة. وأما إذا كان مبنياً على التجوز لأن كبيرهم هو الذي تسبب في استنكاره عليه السلام لعبادتهم فإنهم كانوا يعظمونه تعظيماً بليغاً، فلا يكون هناك كذبٌ ولا حاجة إلى

تأويل الآية الشريفة أي القول بربط ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ بقوله إن كانوا ينطقون. فإن كبيرهم كان سبباً لإغاظة إبراهيم عليه السلام حتى فعل بهم ما فعل، وأسند الفعل إلى السبب نحو هزم الأمير الجند وذلك شائع ذائع.

﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾ أي علية القوم ﴿إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وشاوروا عقولهم وعلموا أن قول إبراهيم حق ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادة من لا يضر ولا ينفع، أو بالمناقشة مع من تعلمون أن كلامه حق، لا إبراهيم في اعتراضه عليكم. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي قلبوا من جانب النفس الأمارة، والشياطين المكارة والتقاليد الباطلة الجبارة، و﴿قَالَ﴾ بعضهم له عليه السلام ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم بلا شبهة ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وأن عبادتنا لهم ليست ناشئة من نطقهم، وبيانهم بل لاحترامٍ وتقديس تقليدي لأعيانِهم فكيف تأمرنا بسؤالهم؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ هب أنهم لا ينطقون، وأن عبادتكم لهم ليس على أساس النطق والبيان، لكن ألا تشعرون بأن العبادة لا تليق إلا بذات كامل الصفات يتصرف في الكائنات، ومعلوم أن أصنامكم ليسوا كذلك ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟ إذ ليس لهم أيُّ قدرةٍ وتصرف في عالم الوجود، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قبح صنعكم ذلك.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا
جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ معناه: إنه لما عجزوا عن معارضته عليه السلام بالكلام لجأوا إلى طريق العناد والتعذيب والإيلام،

فإن ذلك دأب المستكبرين و﴿قَالُوا﴾ لأتباعهم المطيعين: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ حتى لا يبقى منه أثر ويذهب رماده أدراج الرياح ﴿وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنتم فاعلين شيئاً ما فحرقوه وانصروا آلِهَتكم، أو إن كنتم فاعلين ما به تنتصرون فحرقوه فجمعوا الوقود وأشعلوا فيه النار ورموا إبراهيم فيها ولكن منعناها من الإضرار به وإحراقه و﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ أي ذات بردٍ وسلامة ﴿عَلَىٰٓ﴾ جسد ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي تحولي من صفتك اللازمة إلى غيرها، أو أبقي كما كنت ولكن لا تضري إبراهيم ولا تحرقيه. والأول مبني على جواز إنفكاك لازم الذات عنها، والثاني مبني على امتناع وجواز خلق المعارض في المقابل حتى لا يتأثر ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي أراد عبادُ الأصنام كيداً بإبراهيم بأن يحتالوا عليه ويمحوه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث خسروا المصاريف والمتاعب التي ارتكبوها لإحراقه ولم تفدهم شيئاً وعادت كأن لم تكن، وخسروا السمعة حيث اشتهر في العالم أن إبراهيم غلبهم من بكرة أبيهم، وخسروا دينهم لأن بقاء إبراهيم صار حجة قاطعة على أن دين إبراهيم حق وأن التصرف بيد مالك الملك وملك الملوك، وأن ديدنهم عاطل باطل ما فيه طائل، وخسروا الإهتداء بهذا الرسول الرشيد لأن كلامه كان موجباً للإنتباه فصار عندهم مزيداً للاشتباه ووقعوا في ما وقعوا فيه، واستحقوا عذاب جهنم وذلك مثوى الظالمين.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي إبراهيم ﴿وَلُوطًا﴾ وهو ابن أخيه ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد أنه بعدَ أن أنجيناه من النار هيأنا له وسيلة التهجير حتى لا يبقى مُلاماً معاتباً بين قومه المشركين ونجيناه من مجاورتهم، ونجينا لوطاً معه لأنه من آلِهِ إلى الأرض أي الشام التي باركنا فيها للعالمين، خلقنا البركة المادية والمعنوية فيها لأهل العالم، أما البركة المادية فبكثرة المياه والأراضي الزراعية، وطيب المناخ، ووقوعها في محل مناسب للتجارة وصيد الأسماك وغيرها. وأما البركة المعنوية فبجعلها مركزاً للعبادة والتوحيد وبناء أولى القبلتين فيها، وجعلها منتهى للإسراءِ ومبدأ للمعراج.

وروي أنه عليه السلام خرج من العراق ومعه لوط وسارةُ بنتُ عمه هاران الأكبر، فنزل أرض حران فمكث بها ما شاء الله تعالى ثم انتقل مسافراً إلى مصر، ثم رجع منها إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب، وسكن هناك. ولما زار مصر وهبه ملكها جارية

اسمها هاجر وأتى بها معه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ من زوجته سارة ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي زائدة على الولد وهو ابن إسحاق ﴿وَكُلًّا﴾ من الأربعة المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للعمل الصالح في الدين والدنيا فرضي الله والناس المنصفون عنهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي وجعلناهم أئمة للناس الطالبين للهدى ويهدون الناس إلى الإيمان بالله ورسله وشرائعه بأمرنا ووحينا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من الأعمال النافعة لهم وللناس لإتمام الكمال الإنساني بإضافة العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ لأهلها بحسب ما شرعناه إذ ذاك ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ لا يخطر ببالهم إلا امتثال أمرنا.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي وآتينا لوطاً ﴿حُكْمًا﴾ أي نبوة ورسالة وهي وسيلة الحكم في الأمة بالشريعة أو الفصل بين الخصوم في القضاء ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي الأعمال الخبيثة من اللواطة والمكيدة على الأبرياء والإستهتار بأهل المروة والحياء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي قوماً ملابسين للعمل السيىء و﴿فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن إطاعة الله ورسوله ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾ أي لوطاً ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي في أهل رحمتنا أي جعلناهم مرحومين ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سَبقت لهم منا الحسنى.

﴿وَنُوحًا﴾ أي واذكر نوحاً أي نبأه وإرساله إلى قومه وتبليغ رسالته لهم وتمردهم عليه حتى تعب من أعمالهم والتجأ إلى الله في رد كيدهم كما قال تعالى ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء الرسل الذين ذكرناهم آنفاً ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه بأن أمرنا السماء بالإمطار والأرض بالإنفجار. فحدث الطوفان في الكرة فأغرقنا الكافرين ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ﴾ ذلك ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ العام في الأرض لذوات الأرواح ممن سكن فيها ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ أي ومنعناه ﴿مِنَ﴾ أذى ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي حفظناه من شرهم بإبادتهم وإبقائه مع أتباعه المؤمنين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي أصحاب سوء وفساد في العقائد والأعمال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي بالطوفان ﴿أَجْمَعِينَ﴾ على حسب سنتنا في الجبارين.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ

دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ
لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن
يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا
بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى
رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ عطف على ﴿نُوحًا﴾ أي واذكر داود وسليمان ابنه، وداود كان من نسل يهوذا ابن يعقوب عليه السلام، جمع الله له بين النبوة والملك. ونقل النووي عن أهل التاريخ أنه عاش مائة سنةٍ ومدة ملكه منها أربعون، وكان له إثنا عشر ابناً، وسليمان أحدهم، وكان يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه لوفور عقله وعلمه، ويتعلق بذلك العامل المقدر قوله ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ والمراد به الزرع، وقال الخفاجي: لعله بمعنى الكرم مجازاً على التشبيه، أي يحكمان في غرامة ما تلف منه ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي رعت فيه ليلاً بلا راعٍ فأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين علماً.

روي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدته، فقضى له بالغنم فخرجا، فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال: كيف قضى بينكما أبي؟ فأخبراه. فقال: غير هذا أوفق بالجانبين، فسمعه داود عليه السلام فدعاه فقال له: أخبرني بالذي هو أوفق. فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرها ونسلها وصوفها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يترادا. فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة. وللناس أقوال في أن الحكمين كانا باجتهاد، أو نص، أو أحدهما بالإجتهاد والآخر بالنص؟ والظاهر أنهما لم يكونا عن النص إذ لم يكن سليمان إذ ذاك نبياً، ولا حُكمُ داود بالنص وحكم سليمان بالإجتهاد لأن الإجتهاد لا يرد النص، فبقي أنهما كانا بالإجتهاد، ولكن لما علم داود أن حكم سليمان أوفق رجع من قوله

دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ
لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن
يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا
بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى
رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ عطف على ﴿نُوحًا﴾ أي واذكر داود وسليمان ابنه، وداود كان من نسل يهوذا ابن يعقوب عليه السلام، جمع الله له بين النبوة والملك. ونقل النووي عن أهل التاريخ أنه عاش مائة سنةٍ ومدة ملكه منها أربعون، وكان له إثنا عشر ابناً، وسليمان أحدهم، وكان يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه لوفور عقله وعلمه، ويتعلق بذلك العامل المقدر قوله ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ والمراد به الزرع، وقال الخفاجي: لعله بمعنى الكرم مجازاً على التشبيه، أي يحكمان في غرامة ما تلف منه ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي رعت فيه ليلاً بلا راعٍ فأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين علماً.

روي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدته، فقضى له بالغنم فخرجا، فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال: كيف قضى بينكما أبي؟ فأخبراه. فقال: غير هذا أوفق بالجانبين، فسمعه داود عليه السلام فدعاه فقال له: أخبرني بالذي هو أوفق. فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرها ونسلها وصوفها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يترادا. فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة. وللناس أقوال في أن الحكمين كانا باجتهاد، أو نص، أو أحدهما بالإجتهاد والآخر بالنص؟ والظاهر أنهما لم يكونا عن النص إذ لم يكن سليمان إذ ذاك نبياً، ولا حُكمُ داود بالنص وحكم سليمان بالإجتهاد لأن الإجتهاد لا يرد النص، فبقي أنهما كانا بالإجتهاد، ولكن لما علم داود أن حكم سليمان أوفق رجع من قوله

الأول، واختار ما ذهب إليه سليمان. وقد يكون للمجتهد قولان أو أقوال في مسألة حسب ما يبدو له من الأدلة، وذلك ما أفاده قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي ففهمنا الحكومة السالمة إياه ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ أي قضاء في فصل الخصومات ﴿وَعِلْمًا﴾ بما يبني عليه الحكم والقضاء، ولكن فوق كل ذي علم عليم، وعلم سليمان في هذه القضية كان أوفق، ولا يلزم من ذلك خطأ داود لأن حكمه كان مما يعيد لصاحب الزرع حقه أيضاً، ولكن كان حكم سليمان أرفقَ لبقاء الأصول لأصحابها ووصول صاحب الحق إلى مثله.

ثم أخذ في بعض اختصاصات سيدنا داود ﷺ فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ إذا سبح هو بلسان القال كما سبح الحصى في كف الرسول ﷺ وسمعه بعض أصحابه الكرام، وكان داود ﷺ وحده يسمعه على ما قاله يحيى بن سلام وقيل يسمعه كل أحد ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال أي وسخرنا الطير يسبحن معه. وفي الآثار تصريح بأنها كانت تسبح معه ﷺ كالجبال ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تذييل لما قبله أي وشأننا أن نفعل أمثال ذلك فإنا قادرون على ما أردناه، وهذه من الإختصاصات المعنوية. وأما من جهة الماديات فقد أفاده بقوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي صنع درعٍ تلبسونها في الحرب ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتصونكم من الجراحات الناشئة من ضرب أعدائكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؟ ربكم الذي أنعم على داود بما يعود نفعه لكم.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ أي حال كونها هابّةً بشدة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ على وفق إرادته من مستقره بإصطخر في شيراز إلى الأرض التي باركنا فيها أي إلى الشام رواحاً أي بعد أن جرت به من الشام إلى إصطخر بكرة كانت تعود به إليها عشية. وقيل: المراد بالأرض التي باركنا فيها ما أراد النزول فيها، فكل ما حلّ فيها فهي مبروكة لأنها تكون منزلاً لرسول من الرسل.

وفي القصة روايات كثيرة، وأوثقها أنه صنع له ﷺ بساط بقدر ما يحتاجه من الأهل والخدم والخواص والحُراس، فإذا أراد السفر إلى مكان ساروا إليه ويقعد كل في محله الخاص فتأتي الريح وترفعه وتصعد به إلى مستواه المناسب لسفره، وكانت قوتها في الحركة بالغدوة مسافة شهر بالأقدام، وبالرواح كذلك. والله على كل شيء قدير.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فما شرفناه بتلك المعجزة العجيبة إلا لما فيها من

الحكمة البالغة ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي يدخلون تحت ماء البحر لاستخراج ما يجدونه من الدراري اللامعة المحبوبة لسليمان عليه السلام ﴿وَيَعۡمَلُونَ﴾ أي أولئك الشياطين له ﴿عَمَلًا﴾ كثيراً ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الغوص في البحار من صنع الأبنية والحصون والقلاع والمحاريب والتماثيل الجائزة في شرعه. ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ عن الخروج عن طاعته أو المؤامرة عليه أو حافظين لهم عن عروض موانع تمنعهم عن الوفاء بالأعمال التي وُسدت إليهم.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي واذكر أيوبَ عليه السلام وهَب الله له أموالاً وأولاداً كثيرين، فابتلاه الله تعالى بفناء أولاده بهدم بيت عليهم وبإصابته بمرضٍ مدةَ سبعِ سنين وسبعة أشهر كما قالوا وبضياع أمواله. ولما وقع عليه ما وقع من البلاء استمر ما شاء الله فلما كاد أن يخرج عن طاقته دعا الله تعالى لكشفه عنه كما قال تعالى ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ وهو بالفتح عام في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهِزال وملال. ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي أعظم وأوفى رحمةً من كلٍّ من يتصف بالرحمة الواسعة ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دُعاءه ورفعنا عنهُ بلاءه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ﴾ أي ببدنه ﴿مِن ضُرٍّ﴾.

ويروى أنه دعا ربه لكشف ما به في السجود فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ فركض فنبعت من تحته عينُ ماء، فاغتسل منها، فلم يبق في ظاهِر بدنه دابة إلاّ سقطتْ ولا جراحةٌ إلا برئت، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عينٌ أخرى، فشرب منها فلم يبق في جوفه داءٌ إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابُه وجماله. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ فقال ﷺ: «**ردّ الله تعالى امرأته إليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستاً وعشرين ذكراً**» وقال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية: إن الله تعالى أحيا له أولاده الذين هَلكوا في بلائه، وأوتي مثلهم في الدنيا. والظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً. وقيل كانوا نوافِلَ. وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خَرَّ عليه جَرادٌ من ذهب، فجعل أيوب عليه السلام يحثي في ثوبه، فناداه ربه سبحانه: يا أيوب ألم أكن أغنيتكَ عما ترى؟ قال: بلى وعزتك لكن لا غنى بي عن بركتك**» وعاش عليه السلام بعد الخلاص من البلاء على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما سبعين سنة.

وقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي آتيناه ما ذكر لرحمتنا

أيوب عليه السلام وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي واذكرهم. وظاهر الآية أن ذا الكفل كان من الأنبياء وهو الذي ذهب إليه الأكثر. واختلف في اسمه فقيل: بشر، وهو ابن أيوب عليه السلام بعثه الله تعالى نبياً بعد أبيه، وأمره سبحانه بالدعوة إلى توحيده وكان مقيماً بالشام مدة عمره، ومات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة وأوصى إلى ابنه عبدان، ثم بعث الله تعالى شعيباً. وزعمت اليهود أنه حزقيل وجاءته النبوة وهو في وسط سبي بختنصر على نهر خريار ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي أدخلناهم في مقام النبوة وكانوا كاملين في الصلاح.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي واذكر صاحبَ الحوتِ يونس عليه السلام ابن متّى وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره وصححه ابن حجر. قال: ولم أقف على شيء من الأخبار.

وأما القول الثاني فهو أن قصة الحوت كانت بعد دعوته أهل نينوى وتبليغ رسالة الله. وخلاصته: أنه مكث فيهم مدة فلم يؤمنوا، فأنْذرَهُم بعذاب اللَّهِ في موعد خاصٍ إن لم يؤمنوا، ثم تركهم وبعد غيابه عنهم تابوا إلى الله، فرفع عنهم العذاب الموعود، فلما جاء الموعد ولم ينزل العذابُ ترك يونس البلدَ استحياءً منهم حيث وجد وعده غير واقِع حتى ركبَ في سفينة على دجلة، فصارت السفينة في توقف ودورة، فاقترع أهل السفينة ـ كما قلنا ـ فَخرجت قرعته فألقوه في البحر، فالتقمه الحوتُ، وسبح في بطنه، ثم ألقاه الحوت إلى الساحل وبعد خلاصه من المصيبة وضعْف الحال علم أن أهل نينوى تابوا ويبحثون عنه ليجدوه، فذهب إليهم وآمنوا به. والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ على الأول معناه مغاضباً على حزقيل ملك الإسرائيليين إذ ذاك في تخصيصه بالإرسال إلى نينوى. وعلى الثاني معناه مغاضباً على أهل نينوى في تمردهم عليه. وقوله ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي فظن أن لن نقضي عليه بابتلائه بمصيبته، لأنه على القول الأول لم يكن أمر الملك بذهابه إلى نينوى إلا برأيه وحسبانه أن يونس رجل قوي أمين، وعلى القول الثاني كان غضبه على أهل نينوى لتمردهم على الله وإبائهم عن قبول رسالته وأوامره. فظن أن غضبه ذلك ينفعه ولا يوقعه في العذاب.

وقوله ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمة بطن الحوت، وظلمة أعماق البحر، وظلمة الليل. ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي نادى بأنه لا إله إلا أنت على أنَّ أن مخففة من المثقلة، أو نادى أي لا إله إلا أنت على أنها مُفسرة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بعظمة ذاتك وتعاليك من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للمصائب. ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي لدعائه ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ الذي أصابه حين التقام الحوت له ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ومثل ذلك الإنجاء الواقع عند قلة الصبر وضيق الصدر وعسر الأمر وظن أن لا خلاص من الهلاك إلا بقدرة الله تعالى ننجي المؤمنين الذين قاموا بمقتضيات الإيمان ودعوا الله مخلصين وطلبوا منه الأمان.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي واذكر زكريا ودعاءه وقبول دعائه ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ وقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي وأنت خير حي يبقى بعد الميت ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ﴾ ولداً وسميناه ﴿يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ العقيم تلد على كبر السن ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ بيان لسبب تفضله عليه باستجابة دعائه بأنهم كانوا يتسابقون إلى كل خير على مناسبة الأيام والليالي، ويرغبون في الأعمال الحسنة لقوة إيمانهم بالله ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ وكانوا إذا دَعوْنا دَعوْنا جامعين بين الرغبة في الإجابة والرهبة عن الإجابة ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ متواضعين ومتضرعين. وكل قوم شأنهم الإنابة فشأن الله لدعائهم الإجابة.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ واذكر شأن المرأة المباركة التي منعت عورتها عن الرعونات ولم تتزوج على عادة النساء الواصلات ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي

فأوصلنا نفخة من جانب الملك المقدس عندنا إليها فولدت ابناً ما أحسنه ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾ عظيمة تاريخية نادرة عجيبة ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ من عقلاء الإنس والجن، فإن من تدبر حالة الأم التي ولدت بلا مساس بشر، والابن الذي أنطقه الله بالرسالة، وهو طفل، علم أن الله قادر على كل ممكن من الممكنات وهو المصيطر على الأرض والسماوات وسائر الموجودات. فتعالى الله رب العالمين.

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ خطاب للناس عامة، والإشارة إلى ملة التوحيد والإسلام. أي أن دين التوحيد دينكم ديناً واحداً وأمة حالٌ لكونها في معنى معتقداً، والعامل فيها اسم الإشارة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ جميعاً لا إله غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ خاصة والإتيان بالأمر بالعبادة بعد تقرير أنه ربهم إشارة إلى أن الموجب للعبادة هو الخالقية، فالخالق هو المعبود والمعبود هو الخالق ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي جعلوا أمر دينهم بينهم قطعاً مختلفة متفرقة فمنهم من بقي على التوحيد، ومنهم من أشرك به غيره، أو تفرقوا في أمر دينهم بينهم ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ كل منها راجع إلينا للجزاء ثواباً وعقاباً ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي بعضاً منها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا نكران من جانبنا لسعيه في العقيدة السليمة والأعمال المستقيمة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي لسعيه في أي باب ﴿كَـٰتِبُونَ﴾ فلا تخفى علينا خافية ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ﴾ ودمرناها بسبب كفر أهلها ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي عدم رجوعهم إلينا للجزاء لأن البعث والحشر والحساب وأخذ الجزاء حق مقرر لا محيد عنه. ويجوز أن تكون كلمة لا صلة. أي حرام على أهل قرية قدرنا إهلاكها وأهلها أنهم يرجعون للتوبة والإنابة، لأنا لما علمنا بأحوالهم السيئة وأخلاقهم الرذيلة وعقائدهم السفيلة أزلاً علماً ناشئاً من نقل صور عقائدهم وأعمالهم، فلا مجال لتبدل هذا العلم ولا

مجال لرجوعهم إلى التوبة والإنابة. وتلك القرى الظالمة تبقى كذلك وأهلها مستمرون على الكفر والعناد والأعمال السيئة يوماً فيوماً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ أي فتحت أبوابُ الخروج إلى البلاد للإفساد عليهما ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ ومرتفع من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون. ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ بقيام الساعة وقوله ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة، وهي تسد مسد الفاء الجزائية، أي فإذا هي شاخصة أبصار الكافرين قائلين: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ الذي فاجأنا ودهمنا من الساعة وأهوالها ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا حيث أهملنا الحواس لإبصار الحقائق واستماع المواعظ، والعقول للنظر في الكائنات الدالة على وجود الخالق وثبوت الرسالة.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطاب لمشركي مكة وبيان لعاقبة أمرهم، وكلمة ما في ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ عبارة عن الأصنام التي عبدوها. يقول الباري سبحانه وتعالى: إنكم يا كفار مكة وأصنامكم اللاتي تعبدونها من دون الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وهي صغار الحجارة، فهو خاص وضعاً وعام إستعمالاً. وقرىء حطب جهنم بالطاء المشالة، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الحصب بالحطب. وقال: إنه الحطب بالزنجية. وفسر بالوقود لأنه المراد. وعلى ما ذكرناه لا يشمل ما تعبدون للعقلاء المعبودين كالملائكة وعزير والمسيح وعلى تعميم الخطاب واستعمال ما للفريقين يخص بغير العقلاء. ويكون قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ بياناً للتخصيص تأخر عن الخطاب وقوله ﴿أَنتُمۡ لَهَا

﴿وَٰرِدُونَ﴾ استئناف نحوي مؤكد لما قبله، أو بدل من الحصب لأن إبدال الجملة من المفرد شائع ثم استدل الباري تعالى على بطلان عبادتهم لها وعدم كون ما يعبدونه آلهة بقوله الكريم: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ كما يزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ أي جهنم لكن التالي باطل لقوله تعالى ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولقوله ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على اعتبار التخصيص ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي للمتنفسين منهم فيها زفير وهو صوت نفس المغمور يخرج من أقصى الجوف ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي يصيرون صُمّاً لا يسمعون الأصوات، أي ولا يسمع بعضهم صوت بعض لشدة الهول أو كثرة تداخل الأصوات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ أي الخصلة الحسنة وهي التوفيق للطاعة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾ أي عن جهنم مُبعدون، لأنهم في الجنة وشتان بينهما وبين النار ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي حسيس النار وهو صوتها الذي يحس به من حركتها أو حسيس الداخلين فيها. ووجه اعتبار الحسيس الإشارة إلى أنه لا يبقى لهم الصوت الجهوري ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ أي أنهم دائمون ثابتون على التنعم ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ وفسر بإطباق جهنم على أهلها وغلقها عليهم. وقيل المراد بها النفخة الثانية الحادثة لقيام الناس من القبور ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تستقبلهم بالإكرام قائلين لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وتبشرون به فيها. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بأذكر، وقيل: ظرف لقوله لا يحزنهم الفزع أي اذكر حال المكلفين يوم نطوي السماء ونلفها ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ كطي مأمور الأوراق المكتوبة لها. معناه أنه يسهل على ملائكتنا المأمورين طي السماوات كطومار كما يسهل على مأمور الأوراق طيها ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أي نعيد الخلق كما بدأناه في السهولة ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ أي وعدنا وعداً ثابتاً علينا أي الوفاء بالموعود في ذلك الوعد ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي إنا لا شك نفعل تلك الإعادة فلا تشكوا فيها.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ
لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ

مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ كثرت أقوال المفسرين في معنى هذه الآية. فقيل: إن المراد بالزبور زبور داود، أو كتب الأنبياء، وبالذكر التوراة أو اللوح المحفوظ. وبالأرض الأرض المقدسة أو الشام كلها، أو أرض الدنيا أو الجنة. وبقوله ﴿عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون من أي أمة كانوا. أو من أمة محمد ﷺ. وأظهرُ الإحتمالات أن المراد بالزبور الزبور المنزل على داود، وبالذكر التوراة، وبالأرض أرض الجنة، وبالعباد الصالحين جميع المؤمنين من أتباع كل رسول من الرسل. وذلك لأن الآيات السابقة في بيان اختصاص المؤمنين بالجنة وخلودهم في ما اشتهت أنفسهم والكافرين بالنار. ويدل على إرادة أرض الجنة قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ويظهر أيضاً أن يكون المراد من الأرض الأرض الموعودة الشاملة للقدس وبيت المقدس وسائر بلاد فلسطين. وبالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ. ومعنى الآية على الأول أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود أن أرض الجنة يرثها العباد الصالحون من أية أمة كانت على الحق. وعلى الثاني أنه أوحى إليه أن الأرض المقدسة يرثها العباد الصالحون من أمة محمد ﷺ.

وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة الثاني حيث وقعت تلك الأرض تحت سيطرة المسلمين. ويتحقق أيضاً في المستقبل بانتزاعها من أيدي اليهود المستولين عليها بإمداد من الأجانب ورجوعها إلى الصالحين من أمة سيدنا محمد ﷺ كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإن عدتم للإفساد في الأرض عدنا إلى الانتقام منكم. وقد تحقق الشرط ولا شك في تحقق الجزاء بعده. ولا يجوز أن يراد بالأرض الأرض الموعودة وبالعباد الصالحين اليهود، لأن اليهود الصالحين استولوا في زمن يوشع وفي زمان داود فلم يبق مجال لوعدهم بها لأن الأمر كان منجزاً إذ ذاك واليهود بعد زمان الرسول سيدنا محمد ﷺ دخلوا في عداد الكافرين ولم يبق مجال لتوصيفهم بالصالحين.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة من الأخبار والمواعظ البليغة وغيرها ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي كفاية أو سبب بلوغ المقصود وهو سعادة الدارين ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي مستمرين على العبادة. روي أنهم الذين يصلون الصلوات الخمس بالجماعة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بما تلوناه عليك من الأحكام ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء من أعم العلل. أي وما أرسلناك لعلة من العلل إلا لنرحم العالمين بإرسالك ونعرضهم للرحمة فإن منهم تعليم العقلاء طريق سعادة الدارين عقيدةً وعملاً وتنويرهم لإدراك الخير والوصول إلى حُسْن المعاش والمعاد. ومن تعامى عن ذلك وأعرض فإنه سدَّ بنفسه أبواب الخير والرحمة على نفسه. ومثله كمثل عاطش يعطى الماءَ ويرده، أو جائع يؤتى الطعام فينفر منه.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ في شأن وحدة الإله وتعدده ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا يتجاوز الوحدة إلى غيرها، وحاصله ما يوحى إلينا في ذلك الباب إلا قصره على الوحدة، وإن كان يوحى إلينا في غير ذلك الباب أمور وأحكام كثيرة. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي منقادون لما يوحى إلينا من التوحيد ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الإنقياد لذلك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم ما يوحى إليَّ على سواء بينكم وبين غيركم، ولم أرجح أحداً منكم على غيره من المكلفين ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي ولا أدري أن ما توعدون من العذاب والعقاب قريب أو بعيد، ولا تظنوا أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أقوالكم وأعمالكم ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ منه كما يعلم بأعمالكم سواءٌ ما تجهرون به أو تُسرون ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي وما أدري بالتأخير الذي جرى في نزول الإنتقام منكم لعله ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وابتلاء وامتحان أو إستدراج لكم ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى وقت محدود عنده تعالى. وبعد إبلاغ ذلك إليهم ﴿قَٰلَ﴾ ﷺ داعياً عليهم ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي رب اقضِ بالعدل حتى يتميز الأهل من غير الأهل ثم قال ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ البالغ في الرحمة ومنها تأجيل العذاب والعقاب ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون لنا ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وتذكرونه من أنّ الغلبة لكم، ونطلب منه أن يجعلنا غالبين عليكم لتعلو كلمة الحق والدين.

سورة الحج

مدنية، وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ خطاب يعم حكمه جميع المكلفين الموجودين عند النزول، وغيرهم من الموجودين الغير المكلفين الذين سيوجدون إلى يوم القيامة بطريق التغليب. فالتقوى عما لا يرضى به الله تعالى مأمور به. وقوله ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ﴾ تعليل لموجب الأمر بذكر حادثة هائلة؛ فإن ملاحظة ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأهوال يوجب مزيد التدرع بدرع التقوى. وزلزلة الساعة زلزلة تحدث من النفخة الأولى عند إرادة الباري تعالى إماتة ذوات الأنفس. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن زلزلتها زلزلة عند قيامها وبعث الأموات من القبور.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ منصوب بإضمار اذكر. ثم إن قوله تعالى ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ إن كان مبنياً على الفرض والتقدير أي لو كنتم ترونها عياناً علمتم أنه تذهل كل مرضعة عما أرضعت. فذاك جائز على الإطلاق أي سواء كانت زلزلة الساعة من النفخة الأولى أو من الثانية. وإن كان مبنياً على الواقع وجب أن يراد من زلزلة الساعة الزلزلة الأولى التي هي مقدمة لخراب الأرض وما عليها من الجبال. فإن الناس إذ ذاك موجودون

والنساء المُرضعات والحوامل والحوائل موجودات، ويتحقق ما أخبر به الصادق ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي يراهم كُلُّ واحدٍ في صورة السُّكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ في حقيقة الحال ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أي إن شدة الهول في ذلك اليوم تجعلهُم كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يجادل في وحدة الله وإنزال الكتاب على الرسول، وإحياء الموتى، ووجود الحساب والميزان بغير علم موهوب أو مُكْتَسب من الأساتذة بالطُّرُقِ المعتادة ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متجرد للفساد والإفساد. من قولهم شجرة مرداء لا وَرَق لها. والشيطان يشمل شياطين الإنس والجن. والآية نزلت في النضر بن الحرث. وقيل: في أبي جهل. وقيل: في أبي بن خلف. ولا مانع من نزولها في الكل ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ وفي الآية وجوه من التراكيب، وأظهرها: أن كُتب فعل مجهول وما بعده نائب فاعله بتأويله بالمصدر. وضمير أنه للشأن، وباقي الضمائر لمن وهي إما شرطية والفاء داخلة على جملة الجزاء، وإما موصولة والفعل بعده صلة، ووجود الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط. وعلى التقديرين فالجملة مبتدأ وخبر، وجملة ويهديه إلى عذاب السعير معطوف على الخبر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إقامة للحجة على البعث بإظهار آثار قدرته وحكمته في خلق الإنسان. فيقول يا أيها الناس إن كنتم في أقل ريب وشك وشبهة من البعث، أي من قدرتنا على إحياء الموتى وبعثهم من القبور، فانظروا وتفكروا تفكراً مقروناً بدقة في آثار قدرتنا في خلقنا لأشرف

الموجودات العالمية وهو الإنسان ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ يا بني الإنسان باعتبار أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خلقناكم عند إرادة البث والتناسل ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من ماء صافٍ ممزوج من ماء الوالدين باق في رحم الوالدة أربعين يوماً ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة من الدم المتكون من ماء المني ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من ذلك الدم ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي مصورة باعتبار آخر أحوالها ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غير مصورة باعتبار أول أحوالها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلق بقوله خلقنا، أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم ما لا تحصره العبارة من الدقائق التي من جملتها أمر البعث، فإن من أمعنَ النظر فيها جزم بأن الأثر الذي هو ممكن من الممكنات لا يترجع وجوده على عدمه بدون مرجح يُرَجح ذلك الجانب على هذا، وهو الفاعل المختار، وأن الفاعل لا يمكن أن يكون مجرداً من الشعور والإختيار، لأن هذه الأشكال الغريبة والصور العجيبة تدل دلالة قاطعة على أنها أثر فاعل كامل قادر على التصرف في ما يخلقه، فإن هذا المخلوق الفائق الممتاز بالصفات العالية لا يحصل من فاعل بلا شعور، فتبين أن الفاعل حي قادر مختار، فإذا ثبت هذا ثبت أن البعث بعد الإماتة سهل يسير.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ﴾ بعد ذلك ﴿مَا نَشَاءُ﴾ أن نقره فيها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين هو وقت الوضع. وأدناه ستة أشهر غير لحظتي العُلوق والوضع، أقصاه أربع سنين عند الشافعي، وستتان عند أبي حنيفة رضي الله عنهما.

وهذه الفقرات من هذه الآية الكريمة ينبوع ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم يكونُ علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملكُ فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. فوالله الذي لا إله إلا هو! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**» رواه البخاري ومسلم.

ومن الناس من يقع في الإشتباه من هذا الحديث الشريف زاعماً أن الكتاب الذي يسبق عليه كتاب ناشىء من قهر الباري وسلب الإختيار عنه، وحاشاه من

ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لو جعل الأعمال تحت القهر والسيطرة فلماذا أرسل الرسل وهدى المكلفين إلى الصراط المستقيم وبين لهم طريق الهدى والضلال؟ بل إن ذلك الكتاب ناشىء من علمه الأزلي بأنه تعالى يخلق ذلك الإنسان ويخلق فيه العلم والقدرة والإرادة وإمكانية التصرف والتوجه إلى ما يريده سلباً وإيجاباً، وأن ذلك الإنسان صاحب شعور كامل واختيار تام وبحسب اختياره أحد الجانبين يتوجه إليه خيراً كان أو شراً، والله تعالى يخلقه له. فمن الإنسان من تكون توجهاته مطلقاً إلى الخير وهم المعصومون. ومنهم من تكون توجهاته مطلقاً إلى الشر وهم الكافرون الخاسرون، ومنهم من تكون توجهاته أولاً إلى الخير ثم تتحول إلى الشر فيدخل النار، ومنهم من تكون توجهاته أولاً إلى الشر ثم تتحول إلى الخير فيدخل الجنة. وهو في كل ذلك صاحب شعور وإرادة واختيار. وعلى علمه بهذه الأحوال أيضاً قوله ﷺ: «**السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه**» يعني أن السعيد من علم الله تعالى سعادته في بطن أمه لأنه علم أنه يتوجه إلى الخير ويموت عليه، وأن الشقي من علم الله شقاءه في بطن أمه، لأنه علم أنه يتوجه إلى الشر ويموت عليه. فكل ذلك مبني على أعمال الإنسان نفسه المعلومة للباري تعالى أزلاً قبل خلقه وعند خلقه وهو في بطن أمه وبعد ذلك عندما يخرج إلى الأعمال.

وإذا كان الأمر كذلك اندفع توهم من قال أنه ما دام كنت سعيداً في بطن أمي فلا أعمل أي عمل صالح لأنه تقررت سعادتي وأنا في بطن أمي، أو ما دام كنت شقياً في بطن أمي فلا تنفعني الأعمال الصالحة، وذلك لأن علمه تعالى متوجه إلى أعمال الإنسان في أيام حياته يعلم أنه يعمل الخيرات أو يعلم أنه يعمل غيرها، وهذا التوهم مثل توهم من يقول: ما دام الله علم أن عمري مائة سنة فلا آكل ولا أشرب شيئاً وأبقى لقضاء تلك المدة بلا زاد ولا ماء وذلك لأن الله علم ببقائه مائة سنة حسب علمه بأنه يأكل ويشرب ما يناسبه حسب العادة ويداوي مرضه ويدفع مهلكاته إذا عرض شيء منها والحاصل أن علمه تعالى مربوط بجميع أعمال الإنسان ومكتسباته وعليه يتقرر أمره في العاقبة. وكذلك يسقط توهم من يقول: إن البلاء الوارد ما دام جرى به القضاء فكيف تدفعه الصدقة أو الدعاء وذلك لأنه تعالى علم أنه كلما أنزل عليه بلاء ألهمه دعاءً أو صدقة تكون حافظة له عن مضرة ذلك البلاء، وإلا لزم سدّ باب الدعاء من أي داع لجلب أي خير أو دفع أي شر مع أن الدعاء

مخ العبادة، ورغب فيه الباري سبحانه ورسوله ﷺ، فعلم من هذا التفصيل أن ما جرى به علمه تعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن علمه جارٍ بذلك حسب انكشاف أعمال المكلفين عنده.

وإن قال قائل: فإذا كان علم الله لا يتغير ولا يتبدل فما معنى ما اشتهر في بعض الأدعية من قول الداعي (إن كنت كتبتني شقياً أو مطروداً أو مقتراً عليّ في الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وطردي وإقتار رزقي)؟ فالجواب أن ذلك مبني على كتابته في اللوح المحفوظ القابل للتغيير والتبديل، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ ويجوز أن يكون دعاء ذلك الداعي شرطاً ومعلقاً عليه لتحقق ذلك المطلوب المرغوب فيه فاحفظ ما ألقيته إليك فإنه مأخوذ من تحقيقات العلماء المحققين.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي من الأرحام حال كونكم ﴿طِفْلًا﴾ ضعيفاً نحيفاً تحتاجون في كل وقت وساعة إلى رعاية ورقابة من جهة الغذاء والملبس والمسكن وغيرها حتى تتقوى أعضاؤكم ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي كمالكم في القوة بدناً وعقلاً وعلماً، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين. وأشد مفرد جاء على وزن الجمع كآنك ولا ثالث لهما. أو جمعٌ لا واحد له من لفظه، أو مفرده شدة بالكسر وهو جمع على خلاف القياس، لأن فعلةً بالكسر لا تجمع على أفعل ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي قبل بلوغ الأشدّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أردئه وأدناه مثل زمن الطفولة ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ كثير أخذه كسباً أو وهباً ﴿شَيْئًا﴾ أي شيئاً يعتنى به، وإلا فلزوم علم الإنسان بنفسه من ضرورياته التي لا تنفك عنه. وهذه التطورات الواردة على الإنسان حجة قاطعة للإنسان على وجود خالقه القدير واتصافه بالكمال وعلى بعث الموتى في وقته لمحاسبته على عمله وأخذه لمصيره أي مصير.

ثم جاء بحجة أخرى عليه وقال ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي ميتة يابسة لا تنبت ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أي تحولت ونفشت أجزاؤها الداخلية ﴿وَرَبَتْ﴾ وَعَلَتْ وانتفخت ﴿وَأَنبَتَتْ﴾ النبات ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي كل صنفٍ حَسنٍ وهذه الأحوال العارضة على الأرض اليابسة حجة أخرى على بعث الموتى

إذا أراده تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر المذكور المقرر من تكوين الإنسان وتدرجه في مدارج الشخصية واهتزاز الأرض اليابسة وإنباتها النبات ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت بالذات والوجود الواجب ووجود الغير مستفاد من إرادته ومربوط بدوام تعلقها ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي شأنه وعادته ذلك ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾ سلباً وإيجاباً ونفياً وإثباتاً ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ المعروفة لتميز أهل المعروف من أهل المنكر ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ في وقتها المقرر ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا يليق بأن يرتاب فيها العاقل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يوم البعث والنشور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ نزلت هذه الآية الكريمة فيما نزلت فيه الآية السابقة، فالتكرار مبالغة في الذم، أي ومن الناس من يجادل ويتكلم بغير حق فينكر وجود الباري تعالى أو وحدته أو سائر ما شرعه الله تعالى حسب ما تسمح به نفسه وهواه بغير علم ذاتي فطري من البديهيات ولا هدى يهتدي به إلى الحق بطريق الإستدلال، ولا استمداد من كتاب نزل من السماء ينير القلب ويرشده إلى الصراط المستقيم لأن حق المتكلم أن يتكلم عن علم، وعلمه إما من البديهيات الحاصلة بدون نظر أو من النظريات الحاصلة بالاستدلال أو من تعليم المرشد الأرشد الذي يرشد العالم إلى الصراط المستقيم وهو الوحي والكتاب المنزل من الله تعالى فإذا لم يكن له سند من هذه الوجوه فسكوته في تلك المواضع واجب. وقوله ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال من ضمير يجادل أي حال كونه يلوي جانبه ويتولى ويستدبر كُلَّ من أرشده إلى الخير وذلك

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أو يجادل ليضل عن سبيل الله من لا قوة له على رد كلامه ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهوان وحقارة لما يلقاه كالقتل يوم بدر أو كالفشل في مهمته بين الناس ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار البالغة في الإحراق ويقال له في وقت إحراقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي بسبب ما اكتسبته من الكفر والمعاصي ﴿وَ﴾ الحق ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إذا جازى المسيئين بالتعذيب جزاء وفاقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ استئناف لبيان أحوال الناس المذبذبين الغير الثابتين على الإيمان فيؤمنون إذا جاءهم الخير ويكفرون إذا جاءهم غير ذلك فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على طرف وجانب من الأحوال والعوارض الواردة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ أي عافية وثروة وأولاد وجاه وما شاكل ذلك ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وثبت قلبه على إيمانه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي ما يفتتن به الإنسان من البلايا والمحن النفسية أو غيرها ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي أكب على وجهه غير راءٍ يمينه وشماله وأمامه وخلقه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ لافتتانه فيها وإصابته المحنة ﴿وَ﴾ خسر ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ معها لعدم ثباته على الإيمان ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخسران الذي أصابه ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح أنه خسران بدون شبهة وريب. ومع أنه خسر الخسران المبين ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ من الأصنام المفتعلة و﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الطريق فإن الضال القريب من الطريق يسهل وصوله إليه بسبب ما، وأما الضال المبتعد عن معبر الناس فقلما يهتدي إلى الطريق المعتاد ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ يدعو بمعنى يزعم أو يقول، واللام واقعة في الجملة الواقعة مقولاً له وهي لام الابتداء و﴿مَنْ﴾ مبتدأ و﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة من، وقوله تعالى ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ جواب قسم مقدر واللام فيه جواب القسم وجملة القسم وجوابه خبر من، أي يقول الكافر برفع صوته لمنْ ضره أقرب تحققاً من نفعه والله لبئس المولى الذي يتخذ ناصراً ولبئس الذي يعاشر من أمثاله. وإنما كان ضره أقرب من نفعه لأن من يعبده يتضرر فِعلاً باشتغاله بالعكوف حوله وتهيئة لوازم عبادته رسماً، وأما النفع فلا تحقق له قطعاً.

ولما ذكر أحوال الكافرين المصرين المستمرين على الكفر، والناس المذبذبين المترددين بين الكفر والإيمان بين كمال حسن أحوال المؤمنين الثابتين

على الإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ وهو تعالى يحقق ذلك بلا شبهة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وفي هذه الجملة تقرير وتعليل لما قبله.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الضمير في ينصره الله عائد إلى رسول الله ﷺ المستفاد من المقام ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فليمدد حَبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ أي ثم ليختنق من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي فليتفكر الآن قبل مباشرته لذلك العمل هل يذهبن عمله ذلك سبب غيظه وهو نصر رسول الله ﷺ. والحاصل أن الله قد قدر وقرر نصرة دينه ونصرة رسوله محمد ﷺ في دعوته ومهمته وهذا شيء مقرر لا بد منه. فمن لا يرضى بذلك فليختنق بحبل في بيته وليتفكر قبل الحادثة: هل يُذهبُ اختناقه بحبل معونة الرسول ونصره؟ وإذا أجبنا الإستفهام قلنا: كلا ولا يفيده ذلك العمل شيئاً أبداً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال المشتمل على الحكم والمصالح أنزلنا القرآن الكريم حال كونه آيات واضحات الدلالة على المقصود ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي وأمره أن الله يهدي من يريد هدايته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ الصابئون: قوم كانوا يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرأون

الزبور. وفي القاموس: هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار. وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني: إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام، وكان يقال لمقابليهم الحنفاء أي الإبراهيميون. وكانوا يقولون: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته، وأمره وأحكامه جل جلاله إلى متوسط روحاني (كالملائكة) لا جسماني. هذا.

والحاصل إنهم موجودون في العالم من قديم الزمان، ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات، وكانوا يعظمونها تعظيماً مفرطاً، ولما لم يتيسر لهم الاتصال بهم ذاتاً نزعوا إلى ما اعتبروه هياكل لهم كالكواكب السيارات، وبعض الثوابت. ولما لم يكن لهم كتاب معلوم ادعوا الانتساب إلى النصرانية، وبذلك خلصوا أنفسهم من بعض أمور تعتري غير الكتابيين. ولفظ الصابئة مأخوذ من صبأ أي مال. وفي العرف خرج من دين إلى آخر لأن أساس اعتقادهم على عبادة الروحانيات، ومنها إلى عبادة الكواكب، ثم إلى أديان معتادة بحسب الأزمان من دين نوح أو إبراهيم إلى داود أو المسيح عليه السلام وتحقيق أحوالهم في الدين والإعتقاد يحتاج إلى مماشاة معهم ومداراة لهم دهراً طويلاً، لا في بقعة واحدة فقط بل في بقاع كثيرة، وهذا لا يمكن إلا لصاحب قدرة وثروة ونفوذ يرسل المفتشين إلى بلاد عديدة.

وحاصل ما تقرر في الفقه أنهم يدعون في زماننا الانتساب إلى دين النصرانية فيسأل علماؤها إذا اعترفوا بهم اعترفنا بهم، وإلا فلا.

وأما المجوس فهم يعبدون النار ويعظمونها وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني ما يدل على أنهم طوائف وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى، وأنهم يقولون بالشرائع بخلاف الصابئة، وأن لهم شبهة كتاب، وأنهم يعظمون النار، وأن بيوت النيران للمجوس كثيرة. وقال بعض في تحقيق لفظ (مجوس) أن أصله منج كوش أي صغير الأذنين، وهو الذي أسس هذه النحلة. وقال بعض آخر: إن أصله موكوش يعني أنهم لا يحلقون شعر رؤوسهم فيتركونه حتى توصل شعور رؤوسهم إلى آذانهم.

والمراد بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ عبدة الأوثان. وقيل يعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى إلهاً آخر من ملك أو كوكب. وحاصل معنى الآية: إن الله سبحانه

وتعالى لا يترك الناس على ما اعتقدوه حقاً أو باطلاً، وإنما يؤخرهم ليوم المحاكمة، وهو يوم القيامة، فيفصل فيه بينهم، ويأخذ منهم كتاب أعمالهم، وكل يجزي بما يستحقه، ولا مجال لاختفاء أي واحد من حضور المحكمة التي يفصل فيها الباري سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾؟ الخطاب فيه جار مع الرسول ﷺ أو مع كل من يمكن منه الرؤية. والرؤية هنا رؤية علمية. وفي معنى السجود أقوال كثيرة، فجاء بمعنى الخضوع والتذلل، وجاء بمعنى وضع الجبهة على الأرض. والرأي المُصيب هو أن المراد بالسجود هنا الإطاعة اختياراً، فأسند الباري تعالى ذلك السجود إلى المذكورات في الآية الكريمة. وكل منها يسجد للباري سبحانه وتعالى سجوداً يعرفه هو لا غيره. وذلك على وزان قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. ﴿وَ﴾ كذلك ﴿كَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الموفقون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فلا يفتح لَهُ إلى السجود بابٌ، وذلك يصرف إرادته إلى ما لا يرضى به الله ورسوله، ويستمر عليه فيطبع على قلبه. وهذا الصنف من الناس أهانهم الله تعالى ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ إذ لا مجال لمعارضته إرادة الباري تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ المراد به فريق المؤمنين وفريق الكافرين على

الإطلاق، وروي عن ابن عباس ﵄ أنه قال: تخاصم المؤمنون واليهود. فقالت اليهود: نحن أولى بالله تعالى منكم وأقدم نبياً وكتاباً. وقال المؤمنون: نحن أحق بالله تعالى، آمنا بمحمد ﷺ وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا وتركتموه وكفرتم به حسداً. فنزلت الآية.

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن أبي ذر ﵁ إن كان يحلف حلفاً أنّ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ نزلت في الثلاثة، الذين بارزوا يومَ بدر، وهم حمزةُ بنُ عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث من جهةٍ. وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عُتْبَة من جهةٍ أخرى. وفي الآية تقسيمٌ وجمعٌ وتفريقٌ. فالتقسيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ والجمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلى قوله ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ والتفريق في قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾. وفي قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ إستعارة تمثيلية تهكمية حيث شبهت الهيئة الحاصلة من أمواج النار المتراكمة وإصابتها لكل عضو من أعضائهم وتأثرهم بها تأثراً فاجعاً بالهيئة الحاصلة من تقطيع الثياب على حسب حجم أعضاء البدن ولبس بعضها فوق بعض، وذكر اللفظ الدال على المشبه به.

وقوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ جملة مستأنفة لزيادة وجوه أُخر من أصناف التعذيب على ما ذكره. أي ويفاض من فوقهم الماء الحار الذي وصلت حرارته إلى درجةٍ لا تطاقُ ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ أي يُذابُ به ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ من الأجزاء الباطنة كالكرش والأمعاء والأحشاء ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ ذكرها لإفادة شدة تأثير النار بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدمُ من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها بالعكس ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ أي وَأعد لهم عند الزبانية مطارق من حديد ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ أي من أجل الهرب عن غم عَرَضَ عليهم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي ردوًا إلى أعماقها ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي ويُقال لهم: ذُوقُوا عذاب الحريق. ذلك أحوال الفريق الكافرين.

وأما أحوال فريق المؤمنين فقد أفادها بقوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ من جانب الملائكة بأمره تعالى ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ عطف على محل الجار

والمجرور ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ناعِمٌ يلتذ به بشرة الإنسانِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي وأرشدوا إلى القول الطيب وهو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي في الدنيا. وحاصله أنهم لما أرشدوا في الدنيا إلى صراط الله العزيز الحميد وهو الإسلام وعملوا بمقتضاه هُدوا في الآخرة إلى الطيب من القول، فكان مبدؤهم ومُنتهاهم خيراً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي أن الذين كفروا بالله ورسوله ويصدون الناس عن السلوك في سبيل الله أي الإسلام أي يمنعون الناس عن أن يسلِموا، وعن الدخول في المسجدِ الحرامِ لأجل العبادة أو لطواف بيت الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي المسجد الحرامَ الذي قررناه للمسلمين من الناس ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ﴾ أي المقيم ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي الطارىء الوارد عليه من الخارج ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ أي ومن يرد فيه أيَّ سوء بالناس حال كونه متلبساً بإلحاد أي ميل عن الحق إلى الباطل وقوله ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي إما في معنى الإلحاد فيكونان حالين مترادفين، أو بدل من قوله بإلحاد، أو متعلق به وقوله ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب الشرط، وخبر إن محذوف يدل عليه هذه الجملة، أي فلهم عذاب أليم.

وهذه الآية نزلت في مشركي مكة الذين منعوا دخول الرسول ﷺ وأصحابه مكة لأداء نسك العمرة عام الحديبية حيث منعوهم عنه، ثم صالحوه على عودهم في العام القابل. وقد استشهد بها بعض الأئمة على عدم جواز بيع دور مكة وإجارتها، وإلا لما استوى العاكف فيها والباد. وقد ورد التصريح بذلك في بعض الأحاديث الشريفة. واتفق فقهاء الحنفية على جواز بيع بيوتها، وأما أراضيها فعند الإمامين جائز بلا كراهة. وعن الإمام أبي حنيفة روايتان: الجواز، وعدمه. والمفتى به الجواز. وأما الشافعي فيجوز عنده بيع البيوت والأراضي التي أحْيَوْها، كما دلت عليها الأخبار، ولم يزل الناس يتبايعونها. وأما خبرُ «مكة لا تباع رباعها ولا تؤجر دورها» فضعيف. وأما قوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ فالمقصود مساواة المقيم وغيره في المسجد الحرام وما ألحق به من محلات أداء المناسك. والوعيد في الآية الكريمة لمن يصدون الناس المسلمين عن زيارة المسجد الحرام وأداء المناسِكِ مِن الحج والعمرة.

جرت مناظرة بمكة بين الإمام الشافعي وإسحاق ابن راهويه رضي الله عنهما. وكان إسحاق لا يُرخص في كراء دور مكة. فاحتج الشافعي بقوله تعالى: ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فأضيفت الديار إلى مالكيها. وقوله ﷺ يوم فتح مكة: «**من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» وبأنه قد اشترى عمر رضي الله عنه دار السجن، أترى أنه اشترى مِن مالكيها أو غير مالكيها؟ قال إسحاق: فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركتُ قولي.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيلِ اللّهِ وَعن المسجد الحرام وقتَ جَعْلِنا مَكان البيت مَباءَةً لجدهم إبراهيم عليه السلام، أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، أو بينا له مكان البيت ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون إليه ويحجونه ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أن مفسرة لَبوَّأنا من حيثُ أنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العِبادة، أو مصدرية موصلة بالنهي، أي فَعَلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وَوَصل أن بالخبر والإنشاء سائغ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أمره الله تعالى بتطهير بيته للجمع المذكورين، والطهارة يراد بها ما يشمل الحسية بأن يطهر من الأوساخ والأقذار، والمعنوية كعبادة الأوثان والأعمال اللاغية للإنسان. والمراد

بالطائفين الذين يطوفون بالبيت لأداء النسك وبالقائمين المصلون. وذكر الركع السجود لإفادة معظم أركانها مع القيام. ويجوز أن يُراد بالطائفين الناسكون القادمون من خارج الحرم وبالقائمين المقيمون فيه منهم فيبقى الركع السجود لبيان المصلين فيه.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أذن أمر من التأذين بمعنى النداء والإعلان، ورجالاً جمع راجِلٍ كقيام جمع قائم، والضامر البعير المهزول، والفج الطريق، والعميق البعيد. أو المراد به الطريق الغائر في الأرض لكثرة عبور الغابرين عليه. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال: رب قد فرغتُ، قال: أذّن في الناس بالحج. قال: يا رب وما يبلغُ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ. قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كُتب عليكم الحج إلى البيت العتيق. فسمعه أهل السماء والأرض. ألا ترى أنهم يجيبونَ من أقصى البلاد يلبون؟ وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج. والحاصل أنك لما بنيت البيت بأمري أعلن وناد بالناس ليأتوا إلى الحج مُشاة عَلى الأقدام أو ركباناً على كل حيوان مهزول يأتين من كل طريق بعيد من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها. وقد نادى وأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء. وإيقاع الإتيان على ضمير المخاطب في يأتوك لأنه أول مَنْ نادى، فكأنّ المجيبين أتوه على ندائه. وقوله ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي ليشهدوا منافع دنيوية أو دينية على سبيل منع الخلو، وذلك كالتجارة واشتراء ما يراه من الحاجيات التي قلما توجد في غير الحجاز، والإطلاع على البيت ومحلات أداء المناسك، والعلم بكيفية السلوك والمسالك، والتفاهم مع العلماء والقادة الوافدين من سائر الممالك. وبذلك يتبصر العاقل لأموره في مستقبل حياته. ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند النحر والذبح ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وهي أيام التشريق: يوم العيد وثلاثة أيام بعده ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والضأن والمعز السليمة من العيوب المخلة باللحم، فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة من المرض والعمى والعرج وغيرها ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاج. وذكر البائس الفقير للترغيب في رعايته لا للتخصيص، فإن الضحايا يأكل منها أصحابها والأغنياء والفقراء، ولا يختص بالفقراء إلا المنذورة ونحوها على ما فصل في الفقه.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي يزيلوا عنهم كقضاء الواجب الفائت ما يتوسخ به الإنسان من العوارض أي يزيلوا ذلك بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب، وحلق الرأس ونتف الإبط والعانة، فإن إزالتها ممنوعة بعد الدخول في الإحرام بالنسك ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون به من أعمال البر في حجتهم ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي الكعبة الشريفة طواف الإفاضة ويسمى طواف الزيارة، وهو ركن من أركان الحج. ويوصف بالعتيق لأنه عتق من استيلاء الجبابرة عليها أو يعتق من الخلود في النار من يطوف به مؤمناً بالله ورسوله. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ﴾ أي التكاليف التي احترمها الشارع وحرَّم عَلى الناس الإعتداءَ فيها بأن يأتي بها على الوجه المشروع المقرّر علماً وعملاً ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي فتعظيمه خير له لأنه يثاب عليه عند ربه. وليس المراد بالخير التفضيل لأنه لا فضل في المقابل، وإذا كان المراد بالتعظيم الأداء على الوجه الأكمل فللتفضيل وجه وجيه لأن أداءه كاملاً خير، وذلك خير منه. وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ﴾ جملة معترضة مقررة لما قبلها من الأمر بالأكل والإطعام دافعة لما عسى أن يتوهم أن الإحرام يُحرم ذلك كما يحرم الصيد. وقوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتلى عليكم تحريمه إستثناء متصل بناءً على أنّ ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهلّ به لغير الله ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ﴾ الرجس الشيء المستقذر، ومن للبيان أي فإذا تبين لكم الحج المشروع وأنه زيارة بيت الله لذكره والإختصاص به والتزام دينه وهو التوحيد فاجتنبوا وابتعدوا عن الشيء المستقذر وهو الأوثان. ولما كانت ذواتها ووجودها في أماكن العبادة مما يوهم عبادتها والإشراك لها مع الله سبحانه وتعالى صارت من جملة المستقذرات، وإن كان المستقذر هو طاعتها واحترامها ﴿وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي مطلق الكذب في أي موضوع وفي أي بابٍ كان، أو شهادة الزور مطلقاً، أو على استحقاق الأوثان للعبادة.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي مائلين عن الباطل إلى الحق حال كونكم غير مشركين شيئاً من الأشياء جامداً أو نامياً، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي فتأخذه وتأكله أو ﴿تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ﴾ أي تُسقِطه وتقذفه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي بعيد عن المعمورة لا يجده من يتفقده فينمحي ذاتاً وأثراً، فإن الإنسان بفطرته السليمة في مقام عال والمسلم المنقاد لله كذلك فإذا

ضيع صفاء الفطرة أو ترك ما هو عليه من علو التوحيد وأشرك بربه فيشبه إنساناً قائماً على مقام عال وبينما هو كذلك إذ سقط إلى الأسفل وتمزق وخطفت أجزاءه الطيور الضارية، أو رمت به الريح من فوق ذلك المكان العالي إلى محل ناصٍ غائرٍ لا مجال فيه للراحة. وحاصل المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكتْ نفسه هلاكاً يشبه الهالكين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي أركان عبادات الله من الحج وغيره، أو يعظم الأنعام التي يذبحها في الحج بأن يأخذها كثير اللحم وفير الشحم ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فتلك الشعائر باعتبار اتخاذها أي اتخاذها كما أمرنا ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لكم في الشعائر بمعنى الأنعام منافع من: الدَّرّ، والنسل، والصُّوف، وركوب الظهور، إلى وقت معين وهو وقت اعتبارها هدياً ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي وجوب نحرها منتهٍ إلى البيت العتيق أي إلى ما يليه بعلاقة أداء المناسك فيه وهو المنحر كمِنىً.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطف على قوله سبحانه ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ والمنسك إما اسم مكان أي مكان النسك، أو مصدر ميمي وهو في الأصل بمعنى العبادة مطلقاً، وشاع استعماله في أعمال الحج، وبالخاصة الذبح. أي ولكل أهل دين جعلنا متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله تعالى وذلك ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها دون غيره تعالى ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وإنما جعلنا ذكر اسم الله غاية في النسك لأن إلهكم إله واحد هو الله تعالى فلا اعتبار ولا صحة لذكر غيره ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي فله تعالى أطيعوا وانقادوا ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا رَسُولي ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعين له تعالى.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت قلوبهم من فيضان أنوار الإيمان عليها ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من متاعب الإستقامة في دين الله وتحمل ما يعرض عليهم من الواجبات كالجهاد وإرشاد العباد وغيرها من مهمات المسلم ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يصرفون المال المرزوق الموجود عندهم بطريق أداء الواجبات المالية كالزكاة والنذور الكفارات، أو الصدقات التطوعية كالهدايا وما شاكلها ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البدن جمع بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة، وفي القاموس هي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم أي وجعلنا البدن لكم من أعلام دين الإسلام التي شرعها الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي نفع في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ بأن تقولوا: بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك، عند ذبحها حال كونها قائمات قد صففنَ أيديَهُنّ وأرجُلَهُنّ. فقوله ﴿صَوَافَّ﴾ جمعُ صافةٍ ومفعوله مقدر كما ذكرناه ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت جنوبُها على الأرض وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ أي الذي يرضى بما يُعْطى من غير سؤال ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي المعترض للسؤال. والمقصود تعميم الإعطاء للسائل وغيره ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي مثل ذلك التسخير سخرناها لكم حتى تذبحوها مع كمال قوتها ومنعتها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أي لن يصيب رضا الله تعالى لحومها المتصدق بها ولا دماؤها المُهْراقَةُ ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي ولكن يصيب رضاه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى ذبحها تقرباً ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي مثل ذلك التسخير سخرها لتعظموا ربكم سبحانه وتعالى وتعرفوا عظمته على هدايته لكم على التقرب بذبحها إلى الله وحده، أو على طريق تسخيرها ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين لله تعالى فيما يأتون ويذرون.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ

كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كلام سيق لإفادة استقرار قلوب المؤمنين وترغيبهم في الاستقامة على ما أمروا به وتأكيد اعتمادهم على الله ببيان أن معهم التأييد من الله، وأنه يدافع عن الذين آمنوا وكلما احتاجوا إلى معونة ومدد أعانهم الله وأمدهم وأنه لا يحب الكافرين لأنهم خائنون مع أهل الحق ومع أمتهم ومجتمعهم وأنه لا يحب كل خوان كفور. وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الآية أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في المستدرك. وعن أبي العالية: إن أول آية نزلت فيه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ وفي الإكليل: إن أول آية نزلت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وروى جماعة أنها نزلت في أناس مؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاتبعهم كفار قريش فأنزل الله تعالى لهم في قتالهم. والمعنى إن الله تعالى رخص لهم أن يقاتلوا الكفار بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم. وقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي لا موجب لإخراجهم إلا توحيدهم لله فالكلام من قبيل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ تحريض للمؤمنين على القتال المأذون فيه، ويفيد أن هذا القتال فيه فائدة كبيرة إذ لولا دفع الله الناس بعضهم الظالمين ببعض من المحاربين الأبطال المدافعين عن الحق ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ المعابد من ﴿صَوَٰمِعُ﴾ الرهابنة ﴿وَبِيَعٌ﴾ النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ اليهود أي كنائسهم سميت بذلك لأنها يصلى فيها ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمؤمنين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي من ينصر دينه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء وقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وصف للذين أخرجوا أي إنهم الذين إن مكناهم في الأرض ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟

عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ والمراد بالصلاة والزكاة الركنان المعلومان للإسلام، والمراد بالمعروف كل أمر واجب أو مندوب، والأهم التوحيد، والمراد بالمنكر كل حرام ومكروه والمهم هو الشرك بالله. ومعنى قوله ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إن مرجعها إلى حكمه تعالى، وتقديم الظرف للحصر والاهتمام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾... الآية تسلية للرسول محمد ﷺ في ما جرى عليه من التعب والملال في تبليغ رسالته فيقول الباري تعالى ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فاصبر على أذى التكذيب كما صبر الرسل السابقون على تكذيب قومهم لهم إذ ﴿قَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿و﴾ كذبت ﴿عادٌ﴾ هوداً ﴿وَثَمُودَ﴾ صالحاً ﴿و﴾ قوم ﴿إبراهيم﴾ إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً ﴿و﴾ كذبت ﴿أصحابُ مدْين﴾ شُعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ من جانب الأقباط ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق منهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الملذات. ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي أهلكنا كثيراً من القرى ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ والحال أنها ظالمة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي فهي ساقطة على سقوفها بأن لم تتحمل البنيان السقوف فسقطت أولاً ثم انهارت الحيطان عليها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم بئر معطلة لا يُسْقى منها لموت أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾؟ أي وكأين من قصْر مشيدٍ مرفوع البنيان أخليناه عن ساكنيه. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حث لهم على التجوال في العالم ليروا معالم بيوت الهالكين ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من توحيد

رب العالمين ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي ومن أخبار الأمم التي يعتبر بها المعتبرون. وسبحان الرب الخالق من أحوال الناس الذين نسوا الإعتبار بكلمات الوحي، وأهملوا التفكير في ما ينفعهم من الآثار الدالة على وجوب إتباع الحق والإستفادة من أخبار الأمم الماضية فإن قوماً لم يكونوا كذلك قلوبهم معمية لا تدرك الحقائق، وهي المصيبة العظمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي لا يضر عمى الأبصار بعد إدراك البصائر ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ولكن المضر هو عمى القلوب التي أودعت في الصدور للتفكر في ما ينفع وما يضر والإحتراز عن الثاني والإقتراب من الأول.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي مشركو قريش ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الذي تتوعدهم به ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بأي شيء في الدنيا أو في الآخرة ومن أصدقُ من الله قيلاً والزمان البعيد عندكم قريب عند الله تعالى والأيام الكثيرة عندكم قليلة عند الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهذه الجملة مستأنفة وبيان لِتمادي صبره وتأنيه بحيث يستقصر المُددَ الطوال يعني إنه يأتيكم العذاب الموعود إن لم تتوبوا إلى الله ولم تؤمنوا به وبرسوله ولو بعد مدة طويلة عندكم فإن الطويل عندكم قصير عندنا، أو إن الجملة لبيان طول الآخرة ومدة عذابهم فيها، ولهم في العذاب أحقاب وأيام لا نهاية لها وإن يوماً من أيامه في الآخرة كألف سنةٍ مما تعدون. أو لبيان شدة عذابهم عند التعذيب فيوم من أيام عذابهم كألف سنة مما يعدون. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي كم من سكنة القرى باشروا بالظلم أعمالاً فاسدة وأمهلناهم إلى وقت مقدر لتعذيبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد طول الإمهال هذا في الدنيا ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيرهم في الآخرة فأعاقبهم بما يستحقون.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب عام للمؤمن والكافر والمنذر به قيام الساعة. أي أيها الناس إنما أنا لكم منذر إنذاراً بيناً واضحاً بقيام الساعة وما بعدها من الأهوال فالكافر العاقل يجب أن يتفكر في عواقبه ولا يستمر في ضلاله ويتوب إلى الله ويؤمن به وبرسوله، والمؤمن يجب أن يزيد في أعماله الصالحة ولا يغتر بها ويخاف من عواقب أمره في مستقبله حتى لا يقع في المتاعب بعد قيام الساعة. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي حتى وافاهم الأجل ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ من الله لزلاتهم وأخطائهم ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ في الجنة. ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي بذلوا الجهد في معارضتها وإلقاء الشبه إلى قلوب الناس منها حال كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مسابقين للمؤمنين ومعارضين لهم في أفكارهم وأعمالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وملازموها إلى أبد الآبدين.

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية الدالة على وجود أناس كافرين مشاكسين له ولأتباعه المؤمنين، وأنهم سعوا وبذلوا ما في طاقاتهم لمعارضة الرسول وإيقاع الشكوك والشبه في قلوب الناس واستمروا على ذلك أنزل سبحانه وتعالى ما يكون تسلية لقلبه الشريف فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي ما أرسلنا قبلك أحداً منهما إلا بحيث إذا قرأ ما نزل عليه من الله ألقى الشيطان الشُّبه في قراءته وفيما يقرأه إلى أوليائه من شياطين الإنس والجن حتى يوسوسوا بها في قلوب المؤمنين ليرتدوا عن دينهم وفي قلوب الكافرين حتى يستمروا على الكفر ولا يدخلوا في الإيمان. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ومثال تلك الشبه كما قالوا عند سماع قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾... الآية ما بال هذا الرسول يحل ذبيحته ويحرم ذبيحة الله؟ ومرادهم بها الميتة وكقولهم عند سماع قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أنه عبد عيسى من قبل

النصارى وعزير من قبل اليهود والملائكة من قبل قريش فيلزم أن يعذبوا في نار جهنم وقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ معناه فيبطل ويمحو الله تعالى تلك الشبه التي ألقاها الشياطين في قلوب أوليائه وألقاها أولياؤه في قلوب الناس بسبب توارد الآيات الواضحة الخالية عن مظانّ الإحتمالات الواهية وبتوفيق الله تعالى لرسوله في رد تلك الشبه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ آياته أي يثبت الله تعالى تلك الآيات بإظهار معانيها الواقعية المحققة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أعماله بحيث لا يخلو شيء منها عن حكمة جلية أو خفية يدركها أهل البصائر.

ومن جملة الحكم في الآيات الإحتمالية إختبار أهل القوة في الإيمان وامتيازهم من أصحاب الضعف فيه. ومنها تصدي المؤمنين لرد تلك الشبه حتى ينالوا الأجر منه تعالى وحتى يتمرنوا في الدفاع عن الدين. ومن جملتها ظهور أهل الزيغ بين الناس حتى يعرفهم المسلمون كما يظهر من قوله تعالى ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي الشبه التي ألقاها الشيطان في قلوب أوليائه وهم ألقوه في قلوب المؤمنين ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي بلاء ومحنة وزيغاً وانحرافاً للذين في قلوبهم مرض من الكافرين والمنافقين وضعفاء الإيمان ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي وفتنة للكفار الذين قست قلوبهم وأبت عن قبول الحق كأبي جهل وأبي لهب والنضر وعتبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الفريقين المذكورين يعني الذين في قلوبهم مرض والذين قست قلوبهم ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي لفي عداوة شديدة ومخالفة كاملة لله ولرسوله وللمؤمنين. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي العلم الصحيح الموافق للواقع ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي من تلك الآية المنزلة التي جعلوها وسيلة لإلقاء الوسوسة في قلوب الناس هي الحق من ربك ولا كدَرَ ولا غبار عليها ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فيؤمن الناس به من الذين لم يؤمنوا بعد، ويثبت الذين آمنوا على الإيمان به أو يزداد إيمانهم به ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي تتواضع ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ فتنقاد وتطيع ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من النظر الصحيح الموصل إلى كشف معاني الآيات بحيث لا يتمكن أي كافر من إلقاء الشبهِ فيها.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في شك من النازل إلى الرسول ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ شديد العسرة لا مجال فيه للإلتجاء إلى أي واحد.

وفي روح المعاني: ما نصه وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ قدر في نفسه ما يهواه

و﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ تشهيهِ وما (يلقيه الشيطان) ما يوجب اشتغاله في الدنيا. وجعله فتنة ما يظهر منه من الاشتغال بأمور الدنيا، ونسخه إبطاله بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزينه انتهى.

ومعنى الآية الكريمة على هذا: أنه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ واشتهى مقاصده الخيرية من نصر الله تعالى له ونشر دينه وكثرة أتباعه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ ما يخالف مقامهما ويعارض كرامتهما كالاعتلاء على الناس والعظمة والشهرة ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ تعالى برعايته لهما وصيانتهما عن الرذائل ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلى قلوبهما ويحكم آياته أي آثاره الناتجة من نصرهما وإعزازهما بحيث لا تشوبها المفاسد وتكون صافية عن الأكدار والأقذار حتى لا يبقى من آثارهما إلا ما يناسب مقامهما إنه عليم بكل ما يختلج في القلوب وحكيم في حفظ أحبابه من العيوب وهذا المعنى أوفق بالواقع من الأول، لأن النبي هنا عام مقابل للرسول. والعام المقابل للخاص يراد به غيره، والرسول له الكتاب والقراءة غالباً، وقد لا يكونان للنبي فلا تكون عنده آيات مقروءة حتى يلقي الشيطان فيها ما يوسوس به في صدور المؤمنين الضعاف أو الكافرين ما ينحرفون به عن الحق وسلوك سبيل الرشاد. لكنه يحتاج هذا المعنى إلى تأويل الآيات بالآثار الدالة على قدرة الباري ونصر الأنبياء والمرسلين.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي السلطنة والعظمة يوم تأتي الساعة أو عذابها لله وحده لا شريك له ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى عدله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم أهل العقيدة الثابتة والأعمال الصالحة ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لا يتحولون عنها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم الذين يستمرون في المعارضة والمقارعة وإلقاء الشبه الواهية ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ محقر مرذل. وهنيئاً لمن حقر الحق التحقير والترذيل ولمن أهان الإسلام ونظام السعادة الإهانة والتذليل.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ

ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله، ثم قُتِلُوا في الجهاد أو غيلةً، ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ أي في تضاعيف المهاجرة أو بعد الوصول إلى المهجر ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي في البرزخ ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ ممتازاً عن أرزاق سائر المؤمنين. وفي الآية تشريفهم وتبشيرهم بهذا الوعد الصادر ممن لا يخلف الميعاد. ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشرين من الصحابة ﷺ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنه يرزقُ من يشاء بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحدٌ غيره ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وظاهر الآية واتصالها بما قبله أن الإدخال يتحقق في البرزخ أي أن مدخلهم واسع جامع للذات الروحية بعيد عن المنغصات. ويحتمل أن يراد به مدخله في الجن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأعمالهم وما يستحقونه من درجات النعيم ﴿حَلِيمٌ﴾ في السماح وصرف النظر عن هفواتهم في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ مرة ثانية ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ قيل إن الآية نزلت في قوم قاتلهم المشركون في محرم فقاتلوهم، ثم عاد المشركون عليهم فحاربوهم ونصرهم الله على أولئك المشركين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه في الإنتقام وأعرض عما ندب إليه من الصبر والسماح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي ذلك النصر على المشركين بسبب أن الله تعالى قادر على كل شيء فيقدر على تغليب بعض مخلوقاته على بعض كما هو قادر على تحريك الكرة الأرضية مع كبر حجمها إلى أن تغرب عنها الشمس ثم تحريكها إلى أن تطلع عليها مع التصرف في هذا التحريك بجعله على مدارات متعددة، في بعضها يتساوى الليل والنهار، وفي بعضها يدخل بعض أوقات الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار، وفي بعضها يعكس ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بكل المسموعات و﴿بَصِيرٌ﴾ بكل المبصرات، ومن جملتها ما يقع من الأقوال والأعمال الموافقة للحق والمخالفة له و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المتصف بالكمالات الذاتية

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي وأن ما يعتبرونه إلهاً معبوداً بالحق هو في ذاته باطل، أي معدوم من حيث الألوهية ولا يستحق الاعتبار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ العالي على جميع الأشياء المعتبرة ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ المتعالي عن أن يكون له شريك في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إستئناف لتوجيه العقلاء إلى النظر في آثار قدرة الله ليستدلوا بها على وجوده ووحدته وكماله ولا يدعوا من دونه أحداً. فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا من يمكن منه الإبصار للأعيان والعلم بالأشياء ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من جهة العلو ﴿مَآءً﴾ على أرض هامدة فتصبح ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ أي فتصير ﴿مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده يعاملهم برفق ومجاملة فيحول الأرض التي هي كالفرش تحت أقدامهم من اليبس والجمود إلى الإخضرار بالورود و﴿خَبِيرٌ﴾ بدقائق الحقائق وجلائلها، ويسري علمه في الأشجار والأوراق الحاصلة منها، والأوراد الناشئة عليها و﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الناس ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، وإنما يأمرهم بالإعتقاد السليم لتتنور قلوبهم فتهيج جوارحهم على اقتضائها لعبادة ربها فيفوزوا برضاه عند لقاه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ بإنعامه على عباده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعل ما فيها منقادة لكم بالذات أو

بالقوة المودعة عندكم المسيطرة عليها ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي ألم تر أن الفلك تجري في البحر بأمره أي بقدرته التي جعلت المياه قابلة لسير السفن عليها والإنسان عالماً بكيفية سوقها وإرسائها وتحريفها يميناً وشمالاً ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ألم تر أنّ الله يمسك السماء كراهة أن تقع على الأرض فتدمرها وتهلك من عليها وذلك بخلق جاذبية في المواد العلوية والسفلية تجذبها في الجو إلى مراكزها أو قوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أي أمسكها أن تقع على الأرض بسبب من الأسباب إلا بسبب إذنه لها في الوقوع عليها لأنها إذا انشقت السماء وانفطرت وتلاشت وقعت أجزاء منها على الأرض. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث سخر لهم ما سخر ومنع السماء من وقوعها عليهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي خلق الحياة فيكم بعد أن كنتم مادة لا حياة فيها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد انتهاء مدة بقائكم أحياء ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ إذا جاء وقت البعث والحشر ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي لجحود بالنعم مع وصولها إليه ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي لكل أمة قررنا شريعة تمشي عليها، وأمة الإسلام أمة من الأمم ﴿فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين، ولا حق لهم فيه ولا يحق لهم النزاع معك ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى توحيده وعبادته حسب شريعتك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنك على طريق مستقيم بلا شك وشبهة ﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ﴾ في أمر الدين بعد ظهور الحق ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إنه تعالى أعلم منكم بأعمالكم وبجزائها وسترون الجزاء عن قريب ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ من أمر الدين ويميز الحق من الباطل ويعين المحق عن المبطل فيرى كل جزاءه موافقاً لعقيدته وعمله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ فلا يخفى عليه شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ﴾ أي ما في السماء والأرض في كتاب هو اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لبعض أباطيل الكافرين فيقول: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي حجة ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ أي وأوثاناً ليس لهم علم باستحقاقه العبادة، أي لا دليل عقلياً على جواز عبادته كما لا دليلَ نقلاً عليه، وما دام دأبهم ذلك فهم من الظالمين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ حال كونها ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ أي واضحات ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي الشيء المنكر والمراد به علامة الإنكار ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ﴾ يا رسولي: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أخاطبكم أو أتسمعون فأخبركم ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ الذي فيكم من غيظكم على الذين يتلون القرآن عليكم وهو ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ يعني إنكم الآن مبتلون بنار في صدوركم وهي العداوة مع المسلمين التالين لآيات الله، وفي الآخرة تبتلون بنار أشدَّ من هذهِ النار ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أعاذنا الله منها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ أي بين لكم قصة بديعة عجيبة ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ استماع تفكر للإعتبار وهي التي تذكر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ أي إن جميع ما تدعونه من دون الله باعتبار أنها آلهة لا يقدرون على خلق ذباب واحد مع صغر حجمه، ولو اجتمع كلهم؛ فإن اجتماع الجامد مع الجامد لا يلزم منه إلا المزيد في الجمود، واجتماع الضعيف مع الضعيف في العقل تحصل منه قوة فيه لكن لا يبلغ مبلغ الاقتدار على الإبداع للمعدوم وإيجاد الروح في ما لا روح له. ومن لوازم الإله السيطرة والتصرف في الممكنات بالإيجاد وخلق الروح والصفات الفاضلة بحسب تعلق إرادته، وعلاوةً على أن لا قدرة لهم على الإفادة لا قدرة لهم على الإسترداد لما فات ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ أي شيء كان ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ أي لا يقدرون على استرداده منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ وهو عابد غير الله ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ وهو

الإله المفتعل المَصنُوعُ العاجز عن كل شيء حتى عن أن يبالَ عليه فضلاً عن التصرف فيما لديه. ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يعني إن أولئك الذين اتخذوا آلهة من دون الله ما عرفوا الإله الذي يستحق العبادة فما عرفوا الله الجامع للكمالات الواجب الوجود المهيمن على كل موجود الخالق المعبود ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حق معرفته وإلا كانوا يخجلون من نسبة الآثار إلى غيره تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على جميع الممكنات ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالب على ما تعلقت به مشيئته في الكائنات. وبيده العزة والجبروت يُعز ويذل وينبىء ويرسل.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ بأوامره في العالم ويتوسطون بين ذاته وبين رسله من البشر بالإيحاء ﴿و﴾ كذلك يصطفي ﴿من الناس﴾ رسلاً إلى عباده لتبليغ الأحكام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بجميع المسموعات والمبصرات ويعلم ما وراءها من الأفكار والنيات، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أحوالهم من كل باب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلها للجزاء لا إلى غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ لما قرعَ أسماع المشركين بالدليل القاطع على جهالتهم وضلالتهم نظر إلى عباده المهتدين الراشدين وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وسلكوا سواء سبيله أدوا صلواتكم بكمال أركانها، واهتموا بأقوى أركانها ﴿وَٱرْكَعُوا۟﴾ لمن ركعت له السماوات ﴿وَٱسْجُدُوا۟﴾ لمن سجدت له جباه الممكنات ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ أي ما هو خير من كيفيات الإتيان بالفرائض والنوافل من آدابها، فخذوا الأكمل بدل الكامل حتى تؤدوها خير الأداء، فإنها صلة بين العبد وربه ومعراج المؤمن للوصول إلى غاية إربه، أو افعلوا الخير من سائر الوجوه من الصدقات والصيام، وإطعام الطعام وإسعاف المحتاجين من الأنام لتؤدوا حق الإسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي وحالكم أنتم راجون الفلاح من الله تعالى.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي جاهدوا لإعلاء كلمة في سبيل مرضاة الله لا لغاية أخرى، أو جاهدوا النفس في كبح جماحها، والشيطان في رد تلبيسه فإن هذه المجاهدة في غير ما إذا كان الجهاد فرض عين أكبر من جهاد الكفار كما يشعر به ما أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال قدم على رسول الله قوم غزاة فقال: «**قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «**مجاهدة العبد هواه**» وفي إسناده ضعف مغتفر في مثله ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي هو جل شأنه اختاركم من بين الأمم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ أي ضيق خارج عن نطاق القدرة ويشتد القيام به ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ منصوب بفعل دل عليه ما قبله أي قبل نزول القرآن ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي وفي القرآن وتلك التسمية جرت في أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة أنه قد بلغ الدين إليكم ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ روي أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لأنبيائهم: هل بلغتم أممكم؟ فيقولون: نعم بلغناهم، فينكرون، فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي اعتمدوا عليه وثقوا به في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أي متولي أموركم وناصركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هو إذ حق النصير حق النصرة أن يكون قديراً، والقدير المطلق هو الله تعالى وحده.

فهرس المجتويات

بقية الجزء الثالث عشر سورة الرعد ٥
سورة إبراهيم ٣١
الجزء الرابع عشر سورة الحجر ٥١
سورة النحل ٧٢
الجزء الخامس عشر سورة الإسراء ١١٥
سورة الكهف ١٦٦
الجزء السادس عشر ٢٠٠
المبحث الأول ٢١٠
المبحث الثاني في الكلام على إفسادهم في الأرض: ٢١٠
المبحث الثالث قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ ٢١٢
المبحث الرابع ٢١٤
المبحث الخامس ٢١٥
سورة مريم ٢١٩
سورة طه ٢٤١
الجزء السابع عشر سورة الأنبياء ٢٧١
سورة الحج ٣٠٢